اتحاد الكتاب العرب - دمشق

سيف الدين القنطار

أعلام في السياسة والأدب والفن

تؤلف الثورة السورية الكبرى بينهم



شكيب أرسلان - رشيد طليع - أسمهان - سلامة عبيد - صياح الجهيم

سلسلة الدراسات (14)
2013

عاش شكيب أرسلان ورشيد طليع وأسمهان وسلامة عبيدٍ وصياح الجهيم وقائع الثورة السورية الكبرى وتأثروا بها كلٌ على طريقته.

فقد تنقّل سلامة عبيد طفلاً من مغارة إلى أخرى في شعاب الجبل، واستجاب رشيد طليع لنداء الثورة، وانهمك في عملها القيادي، وغنت أسمهان أغنية "يا ديرتي" ولهذه الأغنية مكانة أثيرة في نفوس أبناء الجبل وتلقى الأمير شكيب رسالة من قائد الثورة سلطان الأطرش يقول فيها: "وكلّنا عطوفتكم بإعلام عصبة الأمم، أننا حملنا السلاح ودافعنا عن أطفالنا وعِيالنا... وأنها هي أيضا مسؤولة عن دمائنا المسفوكة ظلما".

ورأى صياح الجهيم أن ملاحم الثورة تمثلت في: قيادة شعبية شجاعة تحظى بثقة الناس، فقد كان الفلاحون البسطاء هم وقود الثورة، وهم صّناع تاريخها المظفر.

9 789933 212087

السعر: داخل القطر (240) ل.س
خارج القطر (320) ل.س

مطبعة اتحاد الكتّاب العرب
دمشق

أعلام في السياسة والأدب والفن

تؤلف الثورة السورية الكبرى بينهم

سيف الدين القنطار

أعلام في السياسة والأدب والفن

تؤلف الثورة السورية الكبرى بينهم

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة الدراسات (14)
2013

البريد الالكتروني: E-mail unecriv@net.sy

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu.sy

الإخـراج الفـني: وفـاء الساطي
تـصميم الغـلاف: فاطمة الجابي

تقديم

تبلورت فكرة هذا الكتاب بعد طول تأمل لما يجمع بين أبحاثه، وقد تناولت سيرة حياة الأمير شكيب أرسلان، والمجاهد رشيد طليع، والفنانة أسمهان والشاعر سلامة عبيد، والأديب صياح جهيم.

فعلى الرغم من تنوع المشارب، والاهتمامات التي تميز أحدهم من الآخر، وعلى الرغم من تباين الزمان والمكان، واختلاف الظروف والأحوال والأحداث، التي أظهرت فرادة كل واحد منهم وكشفت جوهر شخصيته، إلا أن الحياة التي خاضوا معتركها قدمت كثيراً من الأسباب، والوقائع التي تكشف لنا بجلاء القاسم المشترك بينهم، فلقد عاشوا وقائع الثورة السورية الكبرى، أو تأثّروا فيها، إلى هذا الحد أو ذاك، ويبدو أنَّ إسهامهم بالسيف أو بالقلم في الدفاع عنها، والتغني ببطولات مجاهديها وفرسانها يُظهر ظهوراً جليّاً ارتباطهم العميق بها. فمنهم من واكب الثورة طفلاً، وتنقل مع الثائرين من معقل إلى معقل على وقع قنابل طائرات العدو وقذائف دباباته، ومنهم من كان ركناً من أركان الثورة، وقاتل في صفوفها حتى الرمق الأخير، ومنهم من دافع عن الثورة في المحافل الدولية وكرّس قلمه للذود عن حق الشعب السوري في الحرية والسيادة، ومنهم من أسهم في تأريخ الثورة، ونشر قيمها بحيث بدت الثورة وكأنها ينبوع فكر وإلهام يجسد رؤاهم ويوجه سلوكهم ويُعبر خير تعبير عن مثلهم الوطنية؛ ولهذا كان لا بد من العودة إلى سِفْر الثورة للتعرّف على حقيقة

ما تنطوي عليه من سمات فريدة، وخصائص مميزة جعلت لها هذه المكانة في نفوسهم، وعقولهم، وأبقتها محط اهتمام الباحثين والمؤرخين حتى اليوم.

1- كان القائد العام للثورة فلاحاً ابن قرية متواضعة، يلّم بالقراءة والكتابة، ولكنه في ساحات المعركة كان فارساً معلماً، وبطلاً شعبياً لا يشق له غبار، وقد شاركه في معارك الثورة إخوته الثلاثة، وكانوا من أركانها، واستشهد أحدهم في معركة الكفر أولى معارك هذه الثورة.

2- جذبت أحداث الثورة (1925 – 1927 م) انتباه العالم أكثر من سنتين، فقد استطاع شعب قليل العدد، لا يمتلك سوى أسلحة بدائية كالسيوف والفؤوس والبنادق القديمة، أن يخوض معارك شرسة في وجه واحدة من أعتى الإمبرياليات العالمية في الربع الأول من القرن العشرين، وأن يلحق بقواتها هزائم عديدة، خلال أعمال بطولية قاربت حد الأسطورة.

3- جاءت الثورة تتويجاً لمعارك وانتفاضات، وحرب عصابات في مختلف المناطق السورية منذ اللحظة التي وطئت فيها أقدام الغزاة الفرنسيين الأراضي السورية، " ولقد اعترفت وثائق الأرشيف الفرنسي نفسها بأن الجيش الفرنسي أُجبر على مجابهة عشرات الانتفاضات التي ما كانت تهدأ في منطقة حتى تعود وتندلع في منطقة أخرى "[1]

4- كانت معركة المزرعة قرب السويداء، أبرز معارك الثورة السورية وأكثرها أهمية، وقد بعث النصر المؤزر فيها الروح النضالية في أرجاء البلاد من جنوبها إلى شمالها، ومن شرقها إلى غربها، ومهد الطريق لنشر الثورة في مناطق عديدة من سورية ولبنان، ومنحها الطابع الشمولي بحيث سوّغ تسميتها بالثورة

---

[1] فلاديمير لوتسكي – الحرب الوطنية التحررية في سوريا 1925 - 1927 – بيروت – الفارابي - 1987 – ص 5

السورية الكبرى، ففي المؤتمر الذي عُقد بعد المعركة في بلدة " ريمة الفخور " قرب السويداء، وشارك فيه ممثلو الحركة الوطنية بدمشق وغيرهم من المجاهدين السوريين "تقرر:

أ. متابعة الثورة حتى تنال البلاد استقلالها التام.

ب. تسمية سلطان الأطرش قائداً عاماً للثورة.

ج. تولية الدكتور عبد الرحمن الشهبندر إدارة الشؤون السياسية للثورة، وتسميته ناطقاً رسمياً باسمها "[1]. ودعوته إلى كتابة ميثاق الثورة الوطني.

ولقد وصف الجنرال الفرنسي أندريا ما شهده بنفسه من آثار معركة المزرعة بعد نزول حملته في المكان نفسه في مطلع تشرين أول 1925 فقال " وصلنا إلى عين المزرعة حيث مُنيت حملة فرنسية بهزيمة منكرة في 2 آب الماضي، وما تزال هذه المأساة مرسومة على أديم الأرض، وهي حقاً منظر للدمار الفظيع. العظام مبعثرة فوق التراب، ومومياء الأجساد البشرية التي جففتها شمس الشرق المحرقة ملقاة في كل مكان؛ هنا عربات مقلوبة محطمة الدواليب، وهناك شاحنات محروقة، لم يبق منها سوى الهياكل، وفي البعيد سيارات مجهزة بالرشاشات معطّلة مكسّرة، وقد تكدّست إلى جانبها جثث ركابها، إنها لمعركة محزنة حقاً، تجلب الضيق والغم، وهي شهادة ظاهرة على المصيبة التي حلّت بنا، إن شرايين القلب لتتقطع بألم شديد، وسط هذا الحطام وبقايا الأشلاء البشرية.. "[2]

5- صدر البيان الأول عن الثورة بعد مؤتمر ريمة وقد جاء فيه:

---

[1] سلطان الأطرش - أحداث الثورة السورية الكبرى - دمشق - دار طلاس - ط2 - 2008 - ص 130

[2] الجنرال أندريا - ثورة الدروز وتمرد دمشق - ترجمة حافظ ابو مصلح - بيروت - المكتبة الحديثة 1985 - ص 107

" إلى السلاح إلى السلاح يا أحفاد العرب الأمجاد... هذا يوم انتباه الأمم والشعوب فلننهض من رقادنا، ولنبدد ظلام التحكم الأجنبي عن سماء بلادنا... لقد أثبتت التجارب أن الحق يؤخذ ولا يعطى فلنأخذ حقنا بحد السيف، ولنطلب الموت توهب لنا الحياة..إلى السلاح أيها الوطنيون ولنغسل إهانة الأمة بدم النجدة والبطولة. إن حربنا اليوم مقدسة ومطالبنا هي :

أ ـ وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها، والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة، مستقلة استقلالاً تاماً.

ب ـ قيام حكومة شعبية تجمع المجلس التأسيسي لوضع قانون أساسي يقوم على مبدأ سيادة الأمة سيادة مطلقة.

ج ـ سحب القوى المحتلة من البلاد، وتأليف جيش وطني لصيانة الأمن.

د ـ تأييد مبدأ حقوق الإنسان في الحرية والمساواة والإخاء.

هـ ـ إلى السلاح ولنكتب مطالبنا المشروعة هذه بدمائنا الطاهرة، كما كتبها أجدادنا من قبلنا.

6-شارك بعد معركة المزرعة أبناء سورية في المعارك التي اندلعت في الجبل فقد " كان ثوار دمشق يقاتلون جنباً إلى جنب في معركة المسيفرة ومعركة السويداء وغيرها من المعارك، " كما شارك أبناء الجبل في معارك الغوطة والقلمون وحماة وحوران وراشيا، وفي الهجمات التي شنها الثوار على معاقل الفرنسيين في دمشق لطردهم منها وتحرير العاصمة "[1]. كما ارتبطت الشخصيات السياسية الوطنية بالثورة السورية بروابط متينة في سبيل الذود عن حرية الوطن واستقلاله، " وبخاصة الذين ينتمون إلى حزب الاستقلال أمثال السادة : شكري القوتلي ونبيه العظمة وعادل أرسلان والحاج أمين الحسيني ورشيد عالي

---

[1] سلطان الأطرش – أحداث الثورة السورية الكبرى – مصدر سابق - 135

الكيلاني ورشيد طليع ورضا الصالح وإحسان الجابري ومحمد رشيد رضا والدكتور أحمد مريود والدكتور مصطفى غزي وغيرهم. وتطوع عدد كبير من الضباط في صفوف الثورة أمثال نزيه المؤيد وشوكت العائدي ومصطفى السمان وزكي الدروبي ومظهر السباعي وخطار أبوهرموش وإبراهيم صدقي وصادق الداغستاني وفؤاد رسلان وحسن المدفعي وآصف السفرجلاني وغيرهم كثيرون"[1]

7-أدركت قيادة الثورة أهمية العمل السياسي والتوجه إلى الرأي العام الفرنسي والعالمي، وتقديم الوقائع المتعلقة بما تمارسه قوات الاحتلال من " إثارة الأحقاد والنزعات الطائفية والدينية، واقتلاع جذور الحركة الوطنية، ووضع الشعب السوري تحت نير العبودية والذل "[2]. ففي 25 أيلول 1925 أُرسلت برقيات إلى رئاسة مجلس النواب الفرنسي، وإلى وزير خارجية الولايات المتحدة، وإلى رئاسة مجلس الوزراء في كل من بريطانيا وإيطاليا، وإلى بعض الصحف في العواصم الأوربية الكبرى جاء فيها: " إن عموم السوريين يقاسون أشد آلام الحكم العسكري الفردي، والظلم الفرنسي منذ الاحتلال بصورة تهدد السلام دائماً، وتشعل نار الأحقاد بين الشرق والغرب. إن القوات التي تُساق اليوم لخراب بلادنا وقتل الحرية ومبادئ حقوق الإنسان، تضرب النساء والأطفال والشيوخ والقرى الآمنة بقنابل طياراتها ظلماً وبغياً، وهذا ما يضطرنا للدفاع عن كياننا وشرفنا حتى الموت. تحمّل رجال فرنسا وحدهم مسؤولية سفك الدماء البريئة، ونستنجد بالأمم المتمدنة أن تبطل رق الشعوب، بعد أن أبطلت رق الأفراد".[3]

---

[1] المصدر نفسه ص 95
[2] المصدر نفسه - ص 130
[3] المصدر نفسه – ص 139

8- كان فريق من الضباط والجنود المغاربة في الجيش الفرنسي المحتل يتحاشى إطلاق الرصاص على الثوار بدافع من الشعور القومي، " وعمد بعض هؤلاء الضباط إلى الاتصال بقيادة المجاهدين سراً، وراح يبعث إليهم بأخبار الحملات العسكرية المقرر إرسالها إلى الغوطة وغيرها، وكان يأمر جنوده المؤتمنين بترك الأسلحة وصناديق الذخيرة والقنابل اليدوية ليفيد منها الثوار "[1].

وضع الثوار نصب أعينهم خطة لمهاجمة دمشق، وتطهيرها من القوات الفرنسية، وتشكلت من جموعهم ثلاث فرق، اقتحمت المدينة، في منتصف تشرين الأول1925، وتمكن المجاهدون وعلى رأسهم حسن الخراط ونسيب البكري، من الاستيلاء على ثكنة الدرك المعروفة بقلعة الحميدية، وغنموا منها كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر، وداعب مخيلة بعضهم اختطاف الجنرال " ساراي " من مقره في قصر العظم، ولكنه ولحسن حظه لم يكن موجوداً فيه، وقد ثارت ثائرة المفوض السامي وتوجه إلى بيروت بعد أن أمر بقصف المدينة، فآثر المجاهدون الانسحاب رأفة بسكان دمشق، الذين تعرضت مدينتهم إلى قصف بربري صباح يوم الاثنين 19 تشرين أول استمر يومين، ودُمِّرت من خلاله تدميراً شاملاً مناطق في المدينة تُعرف اليوم بالحريقة التي تضم الحميدية شمالاً وسوق مدحت باشا جنوباً، وامتدت ألسنة النيران إلى أحياء الشاغور والقنوات والميدان، وأقام الجنرال أندريا حزاماً عريضاً من الأسلاك الشائكة حول دمشق تتخلله المعاقل الحصينة ومرابض الرشاشات الثقيلة، ولكن ذلك لم يفت من عضد الثوار، الذين راحوا يهاجمون من مراكزهم في الغوطة مواقع القوات الفرنسية. وقد طلب الفرنسيون بعد قصف دمشق من السكان تسليمهم مئة ألف ليرة ذهبية، و ثلاثة آلاف بندقية، وكان من المستحيل الموافقة على ذلك، ففرضت القيادة الفرنسية على السلطة المحلية دفع الغرامة المطلوبة من صندوقها.

---

[1] المصدر سابق– ص 197

لقد أثارت النكبة التي حلت بدمشق مشاعر الأسى والحزن العميق في بلاد العرب، واهتز لها وجدان العالم المتمدن وضميرهم استنكاراً. وقد عبّر أمير الشعراء أحمد شوقي عن ألمه العميق لما أصاب دمشق من دمار، وأشاد بشجاعة الثائرين بقصيدته " نكبة دمشق " فقال:

وبي مما رمتك به الليالي ... جراحات لها في القلب عمقُ
تكاد لروعة الأحداث فيها ... تُخال من الخرافة وهي صدق
بليل للقذائف والمنايا ... وراء سمائه خطف وصعق
إذا عصف الحديد احمّر أفق ... على جنباته واسود أفق
بلاد مات فتيتها لتحيا ... وزالوا دون قومهُم ليبقوا[1]

وحذا حذو شوقي أبرز الشعراء العرب في العراق ولبنان وسورية وفي المهجر، كما أذاع سعد زغلول بياناً على الشعب المصري دعا فيه إلى دعم الثورة السورية قال فيه: " بني وطني: سورية التي تربطنا بها روابط وثيقة من تاريخ ولغة ودين وعادة وجوار، نزلت بها هذه الأيام حوادث تقشعر من هولها الأبدان، ونوازل جائحة تنخلع من بشاعتها القلوب، وشرور من أفظع ما يرتكبه إنسان ضد إنسان، منكرات ارتكبها عمّال حكومة الانتداب ضد محكوميهم الآمنين، فأزهقوا الكثير من الأرواح البريئة وأراقوا الغزير من دمائهم الطاهرة، وأحرقوا كثيراً من قراهم وبيوتهم، وعفوا كثيراً من آثار مدنيتهم الفاخرة، ورحلّوا الجم الغفير من نسائهم، ويتمّوا العديد من أطفالهم، وصيّروا كثيراً من السكان بلا سكن يأويهم ولا غطاء يغطيهم ولا خبز يقتاتون به.. إننا

---

[1] أحمد شوقي – الشوقيات - بيروت – دار الكاتب العربي - ج 2 – ص 76

معاشر المصريين لنشعر في قلوبنا بكل عطف على إخواننا، ونحس بأن علينا واجب مساعدتهم وهذا أيسر ما يجب، وأقل ما نساعد به... ".

وكان للبيان صدى عميق لدى القيادة العامة للثورة وعزّز لدى الثائرين الروابط القومية، فطُلب من الدكتور شهبندر الكتابة إلى سعد فكتب إليه: "....من تحت السماء الصافية الأديم التي تعكرّها الطيّارات بالقنابل المفرقعة، وفي وسط حلقة من المجاهدين الذين عاهدوا بلادهم أن يفتدوها بالغالي والرخيص، وباسم الجيش الوطني الذي يكتنف الأعداء من جميع الجهات، وبجانب القائد العام للثورة، نرفع لزعيم مصر عظيم الامتنان على ندائه البليغ لإسعاف القطر السوري الذي يجاهد كالقطر المصري لتحرير نفسه من رق العبودية ووصمة الاستعمار....."[1]

9- عمد الفرنسيون إلى شتى أساليب الدعاية الماكرة والحرب النفسية، بقصد إيهام الثوار، وتضليلهم، والنيل من عزيمتهم، فإثر معركة المسيفرة التي خسر فيها المجاهدون نحو مئتين وخمسين شهيداً من خيرة فرسانهم، وأكثرهم بسالة، بعد أن وقعوا في كمين نصبه لهم الفرنسيون، راح الفرنسيون يشيعون بأن كارثة عظيمة نزلت بالثوار، وسوف يعقبها كوارث أخرى إذا هم تابعوا مسايرتهم لقادة الثورة، والمشايعين لها، وحرص الجنرال غاملان على إخفاء ما تعرضوا له من خسائر، وزعم أنهم حققوا نصراً مؤزراً على الثوار، ولقد كشف الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الحقيقة في مذكراته قائلاً: "كان من نتائج هذه المعركة العظيمة أن فقد الفرنسيون ما يربو على تسعمئة من الجنود....والذي يهم في هذا الشأن أن العدو استطاع بفضل دهائه وتنظيم دعايته أن يقنع الثوار بأنهم كُسروا وهُزموا شر هزيمة...ولولا معركة السويداء الأخيرة لقلت: إنَّ وقعة

---

(1) سلطان الأطرش – مصدر سابق – ص 266

المسيفرة هي ختام الحرب التي ظهرت فيها البطولة في أضخم مظاهرها وأعظم شدتها.."[1]

وفي أحد مناشير المفوض السامي " دو جوفينال " يقول: لماذا أنتم تقاتلون؟ ومن أجل من تحاربون؟ إن فرنسا وحدها تستطيع أن تمنحكم القمح، والماء، والمدارس، وتلك الحرية التي تنقصكم....إن إراقة الدماء وجوع نسائكم وأطفالكم، ودماركم، وهزيمتكم التي لن يفيدها علاج، لست مسؤولاً عنها وإنما المسؤول هو من يقودكم، والأجانب الذي يشترونه، فارضين عليكم معارك ستقضي عليكم دون أن تضيع من رؤوسهم شعرة واحدة.."[2] وردت لجنة مكلفة من قيادة الثورة على البيانات الفرنسية رداً ذكياً، وكانت تعمم هذه الردود على المستوى الدولي.

10- لم تكن طريق الثورة معبّدة، بل مضت في دروب متعرجة، وخضعت لقانون المدّ والجزر، كان التراجع يتراءى حين يشتد حصار الثائرين، وتضيق عليهم سبل الإمداد، ويصعب عليهم الحصول على الماء وعلى رغيف الخبز، وكان النهوض يأتي من خلال فريق من ذوي الشجاعة الاستثنائية الذين يسددون الضربات إلى القوات الفرنسية ويدحرونها، ويبعثون الأمل بالفوز، فيتابع الثائرون مسيرتهم، وفي حقيقة الأمر خاض مجاهدو الثورة السورية وفرسانها معارك ظافرة، ولحقت بهم انتكاسات خطيرة، وفي معقل الثورة قاتل الفرنسيون، في كل قرية ومزرعة ومدينة، ودافع المجاهدون ببسالة عن قراهم ومدنهم وبيوتهم حتى آخر رصاصة، وامتد القتال إلى سائر أرجاء الوطن وقدم ابناء سورية آلاف الشهداء وسقوا بدمائهم تراب وطنهم، ولم يرفعوا راية الاستسلام.

---

(1) عبد الرحمن الشهبندر – مذكرات – دمشق – 1933- ص 39 - 40

(2) الجنرال أندريا – مصدر سابق – 139

11- ولعل سمة الثورة الأهم تتجسّد في الدور الذي قام به زعماؤها، وقادتها فقد ساروا في طليعة الثائرين لا خلفهم، وقذفوا بأنفسهم في ساح الجهاد وتقدموا الصفوف معرضين أرواحهم للموت قبل غيرهم، كان ذلك شأن القائد العام للثورة ورفاقه من أركان الثورة مثل نسيب البكري وفوزي القاوقجي وزيد الأطرش وسعيد العاص ومحمد الأشمر ومحمد عزالدين وشوكت العائدي ويوسف العيسمي ورمضان شلاش وحمد صعب ومنير الريس وعلي عبيد، وفؤاد سليم، وقد سقط العديد من هؤلاء القادة في معارك الثورة كالشهيد حسن الخراط والشهيد أحمد مريود والمجاهد رشيد طليع والدكتور عادل النكدي، وحمد البربور وكان هؤلاء المثال والقدوة لسائر محاربي الثورة فلقد وصف أحد الفرنسيين شجاعة المجاهدين عام 1926 في إحدى معارك الثورة وقد رآهم بأم عينه قائلاً: "كانوا كلهم شيوخاً ضعفاء ذوي لحى تكاد تصل خصورهم، ظهروا كأنهم يتمتعون بحياة سحرية وزخات الرصاص تنهمر عليهم، وكأنما لا تترك أثراً فيهم، وقد تبين أن الرصاص أصابهم جميعاً، وكان البعض منهم ميتين وهم واقفون على أقدامهم"[1].

12- لقد ضيق الفرنسيون الخناق على الثوار، بعد عامين من القتال الضاري، وغير المتكافئ، ولم تدّخر جحافل الجيش الفرنسي جهداً لإخماد جذوة الثورة، وطلبوا مساندة البريطانيين لمحاصرة الثوار وإرغامهم على الاستسلام، غير أن قائد الثورة وعدد كبير من المجاهدين آثروا العيش في المنفى، وأبوا الخنوع لإرادة المحتل، لإيمانهم العميق بأن قضيتهم ستبقى حية في أوساط شعبهم، فانتقلوا إلى وادي السرحان بصحراء النبك في نجد، وذاقوا شظف

---

[1] برجيت شيبلر – انتفاضات جبل الدروز وحوران من العهد العثماني إلى دولة الاستقلال – بيروت – دار النهار – 2008- ص 28

العيش في تلك القفار الخالية التي صوّرها الشاعر عادل أرسلان الذي أمضى مع رفاقه في تلك الصحراء أكثر من عشر سنوات قائلاً :

يا ساهراً في النبك أين الألى … أنت من الشوق إليهم قريح
في مهمه قفر كأن السما … لم تروه بالقطر من عهد نوح
إنسانه ضّب وأشجاره شيح … وأصوات التغني فحيح
قد زعموا الوادي لنا مرقداً … وكل بيت يحتويه ضريح
وما دروا أن نفوساً لنا … تنفحنا في كل يوم بروح

استمر الشعب السوري في نضاله ضد الاحتلال بصور شتى، ولم يذق الفرنسيون طعم الاستقرار، وقادت الكتلة الوطنية الكفاح السياسي، عقدت المؤتمرات، وشكلت الوفود المطالبة بالاستقلال، ودعت الشعب السوري إلى الإضرابات، والمظاهرات، وعدم الانصياع لإرادة المحتل، ولم تنقطع الصلة بقيادة الثورة السورية في صحراء النبك، وفي شهر آذار عام 1936 أُسسَ وفد برئاسة هاشم الأتاسي ونجح في توقيع معاهدة تنّص على استقلال البلاد ووحدتها، ومهدت المعاهدة الطريق لعودة المجاهدين إلى ربوع الوطن يوم الأربعاء 19 أيار 1937، وحول هذه العودة يقول قائد الثورة سلطان الأطرش " لقد كان استقبالنا في العاصمة الأموية منقطع النظير، حيث يعجز الإنسان عن وصف شوارعها المزدانة بأبهى حلة من أقواس النصر وفاخر السجاد، وبمئات الألوف من المواطنين والمواطنات، الذين كانوا يموجون فيهان ويرددون الأناشيد الوطنية والهتافات المدوية بحياة المجاهدين "[1]. وفي الاحتفال الرسمي الذي حضره رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي ألقيت كلمات وأُنشدت قصائد ومنها قصيدة الشاعر حليم دموس التي يقول فيها : ،

---

[1] سلطان الأطرش - أحداث الثورة السورية – مصدر سابق - 348

عـادوا فـضج الـشرق لما عــادوا فكأنمـــــا أيامنـــــا أعيـــاد
طربـت دمـشق وهللـت أم القـرى للقادميـــن وكـــبرت بغـــداد
وصـفا لهـم لبنـان مغتبطـاً وفـي جنبيـــه يخفـــق للقـــاء فـــؤاد
صـــبروا ففـازوا بـالمراد وهكــذا يعنـو لـرهط الـصابرين مـراد[1]

هذا غيض من فيض، يظهر إلى حد ما بعض سمات الثورة السورية الكبرى وليس كل هذه السمات، ويكشف الستار عن بعض مزايا هذه الثورة وما أكثرها، كما يبين إلى حد بعيد أن اهتمام الأعلام موضوع البحث في هذا الكتاب بالثورة السورية الكبرى له ما يسوغه، ومن هنا كانت تجربتهم وأفكارهم المتعلقة بالثورة جديرة بالبحث والتأمل، وقد تلهم حملة الأقلام من الباحثين والكتاب لمتابعة العمل، وإلقاء الضوء على ما لم يكتشف بعد. يقول لوتسكي " عظيمة هي الأهمية العالمية لحرب 1925 – 1927 التحررية السورية، فقد أظهرت إلى جانب الثورة الصينية العظمى، والحرب الوطنية التحررية في المغرب أن الأزمة العامة للرأسمالية مستمرة وأن أية تطورات آنية مؤقتة لا يمكن أن تنقذ النظام الرأسمالي من انهياره الحتمي".[2]

---

[1] المصدر نفسه – ص - 349
[2] لوتسكي – الحرب الوطنية التحررية في سوريا – مصدر سابق - 338



شكيب أرسلان

شكيب أرسلان

من الجهاد في سبيل رفعة الإسلام إلى النضال في سبيل استقلال العرب ووحدتهم وتقدمهم

1946 – 1869

طلب الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي بدمشق، من الأمير شكيب أرسلان، أن يبعث إليه من لوزان في سويسرة مقالات إلى مجلة المجمع، فأجابه الأمير قائلاً: " أما ما أشرت إليه من الكتابة في مجلة المجمع فواجب، ولكن يا أخي أصبحت من هذه الكتابة في خطب وأي خطب، تشيرون بأن نجمع ما كتبناه، وهو أمر يحّك في صدري، فطبع ما خطه بناني غير مستطاع، لأنه مفقود منه الشيء الكثير، والمحفوظ منه أزيد، فإني في أوربا منذ اثنتي عشرة سنة، وفي الشهر الواحد كنت أحرر لا أقل من عشر مقالات، ففي السنة مئة مقالة، ففي الاثنتي عشرة سنة، ألف وأربعمائة وأربعون مقالة، فإذا جعلت كل مقالة ثلاث صفحات، فهذه فوق أربعة آلاف صفحة، أي ثمانية مجلدات، وقبل ذلك عشت أكثر من ثلاثين سنة، وأنا اكتب فلا يقل المحصول في هذه الثلاثين سنة، عن محصول ألاثنتي عشرة السنة الأخيرة، فهذه عشرة آلاف صفحة بالأقل، وهذا كله ذهب بالجرائد الطائرة، وهذا كله أنفقت فيه جوهر حياتي، وكفنتّه بأجرة السوق (البوسطة) من كيسي، وغاية مكافأتي عليه أنهم بعد موتي

سيقولون كان رحمه الله يكتب كثيراً، وينبغي أن تعلم بأنك لن تُعطى حقك إلا بعد فراق هذه الدنيا[1].

في ضوء تلك الإجابة يمكن القول: إن البحث في نشاط الأمير الفكري، والإحاطة الشاملة بإنتاجه الأدبي، والمعرفي، وعلاقة ذلك بدوره السياسي، أمر بعيد المنال، فمن الصعوبة الإلمام بكل ما خطه يراعه من مقالات، وأبحاث، ودراسات لم يتوقف قلمه عن كتابتها، حتى توقف قلبه عن الخفقان.

كما لا يمكن النظر إلى ما كتب، إلا في سياق الأحداث التي عاصرها، ولذلك كان لا بد من تسليط الضوء على علاقته بالعثمانيين، كي يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود في تلك العلاقة، وما اكتنفها من حقائق وأباطيل.

المرحلة الأولى: الميلاد، التعلم، النشأة الأدبية الفكرية السياسية:

ولد الأمير في الشويفات يوم الاثنين 25 كانون الأول عام 1869، وفتح عينيه على مناظر جميلة من طبيعة لبنان الساحرة، ووقع منذ طفولته في أحضان اليسر والسعادة والنعيم. وشكيب كما يُرجّح من الشكب وهو العطاء، وأرسلان من أسماء الأسد.

ملأت وقائع الزمن، وأحداثه حياة الأمير، وخاض غمار هذه الوقائع والأحداث منذ فجر الصبا، وليس أدل على ذلك من قوله: "لما حدثت الحادثة العُرابية سنة1882م بمصر، كنت ابنَ اثنتي عشرة سنة، فكنت أتتبعُ وقائعها، وأتحرّقُ عند ضرب الإنجليز للإسكندرية، ونزولهم وتقدمهم في القطر المصري"[2].

---

[1] الدكتور سامي الدهان- الأمير شكيب ارسلان – حياته وآثاره – دار المعارف مصر 1976 ص 93

[2] طاهر محمد صكر الحسناوي- شكيب أرسلان ودوره السياسي في حركة النهضة العربية- بيروت- دار الريس2002 ص62

إبان هذه الفترة كان شكيب طالباً في مدرسة الحكمة في بيروت، وتشاء المصادفةُ أن يزورَ الشيخُ محمد عبده المنفي إلى لبنانَ إثر ثورة عرابي "مدرسة الحكمة". ويُقدَّم إليه الطالب الفتى لنجابته ولنبوغه المبكر، ويتلقّى الطالبُ فيما بعد دروسَ الشيخ في مدرسة السلطانية، وتتمتن عُرى الصداقة بين محمد عبده والأمير حمود أرسلان والد الأمير شكيب. يقول شكيب: "كنا نزوره في منزله ببيروت، وكان يزورنا في بيتنا بالجبل، وكان المرحوم والدي يّجل الأستاذ الشيخ كثيراً، وكان الشيخ يّجل والدي كثيراً أيضاً، ويقول إنه من أعقل من عرف في حياته[1].

كان الشيخ محمد عبده آنذاك يدعو إلى ثورة حقيقية إسلامية، ترتقي إلى مستوى الإسلام في صورته الأولى، ويُواجه من خلالها التخلف الديني والسياسي. ولاقَت هذه الأفكارُ هوىً في نفس شكيب أرسلان، الذي عكف على قراءة التراث العربي والثقافة الإسلامية مع تفتح وعيه، ونهلَ من معين ذلك التراث وتلك الثقافة بشغف، ولذلك تأثر إلى حدٍ بعيد، بما سمعه من دروس الإمام محمد عبده. وعبر عن ذلك بقوله: "رأيتُ في فهمه العقيدةَ الإسلامية الشكل الوحيدَ الذي يُرجى أن ينهضَ بالإسلام بعد أن آل إلى هذه الحال"[2].

بلغ الأمير شكيب عام 1890م، الحادية والعشرين من العمر، وأصبح مدير ناحية الشوف خلفاً لوالده، غير أنه سرعان ما تخلى عن هذا المنصب وارتحل إلى مصر، للقاء محمد عبده بعد رجوعه إلى وطنه، "يقول الأمير: "سنة 1890، كانت أول قدمة لي إلى مصر، وكنت بين العشرين والواحد والعشرين من العمر، فمكثت سبعة أشهر في الإسكندرية، ثم جئت إلى مصر وكان أكثر اجتماعنا ذلك الوقت بأستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده وبرهطه المعهودين "[3].

---

[1] شكيب أرسلان، روض الشقيق- دمشق1925 ص 72

[2] شكيب أرسلان- سيرة ذاتية- بيروت دار الطليعة1969 ص115.

[3] المرجع نفسه ص69

سعى الأمير إلى العمل والكتابة في الصحافة المصرية، وحاور كبار المثقفين المصريين، غير أنه سافر بعد بضعة شهور إلى الآستانة، وزيّن له البقاء والعمل هناك، فعارض الصدر الأعظم حصوله على وظيفة لائقة، فانتقل إلى فرنسا، ثم إلى جنيف ثم إلى لندن، والتقى جمال الدين الأفغاني أثناء رجوعه من تلك الجولة في الآستانة، وظهر جلياً التوافقُ في الرأي بينهما، وبلغ من شدة إعجاب الأفغاني بالأمير أنه هتف قائلاً له "إني أهنئ أرض الإسلام التي أنبتتك "[1].

ولم يكن الأفغاني ليقول ما قاله في شكيب أرسلان، لولا أنه تمثل ما في تراثنا من قيم إنسانية وحضارية. وفي حقيقة الأمر قرأ شكيب مبكراً رسائل أبي بكر الخوارزمي، وتاريخ ابن خلدون، وابن رشد، ورسائل أبي إسحق الصابي، وأمهاتِ الكتب التراثية ودواوين الشعراء القدماء. وكتب الشعر وهو طالب مدرسة، وأصدر ديوانه " الباكورة " عام 1887، وهو في السابعة عشرة، وحذا في هذا الشعر حذو الأقدمين وفحول الشعر العربي. وكما يقول معاصروه " لو قصر همه على الإبداع الأدبي، لكان مكانه بين شعراء حركة الإحياء، الذين تمتنت بينه وبينهم عرى الصداقة، مثل محمود سامي البارودي وأحمد شوقي". ورغم مشاغله الكثيرة فقد استطاع تحقيق الدرة اليتيمة لابن المقفع عام 1893، ورواية آخر بني سراج عام 1897، وحقق أيضاً المختار من رسائل أبي إسحاق، ثم دفع به قطار الحياة العامة إلى الكتابة في الشأن السياسي، ولم يعد إلى التأليف، إلا بعد عشرين عاماً ونيف فكتب تعليقه على كتاب لوثرب ستودارد " حاضر العالم الإسلامي " فبلغ التعليق ثلثي الكتاب بمجلداته الأربعة وذلك عام 1925، ثم كتب تعليقه الثاني على تاريخ ابن خلدون عام 1936، وفي عام 1939 ألف الأمير " الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية. وكتب أيضاً كتابين عن صداقته مع الشاعر أحمد شوقي، والمفكر رشيد رضا.

---

[1] لوثرب ستودارد - حاضر العالم الإسلامي- تعليق شكيب أرسلان- بيروت دار الفكر 1974 ص298

شكيب والمرحلة التاريخية

ترعرع شكيب في مرحلة شهدت تحولات نوعية في حياة الشرق عامة، فقد ازداد النفوذ السياسي والاقتصادي للدول الرأسمالية فيه، بعد أن دخلت الإمبراطورية العثمانية أزمة حادة شملت دولتها واقتصادها وجيشها، وجوانب حياتها كافة، وكان من شأن الطبيعة الاغتصابية للاستحواذ على ثروات الناس في هذه الدولة، ومثالب ولاتها المستبدين أن تسّهل للغرب تحقيق أهدافه. وخلق ذلك التربة الملائمة لميلاد الحركات التحررية المتتالية المعارضة للعثمانيين وللغربيين على حد سواء، وعمّت الروح العدائية كل الفئات، وانتعشت ذكريات مجد العرب التليد.

كانت المرحلة مرحلة النهوض القومي والإسلامي المستنير في البلاد العربية والإسلامية، وقاد تلك المرحلة، أو كان من أبرز دعاتها نُخب جمعت بين المثقفين الممثلين للبرجوازية الوطنية الوليدة، والمستنيرين من أبناء الأرستقراطية التقليدية "الإقطاعية والعشائرية" وقد دعت هذه النخب إلى التغلب على التخلف، ومحاربة الجهل، والدفاع عن حرية العرب، والمسلمين، وكان شكيب أرسلان واحداً من هذه النخب، فقد عاصر كبار المثقفين الإسلاميين، وروّاد النهضة العربية، في المشرق العربي ومغربه، فلم تنقطع صلتهُ بالأفغاني. والإمام محمد عبده، والشيخ علي يوسف، وأحمد فارس الشدياق، وطاهر الجزائري، وتتلمذ على يد الأديب عبد الله البستاني، كما أنه نشأ في بيت أرستقراطي عريق يفاخر بأصالته وجذوره العربية ومحتده الكريم، ويُعلي من شأن الثقافة، فكان والده حمود يُنادم المفكرين والأدباء، وكان كلّ من أخويه نسيب وعادل شاعرين، ولعل ذلك جعله شديد الاعتزاز بانتمائه إلى ما يعده محتداً نبيلاً، وقد لا نجافي الحقيقة حين نؤكد أن النزعة الارستقراطية قد رافقته طوال حياته، وظلت ملامحها ظاهرة في شخصيته. ومأثرته أنه استطاع تخطي انتمائه الضيق، واستيعاب الحركة التاريخية، حركة النضال التحرري والإسهام بدور قيادي بارز في الحركة النهضوية العربية – الإسلامية.

حرص الأمير شكيب على أن يؤكد انتماءه العربي الإسلامي حرصاً شديداً، إذ إن انتماءه إلى المسلمين الموحدين، قد وضعه أمام كثير من المصاعب والاتهامات التي عانى منها طوال حياته، من لدن العناصر المناوئة له سياسياً، والذين كانوا يرددون ادّعاءات المستشرقين بفصل الموحدين عن المسلمين. وقد ردّ شكيب على المؤرخ فيليب حتي رداً منهجياً، مستنداً إلى المراجع التاريخية مقدماً الحجج والبراهين على أن الأرسلانيين ينتمون إلى أكبر وأعرق بيت من بيوت العرب، الذي تجري فيه دماء العروبة، على مدى أربعة عشرة قرناً، فهم يعودون إلى أرسلان بن مالك، الذي استوطن جبل لبنان بناءً على أمر الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، وينحدر الأرسلانيون – كما يقول الأمير – من سُلالة الملك النعمان بن المنذر بن ماء السماء، ولم يتردد شكيب أرسلان في الافتخار بنسبه العربي الإسلامي.

وهكذا كان الإسلام بالنسبة للأمير رؤية، وثقافة، وعقيدة، وفلسفة حياة وأصول حكم، وهو يرى أن الفتح الإسلامي لم يسبق له مثيل، ويعيد إلى الأذهان ما قاله نابليون " إن العرب فتحوا نصف العالم في نصف قرن" وفي تعليل ذلك يذكر الأمير بأن أحد المفكرين الفرنسيين قال: " **اتسمت هذه الفتوحات** المدهشة أيام الخلفاء الذين كانوا عرباً، وبقوا عرباً في الصحراء بدون ترف، ولا زخرف، ولا قصور ملكية، بل كانوا أشداء على أنفسهم كما على الآخرين"[1].

غير أن الإسلام الذي عايشه الأمير لم يكن إسلام الخلفاء الراشدين، وصدر الإسلام. كانت الخلافة قد انتقلت إلى العثمانيين الذين خبا وهج الخلافة في عهد سلاطينهم العتاة. ولم يجد الأمير بداً من الذب عن صورة الإسلام التي ملأت وجدانه، وعقله. ولم يكن ذلك بالأمر الهّين. فتبّنى فكرة الجامعة الإسلامية، ورأى فيها أداة وحدة المسلمين في مقاومة أطماع الغرب، ورابطة

---

[1] شكيب أرسلان المصدر السابق ص 299

وجدانية وثقافية عميقة الجذور، تجمع القلوب، وتعبر عن الذات، وعن الهوية الواحدة للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. واعتبر منصب الخلافة رمز الأمة، وعنوان سيادتها، وشكلت النظرة للخلافة في هذه المرحلة جوهر فكره السياسي، وحين أُخذ عليه مدح السلطان عبد الحميد بشعره، أكد – كما كتب في سيرته الذاتية ـ أنه يمدحه لا لشخصه، بل بوصفه خليفة المسلمين. وقد جمع الأمير بهذه الصورة بين الولاء لدولة الخلافة من جهة، وبين مجابهة مظالم العثمانيين، والتصدي لفساد المتصرفين ومثالبهم من جهة أخرى.

الصراع على لبنان

تولى الأمير منصب قائم مقامية الشوف عام 1902، وسرعان ما أُقيل جراء نهجه السياسي والإداري المستقل. وعرف لبنان أبان تلك المرحلة ضروباً من التنازع الاستعماري، والتدخلات الفظة في شؤونه، من قبل سائر البلدان الغربية " فرنسا، وإنجلترا، والنمسا، وروسيا، وبروسيا" وقد سعت كل واحدة من هذه الدول إلى وضع قدمها فوق الأرض اللبنانية، فنشطت الجاليات الأوربية من كل شاكلة ولون، وتنوعت المدارس التبشيرية، وتعددت الإرساليات والجمعيات التي حاولت أن تظهر الاهتمام بنشر العلم، والترويج للنموذج الأوربي. وقد جرّ التنازع الاستعماري حول لبنان، والتدخلات الفظة في شؤون هذا البلد الصغير الكثير من المحن والمصائب والويلات. وكانت مرامي هذه السياسة مكشوفة أمام ناظري الأمير، لكنه مع إدراكه لذلك لم يكّف عن خوض غمار الصراع المرير مع ولاة بني عثمان، و بلغ به الأمر أن ألف كتاباً بعنوان " مظفر باشا في لبنان " عام 1907، وطبع في بيروت، وترجم إلى الفرنسية، ووُزِّعَ في الأستانة، وكانت غاية المؤلف ومن ساعده من العلماء تصوير مساوئ ذاك المتصرف، كالرشوة، والاحتيال، والتزوير، وخرق القوانين.

أصبح الأمير قائمقام الشوف للمرة الثانية سنة 1908 ، وقد قارب الأربعين من عمره ، " فامتلك الإمارة والقلم ، كآبائه ، وأجداده من الأمراء ، وراح يدير الأعمال في حزم ، كما أدارها أبوه من قبل ، على إباء وشمم ، فكان صورة لعشيرته ، فما أطاع أوامر الولاة العثمانيين ، في حال يُظلم بها قومه ، ولم يُحاب عقيدة دون عقيدة ، فاختلف بذلك مع الساسة العثمانيين ،[1] فتصدى الأمير للمتصرف يوسف فرنكو باشا ، وحاول مع أنصاره من مختلف الطوائف إرغامه على تطبيق الدستور ، الذي أعقب إصلاحات 1908 ، والعمل على إجراء الانتخابات في لبنان بموجب هذا الدستور ، وإلغاء الضرائب الجديدة ، وتطهير الإدارة الفاسدة. وحين رفض المتصرف الاستجابة لذلك ، تظاهر أنصار الأمير ، واحتشدوا حول قصر المتصرف ، ولما ضاق الحصارُ عليه ، دخل دارة الحرم في القصر ، واستدعى الأمير شكيب ملتمساً منه تسكين الهياج ، فاشترط عليه الأمير الانصياع للمطالب ، فوافق على أن يتعهد الأمير بحمايته عند خروجه إلى المحتشدين. خرج المتصرف وأعلن أنه سينفذ المطالب وينّحي رجال الإدارة الفاسدة ، ويستبدلهم بغيرهم. وقد عهد إلى المعروفين بنزاهتهم بمناصب في إدارة الدولة ، وأسندَ إلى الأمير شكيب قائم مقامية الشوف من جديد ، ولم يوافق الأمير على ذلك إلاّ تلبيةً لإرادة أنصاره. وظل في ذلك المنصب حتى استقال عام1910 ، بعد أن شبّ صراع بينه وبين سامي باشا القاروفي ، قائد الجيش العثماني لأنه أعدم عدداً من أبناء جبل العرب ، الذين ثاروا على مظالم الأتراك. وقد سعى سامي باشا الفاروقي لدى الصدر الأعظم للنيل من الأمير شكيب.

[1] سامي الدهان مرجع سابق ص 73

الأمير والغزو الإيطالي لطرابلس الغرب:

شنّت إيطاليا عام 1911 غاراتها على طرابلس الغرب، فأخذ الأمير يكاتب أصحابه بمصر ويدعو إلى دعم المقاومة، قال في إحدى رسائله إلى رشيد رضا "نحن في خطبٍ مستعجل الرأب، ولا يُفيدنا تعنيفُ مفرطٍ، ولا لومُ مقصّر، وقد ظهر لنا بعد تقليب وجوه الحيل، وتمحيص آراء الإغاثة بأجمعها، أنه لم يبقَ إلا طريقُ البر، فإن لم تساعد السياسةُ على إمرار جنودٍ منظمةٍ، فلا أقلّ من متطوعةٍ، وإن لم يكن نهوضُ متطوعةٍ، فلا أقلّ من تسريب ذخائرٍ وأرزاقٍ على ظهور الجمال، فإنّ في طرابلسٍ وبنغازي، والصحراء رجالاً يشاغلون إيطاليا سنين طوالاً، أفلا ينهضُ الإسلامُ في كلّ هذه الممالك إلى إغاثتهم، بما يمسك أرماقهم على الأقلّ، حتى تطولَ الحرب، ويستمر الدفاع، فإنّ طول أجلِ الحرب يستدعي تدخّل الدولِ، ويفتُّ عضد تجارة إيطاليا، ويثيرُ عليها سكانها"[1].

تظهر هذه الرسالة منطقة السياسي، وتعبر عن مدى تأثره، واستيائه من الغزو الاستعماري لبلد إسلامي، كما تعبّر عن انشغاله في طرق مقاومة هذا الغزو. وقد بلغَ موقفَ الأميرِ حدّهُ الأقصى من ذاك الغزو في تشكيله قوةً من المتطوعة والمجاهدين، اجتمعت من نواحٍ مختلفة في جبل العرب، ولبنان، انطلق بها من بلدة صوفر، قاصداً بنغازي بطريق فلسطين فمصر. وقد هلك قسم من القوة في الصحراء وبين وادي الأردن وبئر السبع عطشاً ومرضاً، وحال الإنكليز دون بلوغ الآخرين مآربهم. وعلى الرغم من ذلك تمّكن شكيب وعصبة من رجاله من دخول الأراضي الليبية، تحت مظلة الصليب الأحمر. ولبث في تلك البقعة يحثّ الهمم، ويضمد الجرحى؛ لإنقاذ هذا القطر من براثن الحرب الاستعمارية، فوقف في خطوط القتال ونصّب نفسه درعاً في حماية الإسلام[2].

---

[1] محمد شفيق شيا- شكيب أرسلان مقدمات الفكر السياسي ـ معهد الإنماء العربي ـ بيروت1983 ص60

[2] المصدر نفسه ص73

أسهم شكيب في المعركة ضد الطليان إلى جانب أنور باشا، ومصطفى كمال، ونوري عزيز المصري، وغيرهم من العسكريين في الجيش العثماني على مدى ثمانية أشهر سنة 1912. وتعرّض إلى الانتقاد، لأنه قاتل إلى جانب القادة العثمانيين، وكان بين هؤلاء المنتقدين، " جوفنيل " الذي أصبح فيما بعد المفوض السامي الفرنسي على سورية " فردّ شكيب على جوفنيل في صحيفة الأومانتيه الفرنسية رداً ضمّنه قوة منطقه وبلاغته المعهودة، "معتزاً بأن يكون على رأس المتطوعين، لمقاومة من اقتسم البلاد العربية سراً، ومؤكداً أن قتاله مع بعض القادة العثمانيين لا يعني أنه من أخصائهم"[1].

إن موقف شكيب من غزو إيطاليا طرابلس الغرب، لا يتمثل في مشاركته الفعلية في قتال الغزاة فحسب، إنما في تأسيسه النظري للفكر العربي المقاوم، وفي تفنيده لأيديولوجيةِ الغربِ الاستعماري، التي تذرعت بها في سياق مشاريع اقتسام العالم ونهب الشعوب. فهو يرد على مزاعم الإيطاليين بأنهم أرادوا، فيما أقدموا عليه في طرابلس تمدين البدو الرحّل. فيقول الأمير " أُتيحَ لنا أن نجوبَ الجبلَ الأخضر والأراضي التي تمتدُّ من عقبةِ السّلوم إلى بنغازي، وتعرّفنا إلى كثير من القبائل، وجميعها أصحاب زراعاتٍ وجنانٍ وبساتين، فهل كان من الضروري لأجل تحضيرهم إخراجهم من أراضيهم المريعة البديعة، وإسكانهم في فلاة قاحلة ليموتوا "[2].

ورأى شكيب أن سقوط ليبيا سيقود لا محالة، إلى انفراط عقد البلاد العربية الإسلامية، وقال: " إن لم نقْدر على حفظ صحارى طرابلس لم نقدرْ على حفظ جنان الشام"[3].

---

[1] عن جريدة الشورى – ع 23 – 1926

[2] المصدر نفسه ص62

[3] المصدر نفسه ص6

شكيب ومؤتمر باريس:

عُقد المؤتمر العربي الأول في حزيران عام1913، في العاصمة الفرنسية، وحضره عددٌ من العراقيين والسوريين والمصريين، لبحث العلاقة بين العرب والأتراك، برئاسة عبد الحميد الزهراوي، وقد أثار المؤتمر استنكاراً كبيراً في الدولة العثمانية، على الرغم من أن رئيس المؤتمر، أعلن أن الهدف من المؤتمر ترميم العلاقات التركية العربية لا تقرير الاتجاه الانفصالي العربي عن الدولة العثمانية، فالعرب آنذاك كانوا لا يطالبون بأكثر من حكومة عثمانية دستوريةٍ، ليست تركيةً ولا عربيةً. وليس أدل على ذلك من قول شاعرهم أحمد محرم:

يا آلَ عثمانَ من تركٍ ومن عرب ... وأيُّ شعبٍ يساوي الترك والعربا

وبعد عودة الوفد من باريس عُقِدت جلسةٌ بين أعضاء المؤتمر، ووفدٍ ممن اعترضوا على عقده، وكان شكيب واحداً من هؤلاء، وقد ألقى الأمير في تلك الجلسة كلمةً، قال فيها معبّراً عن موقفه بوضوح " إن الذين ذهبوا إلى باريس هم إخواننا، وليس بيننا وبينهم شخصياً أدنى سببٍ يوجبُ الجفاء، ولكننا خالفناهم في ذهابهم إلى باريس وعقدهم مؤتمراً كهذا، ونقمنا عليهم اشتراكَهم في هذا العمل، مع أناسٍ لم يكونوا ليريدوا فعلاً استقلال سورية"[1].

كانت معارضة الأمير، تنصبُّ على طبيعة الحالة الظرفية للمؤتمر، زماناً ومكاناً فهو يرى، أن فرنسا بأطماعها الاستعمارية، ليست المكان المفضل لعقده، كما تزامن وقت المؤتمر مع وصول البلغار إلى مشارف عاصمة الدولة العثمانية، وقد عارضِ الشريف حسين المؤتمر بشدةٍ آنذاك، ولم تتوقف معارضته على الأمير شكيب وحده.

---

[1] طاهر الحسناوي ـ مصدر سبق ذكره ص59.

ومن الجدير بالذكر أن الفريقين العربيين حضرا بعد الاجتماع، مع بعض قادة الاتحاديين مسرحية ـ صلاح الدين الأيوبي ـ في المنتدى العربي في الآستانة، وألقى الأمير شكيب قصيدةً في الافتتاح قال فيها:

فيا وطني لا تتركِ الحزمَ لحظةً   بعصرٍ أُحيطت بالزحامِ مناهله
وكن يقظاً لا تستنم لمكيدةٍ   ولا لكلامٍ يُشبه الحق باطله[1]

تعدُّ هذه الواقعة مهمةً، لأنها تجلو الحقيقة المتعلقة بموقف الأمير شكيب، الذي كان يلفعه الغموض من أعضاء مؤتمر باريس، خاصة بعد أن أقدم جمال باشا على شنق بعضهم.

ولما اندلعت الحرب العالمية الأولى سنة 1914، كان أرسلان إبان الحرب العالمية يرجو سحق الحلفاء، ونصرة الدولة العثمانية، ليطالب العرب بعدها باللامركزية وبالاستقلال، وكان يصيح مجاهراً أنه " لن يشهر السيف على الدولة المسلمة، لينصر الدولة الأوربية مهما كلّف الأمر. فالاستعمار يتخذ العرب جسراً، لتقويض هذه الدولة الشرقية، ليلتهم أجزاءها العربية معتبراً بطرابلس الغرب، ومن قبلها الجزائر وتونس"[2]، غير أن سياسة الأتراك الجائرة كانت تقذف العرب إلى أحضان الحلفاء، يرجون منهم المساندة، كالمستجير من الرمضاء بالنار.

شكيب وجمال باشا:

كانت العلاقة التي قامت بين الأمير شكيب، وجمال باشا، من أكثر العلاقات التي جرّت المتاعب على الأمير، ووضعته موضع الشبهة، بل جرّعته

---

[1] ديوان الأمير شكيب أرسلان – مصر المنار – 1935 – ص 75
[2] المصدر نفسه ص74

العلقم، لأنها انطوت على اتهاماتٍ قاسيةٍ، انتشرت ألسنةُ نيرانها انتشاراً واسعاً، ولم يكن بمقدور الأمير أن يطفئ لهيبها.

أُرسل جمال باشا إلى سورية، ليتولى قيادةَ الفيلق الرابع، بعد دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية في تشرين الثاني عام 1914، إلى جانب ألمانيا، فأعلن الأمير شكيب في مجلس المبعوثان عن تطوعه بوصفه عضواً في ذاك المجلس، في صفوف المدافعين عن الدولة الإسلامية. وعاد إلى وطنه وشارك على رأس مجموعةٍ من المتطوعين، في الحملة التي شنَّها الجيش العثماني، بقيادة جمال باشا على قوات الحلفاء في قناة السويس، وتحدد واجبه في حماية "قلعة النخل" في صحراء سيناء. وقد مُنيت تلك الحملة بالإخفاق، وترك ذلك أثره الكبير في قائدها، جمال باشا بصورة خاصة، بعد انتصار رفاقه الاتحاديين في معارك الدردنيل.

وقد حاول جمال أن يُعيدَ أسباب الهزيمة إلى عوامل داخلية، فراح يضخّم من تفاقم الأوضاع في بلاد الشام، وحرص على أن يصوّر نفسه لدى الجهات العليا، على أنه يخوض معمعة حرب داخلية غير معلنة على الدولة. واندفع تحت هذا الشعار إلى ممارسة العنف والإرهاب، واتخذ تدابير من شأنها تقليص الامتيازات، التي يتمتع بها جبل لبنان، وأحال بعض الشخصيات العربية المعروفة بإخلاصها الوطني، إلى المجلس العرفي في عاليه، وأوعز إلى رئيس المجلس أن يعدمَ الجميع، فرفض الرئيس الأمر، فاستبدله بآخر أكثر طواعية فنفذ تلك الجريمة.

أُعدمت الدفعة الأولى من أحرار العرب في 21 آب 1915. وتعمد جمال باشا أن يدعو الأمير شكيب إلى مائدة طعام في اليوم ذاته، ولا يصعب تفسير سلوك جمال باشا، وعما انطوت عليه تلك الدعوة إذ أرادها شركاً لتكبيل الأمير، وهزّ مكانته. فاجأ جمال الأمير بنبأ إعدام أحَد عشَر وطنياً، ليقرأ الاستياء على وجهه، دون أن يكون له حول أو طول، غير أن الأمير كان جريئاً

بحيث لم يخفِ سخطه واستنكاره الأمر، خاصةً وأن من بين الشهداء، صالح حيدر الذي كان هارباً ويمنجي من يد جمال باشا، فطلب ذووه من شكيب التوسط لدى جمال، وإقناعه بأن صالحاً بريء مما نسب إليه، فطلب شكيب أن يسلم صالح نفسه، بناء على وعد جمال باشا بسلامته، وكان من المتعذر على أقارب صالح ألا يسيؤوا الظن بالأمير، أو أن يقتنعوا بأنه غير مسؤول عمّا قام به جمال باشا.

بعد أقل من عام، وفي السادس من أيار 1916، أقدم جمال باشا على تنفيذ حكم آخر بالإعدام شمل واحداً وعشرين معتقلاً، وقد سعى شكيب جاهداً للحيلولة دون تلك الجريمة، ولم يدّخر وسعاً في تحذير جمال مما سيقدم عليه، وحمله جريرةَ مثل هذا الأمر الذي سيكون سبباً كما يظنّ في انفصال العرب عن الدولة العثمانية، ولم يكتف بذلك بل توجه إلى أنور باشا طالباً منه التدخل، واستبدال حكم الإعدام بأحكام عادلة تحمي حياتهم، كما قابل القنصل الألماني في بيروت، وأبلغه أن الإقدام على إعدام الوطنيين لن يلحق الضرر بالدولة العثمانية فحسب وإنما بألمانيا، وسيؤدي إلى انضمام العرب للحلفاء..

غير أن جهود الأمير كلها ذهبت أدراج الرياح، ولم تثن الطاغية جمال باشا عن ارتكاب جريمته الثانية بشنق كوكبةٍ من الأحرار والوطنيين المخلصين البررة.

وعلى الرغم من جهود الأمير المضنية والمخلصة، لإنقاذ حياة شهداء السادس من أيار فقد ترددت شائعاتٌ ومزاعمٌ، تتهم الأمير بأنه كان وراء إعدام البعض منهم، مثل الأخوين فيليب وفريد الخازن، لخلافاتهما السياسية مع الأمير. ومثل الشهيد سعيد عقل الذي قال بينما كان عنقه تحت حبل المشنقة: "أخبروا أهلي أن شكيباً وأخاه شنقاني"[1]، والمقصود بأخيه الأمير عادل أرسلان، الذي كان آنذاك قائمقام الشوف.

---

[1] محمد علي الطاهر ـ ذكرى الأمير شكيب أرسلان ـ القاهرة ـ مطبعة البابلي ـ 1947 ـ ص164

غير أن الأمير شكيب كان يتألم من تلك التهم. مؤكداً أن ما قال سعيد ليس إلا نتيجةَ الإشاعات، التي ملأت الأسماع، وأنه لم يحزن أحدٌ على سعيد أكثر منه.

لقد تبيّن أن جمال باشا أقدم على تفتيش القنصليةِ الفرنسية في بيروت، ووجد عريضةً موقعة من أربعين شخصاً، تطالبُ مساعدةَ فرنسا، ووضع لبنان تحت حمايتها، وكان الأخوان فيليب وفريد الخازن، من بين الموقعين في تلك العريضة، فاستدعاهما جمال من منفاهما في الأناضول وأعدمهما، ولم يكن لشكيب أيةُ يد في ذلك الإعدام.

كان الناس يظنون أن علاقة شكيب أرسلان بجمال باشا، تخوّله أن يفكّ المشنوق بكلمة واحدة، غير أن حدود تلك العلاقة، تبدو من خلال ما كتبه الأمير إلى الشيخ " بان الخازن " والد الأخوين فيليب وفريد: " أقسم لك أنه لما حضرَ أقاربكم إليّ في عاليه، وكلموني في مسألة المرحومين فيليب وفريد، كنت عاجزاً عن عمل أي شيء لاختلافي وقتئذ مع جمال باشا، ومنعه إياي من كلّ تدخلٍ معه، ودللتهم على أبواب يطرقونها، لكن أملي كان ضعيفاً. وقد أعدم قبلهما أفراد كانوا من أعز إخواني، وبعضهم كأولادي مثل صالح حيدر، فكم تحرقتُ على عمل شيء لهم، وكم تمنيت ألا تبقى أسرة بدون يد بيضاء لي عندها. ولكني عجزت عن ردع جمال عن التمادي في طغيانه"[1].

رفضَ جمال وساطةَ شكيب في أمور كثيرة، وتبين له أن جمالاً لا يقيم وزناً لأي شخص. وقد لاحظ جمال أن الأمير لا يكف عن التحريض ولا يتردد في سياسته القائمةَ على الظلم، فحذّره قائلاً: " يجب أن يكون وجدانك مستريحاً بأنك عملت ما عليك. وأرجو منك أن تمسك عن التمادي في هذه المسائل التي لا تخصك من مسؤوليتها شيء"[2].

---

[1] مجلة المنار م33 ج272 شباط ص203

[2] مجلة الحارس س1 ج 9 تشرين الثاني 1923 ص 22 – 23

لم يأبه الأمير بما قاله جمال، واستمر في التصدي لسياسة النفي والإبعاد، وسعى بكل تفان لحل مشكلة الآف المبعدين إلى الأناضول. وبعد أن أدرك صعوبة استصدار أمر فوري لتحقيق ذلك، لجأ إلى سبل الإقناع، فقدم مذكرة إلى حكومة الآستانة موضحاً أن إعادة هؤلاء إلى سورية، ولبنان، تساعد على إحلال التعاون لا التنافر بين أبناء الدولة، وتعهد بتقديم الكفالات اللازمة، وبهدف إقناع الدولة بذلك، راح يبرهن على أن إعادتهم إلى ذويهم، توفر على الدولة المبالغ الباهظة، التي تنفقها عليهم، وعلى الرغم من ذلك كله، كان ثمة تعتيم مقصود لحجب جهود الأمير المخلصة لرد المظالم، وإنصاف المظلومين. يقول أمين الغريب صاحب مجلة الحارس اللبنانية " إنه كان يحسب أن الأمير تسبب بنفيه، من قبل جمال إلى الأناضول، حتى تبين له بطلان هذا الوهم، وانكشفت أمامه الحقيقة، ولو كان في جملة الذين شنقوا لذهب معه هذا الوهم إلى القبر"[1].

ولعل من سوء حظ الأمير، أن الجراد غزا لبنان عام 1915، فانتشرت المجاعة، واستمرت في السنتين التاليتين، لتتزامن مع بطش جمال، وأصبح الموت جوعاً من المظاهر المألوفة في شوارع لبنان. فاتهمت الدول الاستعمارية الأمير بأنه سبب تلك المجاعة، متعامية عمداً عن الأسباب الطبيعية والسياسية لها، وكتبت إحدى الصحف الصادرة في نيويورك قائلة: " إن الأمير شكيب تسبب في هلاك مئة وخمسين ألفاً من سكان لبنان"[2].

لم يسكت الأمير على هذا الاتهام الظالم، موضحاً أن مصالح الفئة التجارية المحتكرة، والمرتبطة بالدول الغربية هي التي أسهمت مع الجراد في المجاعة، وبرهن على ذلك مشيراً إلى أن الحلفاء، احتجزوا باخرتين محملتين

---

[1] يوسف الحكيم – بيروت ولبنان في عهد آل عثمان – بيروت – المطبعة الكاثوليكية 1964 ص 158

[2] د. مسعود ضاهر – تاريخ لبنان الاجتماعي – بيروت – دار الفارابي ـ 1982 ـ ص 90

بالمؤونة، أرسلها المهاجرون العرب من الولايات المتحدة إلى أبناء شعبهم. وقد بذل الأمير جهوداً مضنية للإفراج عنها، ولتسهيل دخول مساعدات المهاجرين إلى لبنان، والتقى السفير الأمريكي في الآستانه لهذا الهدف، فتهرب بحجة أن دولته دخلت الحرب، فتوجه إلى البابا عبر رجال الدين اللبنانيين ولكن دون جدوى.

وجد الأمير نفسه عرضة لمكائد الغربيين من جهة، ومرمى سهام من حمّلوه جرائم جمال السفاح من جهة أخرى، مع أن خلافه مع جمال أصبح بادياً للعيان، يقول جمال: " إنني حاولت أن أطّوق رقبة شكيب بحبال المشنقة، فلم أجد منها ما يحيط بعنقه."[1] ملمحاً إلى خطورة إقدامه على هذا الأمر، غير أن شكيب لم يطمئن إلى مثل هذه التصريحات. فتوجه إلى الآستانة، لحضور جلسات مجلس المبعوثان، دون إذن جمال، وقد وطن العزم على بذل أقصى الجهود، لإبعاد جمال عن سورية، فالتقى السلطان وحيد الدين، وولي العهد عبد المجيد، وأوضح بجلاء وقوة بيان مظالم جمال، فوعداه بالاستجابة لما يريد بعد أن تضع الحرب أوزارها. لكن الأمير لم يكتف بالوعود، ولم يعدم الحيلة في متابعة كفاحه للخلاص من جمال. فانتهز فرصة سفره إلى ألمانيا وقد دعته الحكومة الألمانية آنذاك لزيارة عواصمها الشهيرة هامبورغ، وفرانكفورت، وكولونيا، وميونخ، فلبى الدعوة، " وحاضر في تلك البلاد، بحضور أعيانها من وزراء وساسة، شارحا سوء الأحوال في سورية ولبنان، وحمل جمال مسؤوليتها، داعياً إلى إقصائه عن سورية، ووفق شكيب في إقناع الألمان، وساسة الأتراك بصحة رأيه، فعاد جمال إلى الآستانة مقهوراً، وخدم شكيب بذلك قومه، وأنقذ البقية الباقية من الزعماء السوريين من حبل المشنقة، وأسهم في إعادة منفيي سورية إلى وطنهم"[2].

---

[1] سامي الدهان– مصدر سابق ص 68

[2] المصدر نفسه ص 79

يقول عز الدين التنوخي: " لقد كان الأمير شكيب من أشرف من كان حول جمال باشا من رجالات العرب، دفع الله به كثيراً من الشر والأذى "[1].

هذا غيض من فيض يختزل تاريخ علاقة شائكة، واضطرارية بين شخصين من طبيعتين مختلفتين روحاً، ومتباعدتين فكراً بعد السماء عن الأرض، بين حاكم جائر، وبين مفكر متفان في الدفاع عن الحرية والعدالة، وقد قُيّض لهما أن يتعاونا ويختلفا، تعاونا على قاعدة الانتماء للحضارة الإسلامية، واختلفا حول قيم العدالة ودفع الاستبداد عن الناس. غير أن ما قيل عن تلك العلاقة حفل بكثير من التهم الموجهة لرجل الفكر. وقد نُسجت تلك التهم في مجتمع تنخره الأميةُ والجهلُ والصراعاتُ العشائريةُ والطبقيةُ والقومية، ولم تقدم الوقائع التاريخية حتى اليوم دليلاً واحداً على صحة تلك التهم. بل قُدمت الوثائق والوقائع العديدة التي تبرئ ساحة الأمير شكيب أرسلان، وتدل على نقاوة سريرته، وعلى تفانيه في سبيل حق الناس في الحياة والكرامة، كما تدل على عميق ألمه مما لحق بهم من أذى فهو يقول: " نعم بعد كل ما عملته، مما لم يعمله أحدٌ غيري لمنع قتل أي كان، ونفي أي كان، أكون اليوم مضطراً، إلى أن أبرهن على كوني لم أغرِ أحداً بقتل أحد، آسف والله ألف أسف "[2].

الأمير شكيب والشريف حسين:

كان المشرق العربي عشية الحرب العالمية الأولى، يتردى في مهاوي الضعف، بحيث تحول إلى مشروعٍ قيد المعالجة، في ملف وزارات الخارجية للدول الأوربية، ووجدت تلك الدول أكثرَ من ذريعةٍ وسبب، يُغطي تسللها لمنطقة تتنازعها انقساماتٌ بين خياراتٍ دينية – إصلاحية، وبدائل قومية، دون أن

---

[1] المصدر السابق ص 80

[2] محمد علي الطاهر – مصدر سبق ذكره ص495

تتمكن من حسم أمرها، ولم تستطع دولةُ الخلافة المتصدعة، أن تحول دون الهجمة الأوربية. وشبحُ الحرب العالمية يحوم فوق أراضيها.

في ذلك المناخ القاتم صعدت حركة الشريف حسين في مكة، وامتدت نحو الشام بمباركة الإنكليز، الذين أغدقوا على العرب الوعود بالاستقلال التام الناجز، شرط الانقلاب على الدولة العثمانية. وقد انقسم العربُ في ضوء ذلك إلى فريقين: الأول وافق على الانضمام للغرب بأمل الحصول على الاستقلال بزعامة الشريف حسين، ومساندة بعض العناصر القومية في سورية. أمّا الفريق الآخر، وكان الأمير شكيب من أبرز مناصريه، فكانت نظريته السياسية تنطلق من موضوعة تقول " أن انحلال دولة الخلافة سيؤدي إلى خضوع العرب للغرب".

وفي أحد الاجتماعات التي عقدت في الآستانة مع بداية الحرب العالمية الأولى قال الأمير شكيب للمجتمعين من الفريقين: " لا أعتقد أن بينكم من هو عربيٌ أكثر مني،.افتحوا عيونكم على ما يهدد البلاد العربية من خطرٍ، واقرؤوا الجرائد الأجنبية، وانظروا إلى المعاهدات التي أُعلنت، وإلى الاتفاقيات التي أُذيع خبر عقدها ولم تنشر، تروا أنها كلها ترمي إلى تقسيم الدولة، وذهاب الأقطار العربية للإنجليز والفرنسيين"[1].

وراح الأمير يؤكد ما قاله في موضوعته السياسية: " بأن ثورة الشريف حسين ستسرع في القضاء على الخلافة الإسلامية، ولن تقود إلى استقلال العرب بل إلى استبدال العثمانيين بمستعمرين أوربيين ".

أما الإنجليز فكانوا على معرفة دقيقة بواقع الحال، وعمدوا إلى مخاطبة العرب بلغة يطيب لهم أن يسمعوها، فقد كتب السير هنري مكماهون إلى الشريف حسين في مطلع آب عام 1915، يقول: " إلى الحسيب النسيب سلالةِ

---

[1] ظاهر الحسناوي – مصدر سابق ص 60

الأشراف، وتاج الفخار، وفرع الشجرة المحمدية، والدوحة القرشية، دولة الشريف حسين، بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة، يسرنا أن نعلم سيادتكم، ورجالكم، برأي واحدٍ، وعقيدةٍ واحدةٍ، وهي أن مصالح العرب هي مصالح إنكلترا، ومصالح إنكلترا هي مصالح العرب، وأوضح لكم بصراحة رغبتنا في استقلال البلاد العربية وسكانها، وموافقتنا على أن يكون الخليفة عربياً عريق العروبة.."[1].

وقد تفاقم الخلاف بين مدرستي العمل السياسي العربي، على الرغم من أنهما تستهدفان الاستقلال، والوحدة، والنهوض بالأمة العربية. فقد وقعت المدرسة الأولى في حبائل الغرب، ولم تُفلح في إنتاج سياسة قادرة على أن تستقوي بذاتها، وأن تمتلك السبل التي تمكّنها من بناء دولة عربية ناهضة، ومستقلة، دون اللحاق بالغرب والانقياد له.

أما المدرسة الثانية فسعت إلى مزج المبادئ القومية مع القيم الإسلامية، والذود عن حقوق العرب الكاملةً، ضمن دولةً إسلاميةٍ عزيزة الجانب قوامها إخاءٌ صادقٌ، وتعاون خلاّق بين أمتين العرب والأتراك. ولم تفلح هذه السياسة أيضاً لأن الدولة العثمانية المستبدة والمتلاشية أضاعت الفرصة بعد أن تمكّن منها الاستبدادُ والتعصب. ولم يقبل الأتراك بنصائحْ الأمير شكيب الداعية إلى رفع نير الظلم عن العرب، وبناء دولة الخلافة على مبادئ العقلانية، والعلم، والمساواة، والتصنيع، والاستعداد لإقامة علاقة ندية مع الغرب..

يقول الأمير شكيب: " كنت في الصف المقاوم للملك حسين قبل الحرب، وأيام الحرب، كما يعلم ذلك الجمهور، منتقداً سياسته في الخروج على دولة الخلافة، وأكثر من هذا، ثقته بالدولة البريطانية وعهودها، وكان الملك حسين

---

[1] د محمد شفيق شيا – مصدر سابق ص 107

عفا الله عنه وعن أنصاره من العرب، يحملون عليّ حملاتٍ شديدةً باللسان والقلم، وكثيراً ما كتبت جريدة (القبلة) الموالية للشريف، طعناً وقذفاً بحق كاتب هذه السطور، يدل على ما هنالك من ضغنٍ، ولم يكن بينهم من هو عف اللسان بحقي، غير الملك فيصل، وانتهت الحرب، وتقاسمت دول الحلفاء البلاد العربية، وظهر ما ظهر من نكث الإنكليز بوعودهم"[1].

تكشف رسالة الأمير هذه، حدة الصراع الذي كان قائماً بين العرب المنقسمين على أنفسهم، وعجزهم الذي لا يزال حتى يومنا هذا عن إدارة حوار بنّاء فيما بينهم بدلاً من لغة القدح والاتهام، على الرغم من أنهم يشتركون في هواجس واحدة، وينزعون إلى نهضة العرب وحصولهم على الحرية والسيادة.

حذر الأمير شكيب الشريف علي بن الحسين، قائد القوات العربية التي أغارت على أطراف حوران عام 1918 من مغبة الارتهان إلى الإنكليز، أو الثقة بصدق عهودهم، فقال: " أتظنّ أيها الأمير، أن الإنجليز يغدرون بكل هؤلاء الملوك والممالك، ويستثنونك أنت من الجميع، فيتعلمون فيك الوفاء، ويخرقون من أجلك خطةَ الغدر التي ساروا عليها، إلى يومنا هذا، كم عقداً عقد الإنجليز ولم ينقضوه؟ وكم عهداً أبرموه ثم لم يجعلوه أنكاثاً "[2].

غير أن تحذيرات شكيب أرسلان للهاشميين، لم تلقَ أذاناً مصغية، ولم تثنهم عمّا رموا إليه. فقد كانوا يشعرون أنهم بحاجة إلى سند دولي، وعلقوا الآمال على الإنكليز، الذين سخّروا هذه الآمال لترسيخ الفرقة بين العرب، وتقطيع أوصال الدولة العربية الواحدة ببناء الدول القطرية، والتعهد بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

---

(1) شكيب أرسلان ـ السيد رشيد رضا أو إخاء 40 سنة ـ دمشق ـ 1937 ـ ص361
(2) ظاهر الصكر الحسناوي ـ مصدر سابق ص60

دروس الحرب العالمية

استوعب الأمير نتائج الحرب العالمية الأولى ودروسها جيداً، فقد سقطت تركيا في امتحان هذه الحرب، وكان لسقوطها وقع كبير، بدل جدّياً في بُنى الدولة العثمانية، وغيّر في خرائطها، وطال أرجاءها المترامية. ولأن نتائج الحروب ليست مصادفات، بل هي بيان بانتصارات أو بهزائم، تتعلق بطبيعة النظم والسياسات والأفكار ونمط الحياة، فقد انكفأ الإسلام السياسي جراء استبداد سلاطين بني عثمان، وانهارت الجامعة الإسلامية، التي انضوى الأمير شكيب أرسلان تحت لوائها، فأقدم على مراجعة طالت مفاهيم كان لها الكثير من الأهمية لديه. وقد أسهمت مراجعة الأمير الفكرية، المستندة إلى ثقافته ومنهجيته في اقتناعه بأن فلسفة سياسية كاملة قد أفل نجمها، وأن دولة الخلافة التي جمعت الترك والعرب أصبحت في ذمة الماضي، وأن البديل القومي أصبح مضمون العمل العربي. فالنزعة القومية ضاربة في أعماق التاريخ العربي، ومقوماتها كامنة في اللغة، والتراث، والتكوين النفسي المشترك، والعودة إليها هي شكل من أشكال اكتشاف الذات العربية، يقول الأمير: إن العثمانية قد ذهبت، وذهبت معها وحدتها، أما العربية فلن تذهب[1].

كان الأمير يدرك صعوبة التحديات، التي تقف في وجه النزوع القومي، وتحول دون تحقيق الآمال المعقودة عليه. فلقد تلقف الغرب الاستعماري دعوة المفكرين والساسة العرب، إلى الخلاص من الاستبداد العثماني، ، وجّل ما أرادوه من دعم انفصال العرب عن الدولة العثمانية، أن يخرج العرب من فلك الآستانة ليدخلوا في فلكهم. وهذا ما تنبأ به الأمير وعاداه وحذر منه.

وفي واقع الأمر دخلت فرنسا سورية ولبنان عام 1918 م، وأُجبر الأمير على الرحيل. فاختار بلدة مرسين التركية الواقعة على الحدود السورية، وحاول

---

[1] شكيب أرسلان – رشيد رضا – مقطع من رسالة تاريخ 30 كانون أول 1923.

أن يشكل لجان مقاومة، يتصدى بها للفرنسيين، غير أنه لم يمكث هناك طويلا، فقد تزعم مصطفى كمال الاتجاه الداعي إلى إلغاء الطابع الإسلامي للدولة التركية، وهجر الإسلام وثقافته، والاقتداء بالغرب.

انتقل الأمير شكيب إلى برلين، وكان محظوراً عليه الدخول إلى كافة الأراضي العربية الخاضعة لفرنسا وبريطانيا. ولم يتمكن من لقاء أسرته إلا عام 1924، حيث كان قد قال: "مضت عليّ ست حؤول كاملة، وأنا أجوب الأقطار، ولا أنزل من قطار إلا لأصعد إلى قطار، وأفكر في مكان أقدر أن اجتمع فيه بأهلي فلا أجد" [1].

الأمير في عصبة الأمم

كانت البلاد العربية التي منيت باحتلال الاستعمار الغربي، تتطلع إلى من يحمل قضيتها، ويخوض معركتها السياسية في محافل الغرب، وفي عصبة الأمم. وشعر الأمير أن عبء ذلك يقع على كاهله. وقد اتصل به الملك فيصل لهذه الغاية يقول الأمير: "ما أن سقط الملك عن عرشه في دمشق حتى أرسل لي بمكاني في برلين رسالة تدل على منتهى الثقة، ومزيد الاعتقاد بإخلاصي للقضية العربية، وأفضى إليّ بأسرار لا يفضي بها إلى أعز الناس عليه[2]".

ولعل إدراك الأمير لما يجب عليه أن يقوم به، دفعه إلى الانتقال من برلين إلى جنيف، ذلك لأن جنيف آنذاك كانت مقراً لعصبة الأمم. وكانت إحدى أهم ساحات العمل السياسي، والنشاط الدبلوماسي. وأصبح التصدي لاتفاقية سايكس بيكو المهمة الرئيسية للأمير في عصبة الأمم، وقد تداعى مع عدد من

---

[1] ظاهر محمد صكر الحسناوي ـ مصدر سابق ص33

[2] محمد شفيق شيا ـ مصدر سابق ـ ص84

الساسة والمفكرين السوريين والفلسطينين، لعقد مؤتمر عام 1921، أسهم الأمير بالتحضير له، وإعداد وثائقه، وقد أصدر المؤتمر بياناً ختامياً حدد فيه المطالب التالية:

1. الاعتراف باستقلال سورية، ولبنان، وفلسطين.
2. الاعتراف بحق هذه الأقطار في الاتحاد فيما بينها، أو مع بقية الأقطار العربية الأخرى المستقلة.
3. إعلان إلغاء الانتداب عن هذه الأقطار حالاً.
4. جلاء القوات الفرنسية والبريطانية عن سورية، وفلسطين، ولبنان.
5. إلغاء وعد بلفور القاضي بإنشاء وطن لليهود في فلسطين. [1]

انتخب الأمير سكرتيراً للمؤتمر، وبدأ يجري الاتصالات مع مندوبي عصبة الأمم. وأصبح شغله الشاغل تحبير النداءات، وصياغة المقالات التي تكشف طبيعة الانتداب. وقد أوضح له المندوب البريطاني في العصبة، أن الانتداب مقرر من عصبة الأمم نفسها، وليس من مسؤولية ممثلي الدول في العصبة قبوله أو رفضه، بل يحق لهم فقط المطالبة بجعل الانتداب متطابقاً" مع المبادئ والأحكام الواردة في ميثاق العصبة.

مؤتمر القاهرة

عقد عام 1923، مؤتمر في القاهرة، وجعل من مقررات جنيف الآنفة الذكر منهاج عمل، "وشكل وفداً برئاسة الأمير شكيب لمتابعة قضية استقلال البلدان العربية، وأرسلت الكتب إلى وزراء خارجية الدول الكبرى، لاعتماد الوفد

---

[1] ذوقان قرقوط ـ المشرق العربي في مواجهة الاستعمار ـ القاهرة ـ الهيئة المصرية للكتاب- 1977- ص204

رسمياً في عصبة الأمم"[1]. وانصبت جهود الوفد على ثلاثة أهداف رئيسة هي: رفض الانتداب الفرنسي على سورية، ومجابهة الانتداب البريطاني على فلسطين، والدفاع عن عروبة فلسطين في مواجهة المشروع الصهيوني.

وكان من الطبيعي أن يقع على كاهل الأمير شكيب العبء الأكبر من مهام الوفد، فراح يتنقل بين روما، ولندن، وبرلين، يجري دون كلل الاتصالات، ويرفع التقارير، ويعد البرقيات، موضحاً إلى الرأي العام الدولي، وإلى عصبة الأمم حق العرب في الاستقلال، وتقرير المصير. وعلى سبيل المثال قدم الأمير لها عام 1925، نداء مطولاً فضح فيه السياسات الاستعمارية التي تستهين بحقوق العرب في السيادة على أراضيها، وذلك حين لاح في الأفق تواطؤ فرنسي تركي، ينطوي على منح إنطاكية ولواء إسكندرون السوري إلى تركيا.

الأمير والثورة السورية الكبرى

حين قامت الثورة السورية، تلقى الأمير رسالة من قائدها سلطان الأطرش، يقول فيها "باسم عموم سكان الجبل، الذين اعتدت عليهم السلطة الفرنسية بالضغط، والاستبداد، وضرب الطائرات، وأنكرت حقوقهم التي اعترفت بها قبلاً، وكّلنا عطوفتكم بإعلام عصبة الأمم، التي هي مسؤولة عن أعمال الدولة المنتدبة في سورية، وتفهيمها أننا حملنا السلاح ودافعنا عن أطفالنا وعيالنا... وأن توضحوا لعصبة الأمم، أنها هي أيضاً مسؤولة عن دمائنا المسفوكة ظلماً "[2].

ولم يدّخرالأمير وسعاً في فضح الأساليب الوحشية التي لجأت إليها فرنسا، للقضاء على مقاومة الشعب السوري للاحتلال، وجاء في مذكرة وجهها إلى رئيس عصبة الأمم قوله:

---

[1] محي الدين السفرجلاني – تاريخ الثورة السورية –دمشق – دار اليقظة – 1960 ـ 116

[2] محمد شفيق شيا –شكيب أرسلان ـ مصدر سابق ص79

"إن دولة الانتداب هي مصاصة دماء الشعب السوري، تعيش على موارده، وتهرّب ذهبه إلى الخارج، وتتسبب في إفقاره، بإصدار أوراق مالية دون غطاء ذهبي، وتحّول الجزء الأكبر من ذهب سورية إلى الخارج، وقد بالغ الفرنسيون في فرض العقوبات، والمخالفات على الشعب السوري تحقيقاً لهذه الغاية " [1].

شغلت وقائع الثورة السورية الكبرى وجدان الأمير وفكره. وكان يتابع بقلق وقائع هذا الكفاح من أجل الاستقلال، ويكتب إلى أخيه عادل أحد فرسان هذه الثورة، ومن أبرز قادتها الرسائل حول مجريات هذه الثورة وحيثياتها موجّهاً وناصحاً، وقد أشاد الأمير شكيب بكل من انضوى تحت راية الثورة، وكتب بعد أن علمَ باستشهاد عادل النكدي، الذي ما إن نال شهادة الدكتوراة في جامعة لوزان أوائل عام 1926، حتى التحق بالثوار. يقول: " لّما شبّت الثورة السورية، ونهضت رجالات الوطن إلى نفض غبار الذل والمسكنة عن أنفسهم، وكسر يد الاستعمار العاتية الممتدة إلى خنق حريتهم، رأيتُ –عادل ـ يحنّ إلى ساحة النضال حنين الغريب إلى وطنه، ولقد برّ بقوله أنه سينغمس في القتال بلا مبالاة بالموت، وقاتل حتى سقط مضرجاً بدمائه "[2].

لم تخف فرنسا ضيقها من الوقائع الدامغة، التي كان يقدمها الأمير لعصبة الأمم، وأقلقتها كفاءته في فن التوجه إلى هذه الهيئة الدولية، وقد اضطرها في كثير من الأحيان إلى الاعتراف باستخدامها السلاح في وجه السكان الأبرياء، وبسجن الكثيرين من أبناء سورية المناهضين للانتداب. كما اضطرها في أحيان أخرى إلى تزييف الحقائق وتقديم المعلومات المشوهة عما تقوم به للدفاع عن نفسها.

---

[1] ظاهر محمد صكر الحسناوي ـ شكيب أرسلان ـ مصدر سابق ص116

[2] سامي الدهان –مصدر سابق ص248

وقد عمد الفرنسيون إلى أسلوب آخر مع الأمير لكسب رضاه، فدعاه المندوب السامي على سورية "هنري جوفنيل" إلى باريس. وأجرى معه مفاوضات بينما كانت ألسنة الثورة السورية تحرق طمأنينة حكام باريس. غير أن الأمير أصر على عقد معاهدة مع الفرنسيين، وصاغ بنودها بقلمه، واشترط أن تصدّقها الحكومة الفرنسية قبل أن يذهب إلى دمشق، كي لا يقع ضحية خداع الفرنسيين، الذين كانوا يريدون أن يذهب معهم إلى سورية، ويبعدوه عن عصبة الأمم. وحين رفض جوفنيل التوقيع على المعاهدة، عاد الأمير إلى جنيف ليتابع نشاطه السياسي. وفي جنيف ترأس الأمير الوفد السوري، الذي ذهب إلى روما ليقدم أمام لجنة الانتداب وثيقة جديدة، تنطوي على صور من معاناة الشعب السوري اليومية جراء الاحتلال. ورأى بأم عينه كيف كانت الدول الأوربية تتعاون فيما بينها، مستغلة نتائج الحرب العالمية لتحقيق مصالحها، مستهينة بحق بلاده في السيادة، والاستقلال. وقد كتب يصور معاناته من كثرة الدسائس التي تحاك، والمكائد التي ترسم لإطالة أمد الاحتلال قائلاً: " لقد بلونا في هذه السنوات الخمس من معاملات الدول العرف والنكر، وذقنا الحلو والمر، ورأينا الهزء والجد، وعرفنا الجزر والمد، ولم يبق وجه يمكن أن تنّحل به عقدة سورية إلا فكرنا فيه، وأجلنا النظر في خوافيه، فلم نجد نجاة إلا بالاستقلال التام والدخول في عصبة الأمم، والتوفر على إصلاح داخليتنا، والمبادرة إلى تأسيس جيش نذب به عن حوض وطننا، ونتقي الغارات التي لا تجد سبيلها إلينا إلا كوننا عزّلاً [1].

يلفت الانتباه في قول الأمير هذا فكره الجدلي، الذي يدرك علاقة الحق بالقوة، وصلة الداخل بالخارج، فالعرب يحتاجون قبل كل شيء إلى استقلال تام، وضمانة صيانة هذا الاستقلال، تأسيس جيش قوي، وإصلاح داخلي.

---

[1] صحيفة الشورى ـ القاهرة ـ 28أيار1926

دعي الأمير إلى أمريكا عام 1927، وشارك في مؤتمر "حزب الاستقلال"، الذي تداعى إلى عقده بعض السوريين في أمريكا. وأثناء وجوده هناك نشر سلسلة مقالات، قدّم فيها رؤاه المتعلقة بنهوض العرب، وقارن بين تقدم الغرب، وتأخر العرب والمسلمين، ودافع عن مواقفه إبان العهد العثماني، ورد الاتهامات التي نالت من صحة مواقفه.

ووجهت له الحكومة السوفياتية دعوة لحضور احتفالاتها بالذكرى العاشرة للثورة، فالتقى عدداً من المسؤولين في الحزب والدولة، ليقدم الشواهد والأدلة الحية، على سياسات دول الانتداب القائمة على تقسيم البلاد العربية، ونهب ثرواتها.

هذا التنقل بين القطبين العالميين، أكبر دليل على مكانة أرسلان الدولية. ففي كلا البلدين كان خير مثال للمفكر الرصين، الذي يمتلك شجاعة التعبير عن رأيه. فرغم حفاوة الحكومة السوفيتية، ومع أنه ضيفها، فإنه لم يتردد في نقد سياساتها المتصلة بحرية الاعتقاد. أما في أمريكا فقد جاهر بنظرته النقدية لظاهرة الاستعمار، وخطرها على حرية الشعوب، وعلى الدول الاستعمارية ذاتها.

لقد حرص الأمير على القيام بنشاط دعائي واسع، مدعم بالوثائق والبيانات، في كل المحافل واللقاءات الدولية التي حضرها، وشارك بأعمالها. وسعى جاهداً إلى تنبيه الرأي العام العالمي، لما يدور في سورية. وقام الوفد السوري في عصبة الأمم بقيادته خير قيام بواجبه الوطني، والأمثلة على ذلك لا تحصى، حيث قدم لهذه العصبة عام 1925، مذكّرة فضحت الأساليب الوحشية، التي اتبعتها فرنسا في جنوب سورية ضد قرى جبل حوران، بحجة نزع سلاح سكان هذه القرى. وإزاء الوقائع الدامغة اضطر ممثل الحكومة الفرنسية إلى الاعتراف بصحة ما ورد في المذكرة.

كان ممثلو فرنسا في عصبة الأمم، يجدون الوفد السوري بانتظارهم في كل جلسة، وفي كل لجنة، وفي كل جولة مباحثات تتعلق بالانتداب، وكان أولئك

الممثلون المدانون يلجؤون إلى تقديم المعلومات الزائفة، دفاعاً عن النفس دونما جدوى.

وقد بعث الأمير عام 1929 م، إلى جريدة المقطم المصرية، بمقالة جاء فيها "إن القضية السورية دعوة سياسية معلقة، وينبغي أن تبقى معلقة لدى هذه المحكمة: عصبة الأمم! حتى لا يتخذ الأجانب سكوت سورية حجة، ويعتمدوها علامة الرضا بالحالة الحاضرة"[1].

مجلة الأمة العربية

أسس الأمير عام 1930 مجلة، صدرت في جنيف باللغة الفرنسية "La Nation Arab" ـ الأمة العربية ـ وثمة دلالة تتعلق باختيار الاسم، ودلالة أخرى تتصل بالهدف من إصدارها باللغة الفرنسية، فالأمير كان يدرك الأهمية القصوى لمخاطبة الرأي العام الأوربي مباشرة، وضرورة دعوته إلى التعاطف مع قضايانا العادلة، وإلى عدم الاكتفاء بالتوجه إلى الحكومات الاستعمارية، وتقديم التنازل تلو التنازل أمامها بهدف استرضائها. وكانت مجلة "الأمة العربية" كغيرها من المجلات و الصحف العربية، منبراً من منابر الأحرار شبيهة بالعروة الوثقى لجمال الدين الأفغاني، وصحف الفتح، والجهاد، والشورى، والمؤيد،. تفضح مكائد المستعمرين، بقوة الحجة، وسداد الرأي، وتثير قضايا الحق والعدالة. فكأن صفحاتها الخمسين مجلدات، تحوي ملفات الدفاع عن العرب، وتشع نوراً هادياً داعياً إلى التقدم، والحرية، والعدالة، والنهوض. بل كانت كالنار تحرق أباطيل المستعمرين، مستخدمة لغتهم، وأسلوبهم، ولم يكن بيان الأمير شكيب ليقل عن بيانهم، ولم تكن ثقافته لتقل عن ثقافتهم في الفرنسية وكما يقال: من علم لغة قوم أمن مكرهم.

---

[1] مجلة الفتح ـ السنة الثالثة ـ العدد148- 16أيار1929- ص504

كان الأمير ينفق على المجلة من جيبه، ويتحمل الخسائر في سبيلها بعد أن منعت الحكومة الفرنسية دخولها إلى سورية، وشمال أفريقيا، ومنعت الحكومة البريطانية دخولها إلى فلسطين. وقد كتب الشيخ رشيد رضا إلى الأمير شكيب بصدد هذه المجلة يقول: أنتقد كذلك أشد الانتقاد هذه النفقات على مجلتكم الفرنسية " لانا سيون آراب". وهي فوق طاقتكم في سبيل الأمة التي تخدمونها"[1].

ولقد أثار نشاط الأمير الصحفي، وما انطوت عليه مقالات مجلته من قوة منطق وروعة بيان حفيظة الفرنسيين. وأشعل قلوبهم غضباً، خاصة أنه لم يكلّ ولم يملّ من الدعوة إلى انتزاع الحرية بقوة السيف، ولم يترك مناسبة إلا وذّكر بهذه الحقيقة للظفر بالاستقلال، وجلاء جيوش الغزاة عن تراب بلاده. ولم يفلح الدهاء الفرنسي في ثني الأمير عن دعوة أبناء أمته إلى امتشاق الحسام لمقارعة الغزاة، وهو القائل في إحدى قصائده:

فدىً لحمانا كُلّ من يمنعُ الحمى ... ومَن ليس يرضى حوضه متُهدما
تجاهل أهُل الغرب كل قضية ... إذا لم يجئ فيها الحسام مترجما
يقولون وجُه السيف أبيض دائماً ... وما ابيّض إلا وهو أحمر بالدما[2]

عمد الفرنسيون جراء ذلك إلى الكيد للأمير، فصادروا كتبه في سورية ولبنان والمغرب. وسخّروا بعض الأقلام للغمز من قناته بهدف النيل منه، فعزز ذلك من قناعته بصحة مواقفه، وبضرورة متابعة السير على طريق النضال الدؤوب لتحقيق الأماني الوطنية، " فشارك في مؤتمر عقد في هولندا عام 1931 م بحضور أكثر من ألف مستشرق، وجعل المؤتمر منبراً للدفاع عن الحضارة والثقافة

---

[1] شكيب أرسلان – السيد رشيد رضا – مصدر سابق – ص 576
[2] ديوان الأمير شكيب أرسلان ـ مصدر سابق – ص 100

العربية والإسلامية، ودعا إلى احترام حضارات الشعوب. وثقافاتها وحقها في الحياة والسيادة "[1].

استند الأمير شكيب في مجمل نشاطه الفكْري، والسياسي، والدبلوماسي في عصبة الأمم، إلى كفاح الشعب السوري، وانتفاضاته، وثوراته المتلاحقة، وبدأت تلوح في الأفق ثمرة ذاك الكفاح، وذاك النشاط، من خلال استعداد الفرنسيين للتفاوض. والتعهد بتسليم أبناء سورية زمام أمورهم. وقد التقى إبان هذه الفترة الأمير شكيب الملك فيصلا، وتداولا في أمر ما كان يتردد من تطلّع الأمير علي بن الحسين إلى تولي العرش في سورية، وقد أكد الأمير شكيب للملك فيصل " أن مثل هذا التوجه سيصطدم بنزوع السوريين إلى نظام جمهوري، كما أن الشعب السوري يرفض رفضاً قاطعاً، تتويج ملك وسورية في ظل الانتداب، ويأبى الموافقة على دستور يمس السيادة القومية"[2].

معاهدة 1936

أجريت في أوائل عام 1932 انتخابات برلمانية في سورية، وفي ضوء تدخل الفرنسيين لم يفز أحد، ممن تنافس على منصب رئاسة الجمهورية، وكان هاشم الأتاسي بين المرشحين، فقرر المندوب السامي ترشيح محمد علي العابد للرئاسة، وحرص على تأمين الأغلبية البرلمانية له. فأدرك الشعب السوري أن عليه أن يتابع نضاله الوطني، وقد سهّل فوز الجبهة الشعبية في فرنسا، وتسلمها مقاليد الحكم البدء بمفاوضات بين سورية وفرنسا، تمخضت عن معاهدة 1936م. وقد كتب الأمير شكيب واصفاً تلك المعاهدة بقوله: " إنني أضع فوق نصوص المعاهدة الروح التي أملتها، لقد وضعت نهاية لفترة من الريبة والصراع والكراهية، وخلقت مرحلة ستكون بل يجب أن تكون ضرورية لفرنسا ولسورية[3]" .

---

[1] مجلة المقتطف ـ 1932- الأعداد1و2

[2] ظاهر محمد صكر الحسناوي – مصدر سابق – ص 108

[3] المصدر نفسه ص111

استقال العابد بعد المعاهدة، وانتخب هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية، وكان وثيق الصلة بالأمير، وعملا معاً في سبيل استقلال البلاد، فوجهت الحكومة السورية الدعوة إلى شكيب أرسلان ورفاقه للعودة إلى الوطن وكان محظوراً على الأمير شكيب، طوال سنوات النفي الرجوع إلى أي بلد عربي، خاضع للسيطرة الاستعمارية، ولم يتسن لعينيه أن تكتحلا برؤية سماء وطنه وجباله ووديانه، إلا بعد توقيع تلك المعاهدة، ووصف أمين الغريب عودة الأمير قائلاً: "أجل إنني لا أنسى ذلك اليوم الأغر المحجل، في 30 تشرين الأول، إذ عاد إلى الوطن من سويسرا ابنه البار بعد أن أوصد الأجانب في وجهه باب وطنه، فتقاطر إلى مرفأ بيروت جمع زاخر، ما له أول ولا آخر، من ذوي النبل والوفاء، كانوا يموجون على سيف البحر كالبحر"[1].

طاف الأمير في أرجاء بلاده، وخطب في أبناء قومه، وحاضر في أندية علمية مختلفة، واختاره المجمع العلمي العربي بدمشق رئيساً اعترافاً بمكانته العلمية، وتكريماً لجهاده، وإكباراً لأياديه، ولكنه لم يمارس هذه الرئاسة، رغم صدور قرار بها، إلا لفترة قصيرة، لأن من شروطها بقاء الأمير في دمشق، فالتغيرات التي وقعت في فرنسا، أدت إلى إقصاء الجبهة الشعبية عن الحكم، فقوضت السلطة الفرنسية الجديدة معاهدة 1936، وتخلت عن العهود التي قطعت بمنح الشعب السوري حقه في السيادة والاستقلال. وكان على الأمير شكيب أن يحمل عصا الترحال من جديد، عائداً إلى جنيف ليتابع نضاله دفاعاً عن القضية العربية.

الأمير وقضية فلسطين:

كان موقف شكيب من قضية فلسطين، يستند إلى رؤيته القومية العامة، وإلى إيمانه العميق بالعروبة مبدأ، وتراثاً، وأرضاً، وشعباً. وقد تنبه إلى مخاطر

---

[1] محمد علي الطاهر ـ ذكرى الأمير شكيب أرسلان ـ مصدر سابق ـ ص147.

نشاط الحركة الصهيونية، وعرف غاياتها منذ البداية، وقيض له وجوده في أوربا، الوقوف على طبيعة نشاط هذه الحركة وأسرارها. وقد عقد العزم على التصدي لهذا النشاط، وكرّس لهذه الغاية قدراته الفكرية والسياسية، ونشاطه العملي. ودفاعاً عن عروبة فلسطين سافر إلى لندن عام1922، وأسهم في كشف مخاطر السياسية البريطانية، التي احتضنت الحركة الصهيونية، وتعهدت لها بإقامة الدولة العبرية. وفي العام نفسه شارك في مؤتمر عقد في جنوه. وكان عليه أن يتابع بحث القضية الفلسطينية في عصبة الأمم، فحضر عام 1926 جلسة لجنة الانتداب، وسمع خطاب الزعيم الصهيوني حاييم وايزمن، وكلمة المندوب السامي البريطاني في فلسطين، وردّ على كليهما رداً تاريخياً، مقروناً بالأدلّة التي تكشف دونما لبس، أن فلسطين جزء من الأرض العربية ماضياً وحاضراً، وأنها مكّون من مكونات الدولة العربية، ثقافة، وحضارة عبر التاريخ. وفند الذرائع التي روجتها الحركة الصهيونية المتعلقة بوضع اليهود، فكتب في 30 أيلول عام 1926 يقول: "إذا كان الله حكم على اليهود أن يشتتوا أيادي سبأ، ولا تكون لهم مملكة، أفيكون العرب مسؤولين عن ذلك، أو يجب أن يعاد شملهم على ظهر العرب، ومن كيس العرب. كان الأولى بالأوربيين الذين آووا اليهود في ديارهم، أن يجمعوا شملهم إلى مملكة واحدة، وأن يعيدوا إليهم حقهم الضائع من كيسهم، لا من كيس غيرهم، لا أن تقطعهم انجلترا ملك العرب الذي يتصرفون به من أكثر من ألف وثلاثمئة سنة"[1].

وقد نبّه الأمير إلى خطر تواني العرب، وغفلتهم عن مواجهة التحدي الصهيوني مواجهة حاسمة. وعبّر عن قلقه من حال الأمة فالتشتت، والضعف، وافتقاد الإرادة الواحدة، والقرار الواحد هو الأمر الذي يسهل للحركة الصهيونية تحقيق ما تتطلع إليه، فتصبح عروبة فلسطين في مهب الريح، وفي

---

[1] مجلة الشورى ـ 30أيلول ـ 1926

النهاية لا يذود عن البيت إلا صاحبه، يقول الأمير: " إن بقاء فلسطين بلداً عربياً، أو تحولها يهودية، وطرد العرب أخيراً منها، منوط بالعرب الفلسطينيين أنفسهم قبل سائر العرب، وبهذا بلاغ لقوم يعقلون "[1].

وأدان الأمير منذ البداية، شكل المواجهة الفلسطينية والعربية للخطر الصهيوني. فهي لم تعبّر عن استعدادهم تقديم الثمن الغالي، للحفاظ على عروبة فلسطين. ولعلّهم لم يدركوا أن استجداء حقهم، ممن وقف علانية إلى جانب الصهاينة كان خطأً قاتلاً، لا نزال نتجرع كأسه المر إلى اليوم، فلقد كشف الزمن أهمية مخاطبة الآخرين من موقع القوة. وأهمية ارتياد كل الطرق لبناء هذه القوة، وبغير ذلك يتم التفريط بالحقوق، ويقود التنازل إلى تنازل آخر، يقول الأمير: " قدم العرب اقتراحات لحل المسألة الصّهيونية، تجشّموا فيها مرارة التساهل ما لم يأتِ التاريخ بمثله "[2] كان جوهر التساهل الذي أثار استغراب الأمير. عدم الوقوف بكل حزم لمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين. لقد كان ذلك بداية الكارثة، فقد تدفّقت أمواج الهجرة، منذ ذاك الزمن ولم تزل حتى يومنا هذا، وأصبح مجرد التفكير بإيقافها محض سراب. ذلك لأن يهود العالم بغالبيتهم، سخّروا الأموال الهائلة لتأمين الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وسخر العرب أموالهم الكبيرة لغايات أخرى، بل ثمة وقائع تشير إلى أن المال العربي، قد وضع في قبضة البنوك الصهيونية، ليسهم بدوره في خدمة الهجرة اليهودية.

أصدرت وزارة المستعمرات البريطانية عام1936، منشوراً تعلن فيه أنها ستعمل على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وستحافظ في الوقت نفسه على حقوق الشعب الفلسطيني. ففند الأمير المزاعم البريطانية، وكشف ما فيها من تناقض وأهاب بالشعب الفلسطيني أن يتابع الكفاح ورأى: " أن عصبة

---

(1) مجلة الشورى ـ 30أيلول ـ 1926

(2) محمد علي الطاهر ـ ذكرى الأمير شكيب ـ مصدر سبق ذكره ص502

الأمم التي يتم من خلالها تنفيذ اتفاقات استعمارية، بشأن الوطن العربي ليست أكثر من مجلس لتقسيم الغنائم "[1].

وعاد الأمير يذكر بريطانيا، بأن فلسطين تقع ضمن حدود الدولة العربية التي تعهّدت بإقامتها، في مفاوضاتها مع الشريف حسين.

وحين عقد مؤتمر بلودان عام 1937، لمناقشة تطورات القضية الفلسطينية، انتخب الأمير نائباً لرئيس المؤتمر، وكان حديثه خاتمة المطاف فاقترح إرسال برقيات إلى رؤساء الدول في العالم الذين آزروا القضية، ودافعوا عن حق العرب، داعياً إلى الوقوف باستمرار إلى جانب حقوق الشعوب، وأهاب بالقادة العرب، أن يجعلوا من قضية فلسطين قضية الأمة العربية المصيرية، وحيا الشعب الفلسطيني، وحثّه على ضرب المثل الأعلى في البطولة والكفاح. وسبق للأمير أن كتب يقول: " مما لا خلاف فيه، أن الصهيونية في فلسطين اعتداء محض، وتجاوز بحت، لا يفترق بشيء عن اعتداء لص من قطاع الطريق، على عابر سبيل يسلبه ماله وثيابه، والذين يدعون بعْد ذلك إلى الصلح بين العرب واليهود، هم أشبه بمن يدعو عابر السبيل المسلوب ماله والمجرد من ثيابه، إلى مصالحة اللص الذي اعتدى عليه "[2].

لقد آلت السياسات العربية اليوم، إلى حالة جعلت اللص هو الذي يأبى المصالحة، وأقصى ما يتطلع إليه ويقبل به الحكام العرب، موافقة إسرائيل على التنازل عن بعض من الأرض الفلسطينية، يبنى عليها شبه دولة مقطعة الأوصال، مخترقة بالمستوطنات. ليطوي النسيان ما حلم به الأمير، وما ردده في كتبه ومقالاته، ونداءاته إلى حين، علّ الأجيال القادمة تستفيق على قوله: " حقيقة كلية القدرة لا يقدر عقل سليم أن يكابر فيها، وهي أن فلسطين هي ملك العرب[3].

---

[1] شكيب أرسلان ـ حركة القضية الفلسطينية ـ مجلة الفتح ـ السنة التاسعة ـ العدد 436
[2] محمد علي الطاهر ـ ذكرى الأمير شكيب ـ مصدر سبق ذكره ـ ص503
[3] المصدر نفسه- ص504

أولى الأمير الحركة الوطنية وقادتها في المغرب العربي: تونس، والجزائر، ومراكش، وليبيا، اهتماماً كبيراً قلما نجد مفكراً مشرقياً يوازيه بهذا الشأن.

وقد تأثر كثير من زعماء الحركة الوطنية المغربية، وقادة الفكر في نهج الأمير شكيب ورؤاه الفكرية والسياسية، وأصبحت الصحف والمجلات المغربية الوطنية، التي شجع الأمير المغاربة على إنشائها، تروج المبادئ والأفكار الوطنية، والقيم العربية والإسلامية التي بشر بها، ونقل المناضل الجزائري عبد الحميد بن باديس كثيراً من مقالات الأمير إلى مجلته " الشهاب ".

واستحوذ كفاح عبد الكريم الخطابي، على اهتمامات الأمير ولم يخف تقديره وإعجابه بشخصه، ودعا من خلال مراسلاته، ومقالاته، إلى مساندة ثورة الريف التي قادها الخطابي من عام1921 وحتى عام 1925. وقد زار الأمير شكيب الريف المغربي عام1930، وكانت الزيارة تعبيراً عن دعمه الحركة الوطنية في المغرب، كما أصبح مكتبه في جنيف، ملجأ للوطنيين المغاربة الهاربين من اضطهاد السلطات الاستعمارية.

يقول المفكر الفرنسي جوليان: " لقد اكتسب هذا المكتب أهمية كبيرة ليس بالنسبة إلى العرب في المشرق والمغرب، وإنما إلى المسلمين كافة، فمن خلال المكتب، ومجلة " الأمة العربية " LaNation Arab، برز دور الأمير موجهاً ومرشداً، حيث اتضحت كفاءته ليس في الميدان الفكري والسياسي فحسب، وإنما في قيادة الرجال ببراعة نادرة، وبتأثير شخصي خارق، ونشاط لا يعرف الكلل "[1].

[1] شارل أندريه جوليان ـ أفريقيا الشمالية تسير ـ ترجمة المنجي سليم وآخرون ـ تونس ـ الدار التونسية للنشر1976 ـ ص33.

وقد ربط الأمير أواصر العلاقة بين بعض زعماء العرب، ورجال السياسة الأوربية، ووصف الأوربيون الأمير: " بأنه صاحب تكتيك الحركة الوطنية بدون منازع"[1]. وقد تجلى ذلك عبر مئات الرسائل التي بعث بها إلى القادة ورؤساء الأحزاب، وأسهم إلى حد بعيد بتطوير الحركة الوطنية المغربية، وجعل الأفكار القومية أكثر وضوحاً في عقول المغاربة، وأصبحت عقائدهم أكثر نضجاً.

توثقت علاقة الأمير بزعماء الحركة الدستورية في تونس، وكتب المقالات السياسية في صحافتهم، وكُرّس العدد الثالث من جريدة " العمل " التي كانت تصدرها الحركة الدستورية للحديث عن نشاط الأمير، وإماطة اللثام عن فكره، ودوره في خدمة الأمة العربية والإسلامية.

وكان الأمير قد اقترح على الوطنيين المغاربة، تأسيس مجلة أسبوعية أو شهرية في باريس تسمى ـ المغرب ـ تضع على عاتقها الدفاع عن القضية المغربية، واقترح أن يتولى إدارتها أحد الفرنسيين كي تلقى الآذان الصاغية في الأوساط الفرنسية من جهة، وكي يحول ذلك دون تدخل السلطات الفرنسية في شؤونها. وهو أول من اهتم بنشر ثقافة سياسية، تؤكد وتعلل أن شمال أفريقيا جزء من الوطن العربي، ولتحقيق ذلك الهدف دعا في البداية إلى الوحدة بين الأقطار المغربية تونس، والجزائر، والمغرب: والخطوة الأولى على هذا الطريق ـ كما رأى ـ تتأتى من خلال تعزيز التعاون في الميدان الثقافي، عبر المؤسسات الثقافية في البلدان الثلاثة، تمهيداً لتمتين عرى العلاقة بالمشرق العربي، الذي تشترك معه برابطة اللغة والثقافة والحضارة والدين.

لقد صدرت جريدة " لاكسيون " باللغة الفرنسية في مدينة "فاس" عام1932، لتثبت على الصفحة الأولى فيها عبارة للأمير تقول: " إذا كان الفرد معارضاً لأسلوب أو لسياسة أمة معينة فهذا لا يعني أنه معاد لتلك الأمة ". وغاية

---

[1] صكر الحسناوي ـ مصدر سبق ذكره ـ ص138

الجريدة من تلك العبارة واضحة، إذ إنها موجهة للرأي العام في الدول الاستعمارية.

تميز الأمير بالواقعية السياسية، وقلّما غلّب الرغبات والأماني على ما يقدمه الواقع من إمكانات وصاغ رؤاه السياسية، وتكتيكاته معتمداً على القوى الموجودة في ساحة العمل والنضال، وهكذا توثقت علاقته بالتيار الإصلاحي الإسلامي في الجزائر الذي تزعمه " ابن باديس " وسعى إلى جمع ممثلي الحركة الوطنية وقطبيها الرئيسيين الإصلاحيين الذين انضويا في جمعية العلماء الإسلاميين، ومنظمة شمال إفريقيا. وتضمنت توجيهات الأمير للقوى السياسية المغربية بشكل عام، الحث على المقاومة السلمية السياسية والدبلوماسية للاستعمار، عن طريق المقاطعة الاقتصادية والإعلامية، طالما ليس ثمة إمكانية لخوض الكفاح المسلح، وامتشاق السلاح إلا بعد الإعداد الجيد، وفي ظل ظروف موضوعية مواتية. وشكلت آراؤه خطوطاً عامة لنظرية النضال والعمل الوحدوي للأقطار المغربية. يقول شارل جوليان: " ومن مناهل فكره الذي لا ينضب كرعت الحركة الوطنية المغربية، التي كان غالب زعمائها قد تكوّنوا عنه أو استلهموا منه "[1].

لا بد من الإشارة في هذا السياق، إلى موقف الأمير من مسألة في غاية الأهمية، تتعلق بسياسة فرنسا تجاه البربر، فقد سعت فرنسا إلى إبعاد البربر عن الدين الإسلامي، تمهيداً لتنصيرهم، ودعت إلى فصلهم عن العرب عرقياً وربطهم بالجنس الآري، وإحلال سلسلة من القوانين الفرنسية محل الشريعة الإسلامية، واستمرت هذه السياسة من عام1912 ولغاية 1930.

سافر الأمير عام 1930 إلى طنجة، وتطوان، وتباحث في قضية البربر مع الزعماء المغاربة، ووجه رسائل إلى الصحافة العربية في مصر وغيرها، وكتب إلى

---

[1] شارل جوليان ـ مصدر سابق ـ ص33- 34

أصدقائه في الحزب الاشتراكي الفرنسي، وراحت مقالاته تنبه أذهان العرب، والمسلمين إلى خطورة ما تقدم عليه فرنسا، لإخضاع المغرب والسيطرة عليه عبر سياسة فرق تسد. وحث الأمير الملوك والرؤساء العرب على التدخل الحازم للحيلولة دون ذلك، كما استطاع أن ينقل القضية إلى الرأي العام الأوربي التقدمي المناهض للسياسة الاستعمارية. ودقت مقالاته ناقوس الخطر، محذرة من أن تشجع تلك السياسة الدول الاستعمارية الأخرى فتحذو حذو فرنسا، في الأراضي العربية الواقعة تحت الاحتلال. وتعرّض الأمير إلى حملة ضارية في الصحافة الفرنسية، فكتب رداً على تلك الحملة يقول " إن الدول الاستعمارية قد تختلف فيما بينها إلا في عداوتها للعرب المسلمين "[1]. ودعا إلى استخدام سلاح المقاطعة الاقتصادية للبضائع والمؤسسات الفرنسية، وإلى عدم السماح بإخراج قرش واحد من الأموال العربية إلى الغرب الاستعماري. مؤكداً أن المقاطعة الاقتصادية هي الوسيلة الفعالة الممكنة في النضال الواقعي ضد الاستعمار. ولم تجد السلطات الفرنسية وسيلة لمجابهة نشاط الأمير الدؤوب، ولمنع تلك الحفاوة التي كان يستقبل فيها في كل مدينة مغربية سوى إبعاده عن المغرب وهكذا كان.

الأمير وقضية الوحدة العربية:

قلّما تجد مفكراً عربياً كالأمير شكيب قدّم مفهوماً للعروبة، تجاوز فيه الآمال والأماني، وجعل من هذا المفهوم مشروعاً نظرياً له مقوماته الفكرية، وله منهجه التطبيقي، وقد وضع الأمير قلمه ونشاطه العملي، وطاقته الذهنية، في خدمة هذا المشروع، وكان يرى أن الوحدة العربية هي ألف باء هذا المشروع وياؤه.

---

[1] ظاهر الحسناوي –مصدر سابق ص 147

يقول الملك فيصل للأمير: " أشهد أنك أول عربي تحدّث أمامي حول الوحدة العربية "[1]. وتكمن أهمية هذه الشهادة في تقديمها البرهان على امتلاك الأمير الفكر الاستراتيجي، ومعرفته العميقة لمقومات النهوض بالأمة العربية، وسبل تجاوز العلل التي ألمت بها ولا تزال تلم بها إلى يومنا هذا.

عَدَّ الأمير شكيب الوحدة منظومةً فكرية ورؤية سياسية وفلسفة عمل لمواجهة تحدّي النهوض، وتحدّي التقدم وتحدّي الاشتراك مع الآخرين في صناعة المستقبل، ولم يعدّ الوحدة شعاراً. فها هو يقول: " أنا جندي من جنود هذه الأمة، وله ثلاثة أهداف جلية وواضحة تمام الوضوح، الأول هو الاتحاد، والثاني هو التحرر، والثالث هو السير في مواكب النهضة، والعلم، والانبعاث "[2].

وقد ربط فكر الأمير السياسي بين هذه الأهداف ربطاً جدلياً، مذكراً بأسسها ومقوماتها الفكرية والسياسية وأهمها اللغة، والتاريخ، والتآخي الديني المتمثل بالارتباط المصيري بين المسلمين والمسيحيين، والحضارة العربية بما انطوت عليه من تعبير عن الشخصية العربية في الماضي، ومن حاضر تعتمل فيه عوامل النهوض والتقدم، يقول الأمير: " إذا كان علم التاريخ ضرورة من ضرورات البقاء، فضلاً عن الارتقاء، وشرطاً من شروط اللحاق فضلاً عن السباق، فأية أمة أجدر بممارسته من هذه الأمة ذات التاريخ الأمجد، والسنام الأقعس، والعرق الأنجب، واللسان الأدرب، والجهاد الذي شرّق وغرّب أيام ملأت من الدهر مسمعيه "[3].

---

[1] د. محمد شفيق شيا مصدر سبق ذكره ص 84

[2] الصكر الحسناوي ـ مصدر سبق ذكره ـ ص169

[3] شكيب أرسلان ـ الحلل الهندسية في الأخبار والآثار الهندسية مصر 1936 ـ ـ ج1 ـ ص7.

وفي سعيه العملي لتحقيق مشروعه، رأى الأمير أنه ليس من طريق واحد للوصول إلى الهدف، فاستخدم نفوذه ومكانته على سبيل المثال لحل الخلافات الطارئة التي كانت تقع بين البلدان العربية، فقد سعى لإيقاف الحرب الحجازية اليمنية سعياً أدهش رجال عصره فعبر " رشيد رضا " عن فرط إعجابه، وعظيم تقديره لمساعي الأمير وتصميمه على إطفاء جذوة تلك الحرب قائلاً: " لقد استجاب من أوربا أكبر كتاب الأمة، وأمير البيان فيها، والداعي إلى وحدتها، والمحامي عن حقيقتها مثابة سياسة الأمم، كلها شكيب أرسلان "[1]

وبهذه الروح العملية دعا إلى إقامة خط حديدي، يسير بين ربوع العرب النائية ليوحد بينهم وقال: "إن الأمة العربية سائرة إلى الوحدة مهما عارض في ذلك اللئام من أعدائها، والمتفلسفون من أبنائها، وإن هذه الوحدة آتية لا ريب فيها، ولو بعد مئة سنة"[2].

من جانب آخر تبلورت لدى الأمير فكرة إقامة منظمة تلمُّ شمل العرب، وتوحد جهودهم، وكان أول المفكرين والساسة الداعين إلى إقامة الجامعة العربية، ويرجع تاريخ دعوته إليها إلى عام 1922، وقد نشر بياناً بليغاً يحثّ القادة العرب عام 1923 على الاستجابة العملية لذلك المشروع. وعلى الرغم من أن دعوته لم تلقَ حينها الاستجابة فإنه لم ييأس، وبعد عقد من الزمن عاد يدعو إلى تحقيق المشروع قائلاً: " لا يقوم للعرب قائمة إلا به، لأنه الوسيلة الوحيدة لصد الاستعمار الذي أنشب براثنه بقسم من البلاد العربية، ولا يزال يهدد القسم الباقي منها "[3].

وراح الأمير يحدد دور بعض الأقطار العربية، وموقعها في إشادة بنيان هذه

---

[1] شكيب أرسلان ـ محمد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة ـ مصدر سبق ذكره ص189.

[2] مصدر سابق ص308

[3] محمد علي الطاهر ـ ذكرى الأمير.. مصدر سبق ذكره.. ص228- 229

الجامعة، وصولاً بها إلى هدف الوحدة. فقال عن لبنان: " أما لبنان وطني الذي نشأت على حبه، وتغنيت بجماله، فهو قلب بلاد العرب ورمز نهضتها، وعز لسانها، وحامل رسالتها في الشرق والغرب، أنا لبناني وأعرف تمسك اللبنانيين بحريتهم واستقلالهم، ولكن هذا الاستقلال لا يمكن أن يكون صحيحاً ثابتاً إذا كان محاطاً بجيوش الاستعمار والاستعباد، فتحرر الأقطار المحيطة بلبنان هو شرط تحرره واستقلاله، وتضامنه مع الأقطار العربية المجاورة هو الضمانة الحقيقية لكيانه والطريق الأمين لأداء رسالته، رسالة العلم والثقافة والحضارة"[1]. ولا تزال الحياة تثبت صحة هذه الأفكار المتعلقة بسيادة لبنان وحريته حتى اليوم.

ونظر إلى سورية كما نظر إلى لبنان بصفتها هي الأخرى " جزءاً تاريخياً، وحضارياً، وسياسياً، من الأمة العربية، " وأن استقلالها وسيادتها لن يكون ممكناً إلا بارتباطها جزءاً فاعلاً مع سائر الأمة العربية "[2].وكانت دمشق أحب بلاد الدنيا إليه، يقيس عليها ويوازن بها، ويشبه بمعالمها، "فكأنها الدنيا في نظره، يرددها على لسانه، ويستحضرها في ذهنه، فلا تفوته غوطتها وجبالها ونهرها، وثمرها، وشجرها[3].

كما حدد موقع مصر في دعوته إلى الجامعة العربية المنشودة قائلاً: المركز الوحيد الذي يمكن أن تؤسس به الآن دولة كبرى تجمع بين جانب كبير من إفريقيا، وجانب آخر عظيم من آسيا، ويُستأنف به مجد العرب والشرق أجمع، وتُحفظ به الموازنة الضرورية، لتمكين السلام بين الشرق والغرب هو مصر. إذ بمصر جميع ما يلزم من أشراط قيام الدول العظام، ولمصر من الوسائل لتحقيق آمال العرب ما ليس لغيرها، ولا ينقص مضر سوى الاستقلال الحقيقي"[4].

---

[1] سامي الدهان – مصدر سابق ـ ص443

[2] المنصدر نفسه ـ ص448

[3] المصدر نفسه ـ مصدر سابق ـ ص292

[4] شكيب أرسلان ـ حاضر العالم الإسلامي ـ مصدر سابق ـ ج4 ـ ص120

كما أن الأمير لم يغفل عن ذكر الأقطار الأخرى، فهو يقول في إحدى رسائله إلى الحاج عبد السلام بنونة في المغرب: "لعلي في كتابي الآتي أروي لك حتى يثلج صدرك بخلاصة ما هو دائر بيننا وبين الملك فيصل بن الحسين، والملك ابن سعود، والإمام يحيى بشأن التحالف العربي، وكل منهم يكتب لنا، ونحن نبلّغ الآخرين، ونشفع الكلام بما يلزم، وإلى الآن الأجوبة بأجمعها تدعو إلى التفاؤل حقق الله الآمال"[1].

ربط الأمير بين استقلال البلدان العربية، وبين تضامنها، واتحادها، وقد فرض تعدد الدول الاستعمارية، التي قسمت الأرض العربية فيما بينها، تنّوع النضال العربي من أجل الحرية. وربما لو خضع العرب لمحتل واحد كالصين، أو الهند لظلت الأمة العربية على أقل تقدير موحدة بعد طرد المحتلين، غير أن الرياح لم تجر كما تشتهي سفن الحرية والسيادة والوحدة. وقد أدرك الأمير التحدي الذي جسدته أطماع الغرب الاستعماري في ثروات العرب خلال الحرب العالمية الأولى والثانية، فجعلت قضية الوحدة شغل الأمير الشاغل، بعد أن قسّمت تلك الأطماع الأرض العربية، وكان يعدُّ سيادة العرب في مشرقهم، ومغربهم، هشة، وغير مكتملة. وغدا قلمه، ونشاطه العملي جسراً بين عرب المشرق والمغرب. ولم يضاهه بذلك أحد من رواد النهضة العربية من لداته، وقد تنبّه مبكراً إلى أن سياسة الغرب للنيل من سيادة العرب، والحيلولة دون توحدهم تقوم على التمادي في تقسيم الأراضي العربية المقسمة، ورسم خرائط، وخرائط، لممالك، وإمارات، وأمصار، وأقطار، ومشاغلة العرب في الحفاظ على تلك الكيانات البائسة، وراح على الدوام يحذر من ذلك فهو يقول:

---

[1] الطيب بنونة ـ نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان والحاج عبد السلام بنونة ـ طنجة ـ 1980 ـ ص151

" القضية ليست قضية تاج، ولا صولجان، وإنما هي قضية الأمة العربية التي ينبغي أن يكون أمرها فوق الإمارات، والولايات، وإنه خير للمرء أن يكون راعي ضأن في عز قومه، من أن يكون السلطان الأعظم على قوم أذلاء، وهل من سلطان لمن سيطر الأجنبي عليه وقاده كما يقاد البعير"[1].

وكان الأمير في طليعة دعاة المشروع النهضوي العربي القومي، يعاين سبل القوة، التي تجعل للدول شأناً على الصعيد العالمي، ويدرك أن ضعف العرب وهوانهم النابع من تشتتهم، لن يساعدهم على أن يحتلوا موقعاً هم به جديرون. وكان على يقين من أن قوة العرب التي تحفظ سيادتهم، وتمنحهم المكانة التي تليق بهم بين الأمم وقف على وحدتهم. ولم يكن لديه أي شرط لهذه الوحدة سوى شرط القبول بها، وهذا ما جعله يدعو إلى المضي قدماً لتوحيد سورية والعراق قائلاً للملك فيصل:

ليرضَ من يرضى، وليغضب من يغضب، فإن تم اتحاد العراق والشآم فلا تبالِ"[2].

وقد ألقى الأمير محاضرة في النادي العربي بدمشق، أثناء عودته القصيرة إلى وطنه عام 1936، قال فيها: " لم يعد ممكناً إذاً، أن يعيش العرب آمنين في أوطانهم ما داموا مليوناً في هذا القطر، ومليونين في ذاك القطر، وثلاثة ملايين في ذلك القطر، كل منهم لا يربطه بالآخر غير النطق بالضاد، فأنتم تعلمون القوة الهائلة العظيمة التي عند دول الاستعمار التي منها ما يقود مئة مليون من البشر، ومنها ما يقود أربعمائة مليون وهلم جرا، فلا أمل في ثبات العرب أمام دول كهذه، إلا إذا كانوا متحدين جبهة واحدة في وجه الأجنبي الطامع"[3].

---

[1] شكيب أرسلان ـ مجلة الشورى ـ العدد27آب1925

[2] أحمد الشرباصي أمير البيان شكيب أرسلان ـ ج2- ، القاهرة- 1965- ص183.

[3] المصدر نفسه ـ ص185

لقد مضى على هذه الدعوة ما يقرب من سبعين عاماً، وأهم ما فيها أن الأمير لا يتوجه إلى العرب بلغة العاطفة، بل بلغة الفكر، وهو يدرك أن مخاطبة العقل العربي، بلغة تستند إلى الحجة العقلية، وإلى التحليل الواقعي، والملموس، يمكن لها في ظل ظروف موضوعية، ومناخ مؤات، أن تخلق قواها المادية العملية. ورب سائل يسأل لماذا لم تؤت مثل هذه الدعوات أُكلها؟ وحول مثل هذا السؤال يطول الحديث، ومع أن القوى الاستعمارية القديمة، والجديدة، المتحالفة والمندمجة استراتيجياً مع الحركة الصهيونية، كانت من أهم العوامل في تمزيق الأرض العربية، وجعل سكانها يتخبطون في تخلفهم وجهلهم وخلافاتهم، فلقد حذّر الأمير من مجرد الاكتفاء بذكر ذلك. لأن ما يهمّه هو القراءة النقدية التي تحدد مسؤولية العرب في غياب قدرتهم على تجاوز المصاعب الذاتية والموضوعية التي أحبطت محاولات النهوض والسيادة، والوحدة، والقوة التي دعا إليها الفكر العربي النهضوي، منذ أواخر القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين.

وفي الختام:

كان الأمير شكيب مفكراً سياسياً جدلياً، يطّور مواقفه ويبدلها في ضوء تطور المواقف الدولية من بلاده العربية وهي تخوض معارك الدفاع عن الذات والهوية والوجود، ولم يتخل في تحولاته عن النظرة المبدئية يقرأ من خلالها الوقائع ويعاينها، ثم يصوغ مقولاته ومنطلقاته النظرية، فلقد عبر ـ على سبيل المثال عن العلاقة الوثيقة والمتفردة التي تربط العروبة بالإسلام ورأى " أن الرسالة أوحي بها إلى نبي عربي وبلسان عربي وفي أرض عربية، ولذلك كان يسمّي الدين الإسلامي بالدين العربي المبين "[1]. وبصدد العلاقة بين المسلمين والمسيحيين وما تتعرض له هذه العلاقة من حملات الغرب كان يرى أن الحق هو

---

[1] حاضر العالم الإسلامي ـ مصدر سابق – جزء 1 ـ ص 156

الذي يجب أن يؤخذ معياراً للميل فيقول " فأي حق أعظم من ارتباط المسيحي بالمسلم في البلاد العربية بالجامعة اللغوية والرابطة الوطنية والمنافع المادية المشتركة ويضيف قائلاً كنا نجتمع في الآستانة مسلمين ومسيحيين فإذا دخل علينا تركي عددناه غريباً وأمسكنا أمامه عن الكلام "[1] وما حفلت به تجربة الأمير شكيب أرسلان تظهر بوضوح أنه لم يكن يدعي العصمة وكان على يقين بأن من يعمل يخطئ، وهذا حال رجال السياسة غير أن الشجاعة تتجلى في الرجوع عن الخطأ إلى جادة الصواب. وثمة من يرى ممن كتبوا عن الأمير " أنه عاش حياته لغرضين اثنين، عمل لهما خلال أربعين سنة ما استطاع أن يعمل، وهو موزع القلب بينهما: الجهاد الأدبي في سبيل التراث العربي، والجهاد السياسي في سبيل الأمة العربية الإسلامية، ولو خصّ الأمير شكيب نفسه بالبيان وحده وانصرف إلى الشعر والنثر والتأليف في التاريخ الإسلامي لكان نادرة الزمان وواحد العصر، ولو خص نفسه بالسياسة وحدها لكان زعيم البلاد العربية والإسلامية وحده لا ينازعه في المنصب والمقام منازع "[2].

كما أشار الأدباء والعلماء إلى آثاره وكتبه، فرأوا فيه: " محققاً لتراثنا القديم عاملاً لتحقيقه ونشر روائعه وكنوزه، على سبيل جميل، وحب صادق، وعرفوا فيه مترجماً معرّباً، ينقل آداب الغرب ببيان حلو، وعرض متسق، وعرفوه مؤرخاً محباً للحقيقة، يكتب في أيام العرب بالأندلس، وفرنسا، وسويسره، وإيطاليه. وفي غزواتهم، وفتوحاتهم. وعرفوه زعيماً مصلحاً يدافع عن مبادئ الإسلام وحضارة العرب فيما ألّف وترجم وعرفوه صحفياً يملأ أنهار الصحف العربية والفرنسية. ومراسلاً وفياً لكل متظلم، أو سائل من بلاد العرب، والإسلام، يمطره برسائله، حتى لكأنه جماعة في فرد وأمة في رجل "[3].

---

[1] د. محمد شفيق شيا – شكيب أرسلان مقدمات الفكر السياسي – مصدر سابق ص 217

[2] المصدر السابق ص351

[3] المصدر نفسه ص366

وبكلمة كان شكيب أرسلان شاهداً على عصره، وشكّل في تاريخ الفكر السياسي العربي ظاهرة استثنائية، جديرة بأن يعود إليها الباحثون من حين لآخر، فالمعرفة رحبة، وتتكون عبر التاريخ من خلال إمكانات الأفراد. تتوارثها وتستلهمها الأجيال المتعاقبة، لقد تفرّد الأمير بطاقة على العمل، وبقدرة على التبصر والتفكير السليم والرؤية الاستراتيجية؛ سوغت القول بأنه المفكر ـ الظاهرة، وقد حسم في نفسه جملة شواغل، ونوازع، وميول هي من طبيعة الكائن الإنساني. ووهب هذه النفس بكليتها لقضايا أمته. ولم يترك من أجل هذه الغاية ميداناً، إلا صال فيه وجال، ولا أغفل محفلاً يتمكن من الوصول إليه إلا قصده، ليسجل موقفاً يعلّل فيه حق أمته بالحرية والسيادة والتقدم والوحدة.

عاش الأمير نصف عمره منفياً، وعاش عمره كله مجاهداً، متفانياً في خدمة الرسالة التي آمن بها، وشأنه شأن المفكرين العظام، فقد جسد في سلوكه صدق التجربة، والحرص على التواضع، ولم يدّع الكمال، ولم يتردد في التراجع عن موقف ثبت بطلانه، وكان على يقين بأن النجاح والإخفاق وقف على حكمة الناس وتبصرهم وإرادتهم.

لقد حلم شكيب أرسلان بالحرية، وكان أحد جنودها، ولم يهدأ له بال حتى تحقق ذاك الحلم. فحط عصا الترحال راجعاً إلى بلاده، والسكينة تملأ جوانحه، وذلك في 30 تشرين الأول عام 1946، واستقبلته أمواج من المحبين، والمعجبين، تغمرهم السعادة بعودته إلى وطنه. وشاء طالع الرجل أن يقضي أربعين يوماً في وطنه، متع نظره خلالها بلقاء والدته، وروى غليل نفسه بلقاء أصحابه وأقاربه، وشفى ألم قلبه بالنظر إلى الربوع التي عشقها. ولكن لم يطل به المقام حتى أصيب بنزف دماغي، وبدا وكأنه عاد ليموت ويدفن في ثرى الأرض التي أحبها. فقد توفي بعد شهر وبعض الشهر من تاريخ عودته، وذلك في 9 كانون الأول، وسار رئيس جمهورية لبنان الشيخ بشارة الخوري في مقدمة مشيعيه، والدمع يترقرق من عينيه ذاكراً يد الفقيد في إعادة والده من المنفى

وإنقاذه من حبل المشنقة. وقد أقيمت حفلات تأبين له في المشرق وفي المغرب العربي، وفي معظم البلدان الإسلامية، واشترك ممثلون من الهند وإندونيسيا، وأفغانستان، ودول البلقان، وأمريكا اللاتينية في تأبينه وذكر الشيخ بشارة الخوري بموقف الأمير من إقامة الجامعة العربية في ذاك التأبين قائلاً: " فرحت لجميع البلاد العربية إذ وجدتها متآخية في جامعة سعيت لها طوال حياتك فتحققت بها أمانيك ومساعيك "[1].

وقد رثاه الشاعر سلامة عبيد بقوله:

قضى من تحدى الدهر دهراً فما انثنى ولا هادنته أو تراخت نوائبه

سعى طالباً حق الحياة لقومه وموج المنايا دون ما هو طالبه

فما انفك حتى حصحص الحق وانبرت زلالاً لأقوام عطاش مشاربه

فنام قرير العين في ظل موطن تقلص عنه نيره وأجانبه

ورثاه أيضا الشاعر خليل مطران قائلاً:

العالم العربي من أطرافه بادي الوجوم منكس الأعلام

أشكيب حسب المجد ما بلغته شرقاً وغرباً من جليل مقام

في كل قطر للعروبة خلدت ذكراك بالإكبار والإعظام

كانت حياتك دار حرب جزتها فاستقبل النعمى بدار سلام

وما تزال صفحات من تاريخ هذا الرجل، الذي وصف بأنه أمير السيف والقلم مخبوءة في متون رسائل وآثار لم يكشف عنها النقاب، ولم تصل إليها

[1] محمد علي الطاهر ـ مصدر سابق ـ ص143

أقلام الباحثين، وليس من المبالغة أو الشطط القول إنه من الصعوبة بمكان أن يحيط بآثاره بيان، أو يفيه حقه لسان. فلا يختلف اثنان حول أهمية أفكاره اليوم، وجدوى واقعيته السياسية وتحليله العلمي للمسائل والتحديات الشاخصة أمامنا. ولا تزال الحلول التي طرحها منذ نصف قرن ويزيد، هي الحلول عينها، التي يدعو إليها المفكرون العرب المعاصرون، فالدعوة إلى التقدم العلمي، وامتلاك ناصية التنمية والتصنيع، بما في ذلك تصنيع الأسلحة، وإقامة صروح الثقافة والإعلام، وبناء دولة عربية إسلامية منيعة الجانب وتسنُّم معارج الرقي الإنساني والحضاري، تلك هي أبرز اتجاهات الأمير شكيب أرسلان الفكرية، والسياسية، التي وهب لها حياته، وقضى من أجلها.

مؤلفات الأمير:

أولاً: الكتب والتحقيقات والترجمات

1- " الباكورة "- نظم الأمير- المطبعة الأدبية- بيروت - 1887 وهو ديوانه الشعري الأول - في92صفحة.

2- الدرة اليتيمة لابن المقفع - تحقيق وتصحيح الأمير - المطبعة الأدبية - بيروت1893 - ومطبعة الجامعة1897 - والقاهرة1910 - في110 صفحات.

3- آخر بني سراج - رواية من تأليف شاتوبريان عربّها الأمير وأضاف إليها ملحقاً من ثلاثة أقسام:

- خلاصة من تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة - بقلم الأمير.
- أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر - لمؤلف مجهول شهد وقائع سقوط الأندلس - تحقيق الأمير.
- إثارة تاريخية سلطانية صادرة عن أبي الحسن علي بن أبي النصر بن أبي الأحمر والد أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة - تحقيق الأمير - المجموع في 415صفحة - الأهرام1897 - والمنار1925. وقد طبع بعض أقسام هذا الكتاب في طبعات حديثة عن دار مكتبة الحياة - بيروت.

4- المختار من رسائل أبي اسحق الصابيء - تحقيق وتقديم الأمير - الجزء الأول - بعبدا - لبنان1898 - في286صفحة، وقد طبع في طبعات حديثة عن دار النهضة الحديثة - بيروت.

5- " مظفر باشا " - الاسكندرية1907 - دون ذكر للمؤلف - وهو منسوب للأمير من عدة مصادر موثوقة.

6- إلى العرب: بيان إلى الأمة العربية عن حزب اللامركزية الآستانة1914 - (وهو كراس صغير).

7- حاضر العالم الإسلامي ـ تأليف لوثروب ستودارد ـ ترجمة عجاج نويهض ـ تعليقات الأمير على الكتاب موسوعة كاملة ـ أربعة أجزاء ـ المطبعة السلفية بمصر 1925 ـ في 1588 صفحة (طبعة جديدة ـ دار الفكر ـ بيروت ـ 1974 - في مجلّدين).

8- مطالعات في اللغة والأدب ـ مقالات لخليل السكاكيني مع ردود للأمير عليها ـ القدس 1925 ـ في 176 صفحة.

9- المسألة السورية ـ المحادثات مع دوجوفينيل في باريس ـ نشر اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري ـ الفلسطيني ـ القاهرة 1926 ـ في 116 صفحة.

10- أناتول فرانس في مباذله ـ تأليف جان بروسون ـ مع كتاب لنقولا سيفور في أناتول فرانس ـ الترجمة والتعليقات للأمير ـ المطبعة العصرية بمصر 1926 ـ في 310 صفحات.

11- لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم؟ ـ مطبعة المنار 1931 ـ في 284 صفحة.

12- الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف (166 صفحة ـ مطبعة المنار ـ سنة 1931).

13- محاسن المساعي في مناقب أبي عمرو الأوزاعي ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ 1933 ـ في 166 صفحة.

14- تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي سنة 1933 في 307 صفحات طبع طبعات جديدة وآخرها 1979 في بيروت ـ دار مكتبة الحياة.

15- ديوان الأمير شكيب أرسلان ـ وقف على ترتيبه وطبعه السيد رشيد رضا ـ مطبعة المنار - 1935 ـ في 205 صفحات.

16- روض الشقيق في الجزل الرقيق ـ وهو ديوان أخيه نسيب ـ قدم له في 105 صفحة من أصل 276 صفحة ـ مطبعة ابن زيدون ـ دمشق - 1935.

17- تاريخ ابن خلدون ـ تعليقات الأمير على الجزء الأول والثاني ـ مطبعة النهضة بمصر 1936 ـ في 405 صفحات.

18- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ـ المطبعة الرحمانية بمصر ـ 1936 ـ في 3 أجزاء ـ في 1379 صفحة ـ وطُبع طبعات جديدة آخرها 1980 في بيروت ـ دار مكتبة الحياة.

19- شوقي أو صداقة أربعين سنة ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي سنة 1936)- 347 صفحة.

20- السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة ـ مطبعة ابن زيدون ـ دمشق 1937 ـ في 811 صفحة.

21- سيرة ذاتية ـ نشرتها دار الطليعة ببيروت عام 1969 ـ والأرجح أنها كتبت عام 1931 في جنيف، ويوجد منها عدة نسخ مخطوطة لدى أكثر من شخص. (292 صفحة).

22- " مختارات نقدية في اللغة والأدب والتاريخ " ـ جمعها وقدم لها سعود المولى ـ دار الكلمة ـ بيروت 1982 ـ (في 244 صفحة).

23- " القول الفصل في ردّ العامّي إلى الأصل " ـ هذه الرسالة كانت مخطوطة ومؤخراً نشرتها الدار التقدمية ـ المركز الوطني للمعلومات ـ بيروت 1989 - (تحقيق وتقديم الأستاذ محمد الباشا).

ثانياً: الرسائل والمقالات والمحاضرات والمقدمات:

1. رسالة الأمير إلى الشريف علي ابن الشريف حسين حول "الثورة العربية" والمؤامرات البريطانية ـ الفرنسية — الصهيونية ـ نص الرسالة ورد في كتاب

الخوري لطف الله نصرا "الحرب الكونية" ـ صححه وطبعه الخوري ثابت الديراني ـ بدون تاريخ أو مكان النشر ـ والأرجح أنه عام1919 ، أما الرسالة فالمرجح أنها نُشرت عام1915 جريدة الشرق في دمشق ـ الرسالة ، صفحات512 إلى 522من الكتاب المذكور.

2. مجموعة مقالات بالألمانية صدرت عامي1917- 1918 وهي :

أ- "Das Osmanische Reich" في مجلة : Suddcutsche,Monatshefte عددتموز1918 ـ صفحات235- 240 وهي تتحدث عن عظمة الامبراطورية العثمانية وكفاءتها في أن تكون شريكة في مصاف الدول العظمى.

ب- "Die Araber und die Englander" في مجلةDer Neue Orient العدد الأول ـ نيسان ـ أيلول1917 ـ ص263- 266. وهي تتحدث عن المخططات البريطانية والحليفة للنظام العثماني.

ج- "Was syrien vom Krieg erwartet" ـ المصدر نفسه ـ العدد الثاني ـ تشرين الأول1917 ـ آذار1918 ـ ص6- 9.

د- Die Neuen intrigen der Entente in Syrien ـ المصدر نفسه العدد ـ ص399- 401.

3. " كوارث سورية في سنوات الحرب" ـ مجلة المنار ـ القاهرة ـ المجلد23 ـ لعام1922 ـ الصفحات121 ـ 134و202- 212 و290- 299 و373- 382 و459- 466.

4. أعمال الوفد السوري ـ الفلسطيني ـ وهو يضم البيانات والمذكرات والمطالب التي قدمها الأمير إلى جمعية الأمم في جنيف ـ المطبعة السلفية ـ مصر1923 ـ في152صفحة.

5. "المعارضة السورية للحكم الفرنسي" ـ بالإنكليزية ـ في مجلة Current History and forum عدد أيار1924 ـ صفحات239- 247.

6. سورية الشهيدة ــ تقرير إلى اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري - الفلسطيني - المطبعة العربية - مصر 1925 - في 36 صفحة.

7. مقدمة لكتاب جمال الدين القاسمي : " قواعد التحديث في فنون الحديث" - دمشق 1925 - في 4 صفحات.

8. مقدمة لكتاب عبد القادر المغربي : "البيّنات في الدين والاجتماع والأدب والتاريخ " — الجزء الأول - القاهرة 1926 - في 10 صفحات.

9. مقدمة بالفرنسية لكتاب أدمون رباط : " التطور السياسي لسورية تحت الانتداب " — باريس 1928 - في 20 صفحة.

10. " ما وراء الأكمة" ــ و- "التاريخ لا يكون بالافتراض ولا بالتكهن" ــ ضمن كتاب مصطفى صادق الرافعي : " تحت راية القرآن ، المعركة بين القديم والجديد " - الطبعة الأولى - مصر 1929.

11. مقدمة لكتاب محمد أحمد الغمراوي : النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي - المطبعة السلفية 1929 - في 56 صفحة.

12. الصفحات 31- 39 و87- 96 (من الطبعة الرابعة 1956).

13. الأستاذ الإمام محمد عبده ــ في كتاب محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ــ وهو في 3 أجزاء ــ القاهرة 1931 ــ المقال في الجزء الأول ــ صفحات 399- 412.

14. لايمكن لأية دعاية في العالم أن تشوه صورة إنسان ــ بالفرنسية ــ المطبعة الوطنية في آن ماس- 1936 - في 36 صفحة.

15. الوحدة العربية ــ محاضرة للأمير في النادي العربي بدمشق ــ في 20 أيلول 1937 - مطبعة الاعتدال - دمشق 1937 - في 32 صفحة.

16. النهضة العربية في العصر الحاضر - محاضرة للأمير في المجمع العلمي العربي بدمشق - تشرين الأول 1937 - ا جريدة 'الجزيرة دمشق 1937 -

17. "رسالة البلاشفة" ـ لم نعثر على هذا الكتاب رغم ورود ذكره في عدة مصادر منها حديث الأمير عن تصحيحه لأصوله من المطبعة(في رسالة له إلى رشيد رضا مذكورة في كتابه عن السيد رضا). ولعل أصول الكتاب لم تطبع بعد ذلك أو أنها ضاعت علماً أن جريدة الفتح نشرت منه بعض الفصول.

18. " رسالة رحلة ألمانيا " ـ وهو أيضاً مما لم نعثر على أية نسخة مطبوعة له رغم ورود ذكر هذا الكتاب في أكثر من مصدر.

19. مجلة الأمة العربية ــ بالفرنسية لاناسيون آراب ــ صدرت من آذار1930وحتى كانون الثاني1939 ـ وغالبية ما نشر فيها من كتابة أو تأليف أو ترجمة أو تحرير الأمير شكيب، والبعض القليل لغيره ـ وقد أعيد طبع جميع الأعداد في لندن.

20. عام1937 أهدى الأمير مجموعة من عشرين ألف ورقة إلى نظارة الخارجية السورية، هي حصيلة مراسلاته ومرافعاته أمام عصبة الأمم في جنيف خلال سنوات23- 36.

21. " عروة الاتحاد بين أهل الجهاد " ـ مقالات كتبها الأمير لجريدة العلم العربي في الأرجنتين ـ جمعها ونشرها صاحب الجريدة عبد اللطيف الخشن ـ آب1941 ـ صدر منها الجزء الأول في252صفحة ولم يصدر غيره.

22. مقالاته المنشورة في مئات الجرائد والمجلات. منذ أول مقالة له في الأهرام(1887)وحتى آخر مقالة في جريدة الاستقلال ـ الأرجنتين ـ في10تشرين الثاني1946.

23. وصية الأمير شكيب للبنانيين ـ وهي عبارة عن رسالة كان قد أرسلها إلى صديقه وهبه طليع عام1925 ـ منشورة في: " أوراق لبنانية " ـ بيروت ـ 1956 ـ الصفحات337 ـ 342.

24. مقدمة لكتاب محمد حسين آل كاشف الغطاء ـ " أصل الشيعة وأصولها " ـ والأرجح أن الطبعة الأولى للكتاب صدرت عام (1350هـ)(1931-1932م)، وقد طُبع منه عشرات الطبعات في بيروت والنجف ـ في الطبعة العاشرة ـ 1958 مقدمة الأمير ص51- 52.

25. نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان والحاج عبد السلام بنونة ـ نشرها الطيب بنونة – طنجة 1980.

26. رسالة إلى أكرم زعيتر نشرها هذا الأخير ضمن كرّاس بعنوان –" الحكم أمانة "المكتب الإسلامي- بيروت- 1980 ـ وأعيد نشرها في مجلة الفكر العربي ـ معهد الإنماء العربي ـ بيروت ـ السنة الثالثة ـ العدد23 ـ الصفحات240- 248 مع مقدمة وتعليقات على النص وضعها سعود المولى.

27. "رسالة تاريخية للأمير شكيب حول محاولة فرنسا إخراج البربر من الإسلام " نشرها أكرم زعيتر في جريدة تُهامة الصادرة في المملكة العربية السعودية ـ 16أيلول1983.

28. الخديوي عباس حلمي: البارحة واليوم ـ مقالة للأمير في مجلة العرب ـ فلسطين ـ العدد15 ـ 3كانون الأول1932 ـ أعاد نشرها الأستاذ عادل نويهض ـ في كتاب الأنباء" الأمير شكيب أرسلان وتحديات عصر النهضة "، (عدد خاص من جريدة الأنباء بمناسبة الذكرى الثانية والأربعين لوفاة الأمير)، بيروت1989 ـ الصفحات52- 53- 54.

مخطوطات لم تنشر:

ورد ذكر هذه المخطوطات في مقابلة خاصة مع المرحوم عجاج نويهض ـ مجلة الوحدة ـ بيروت ـ العدد3 ـ 1980 ـ وفي كتاب أحمد الشرباصي. " شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام.. ".

وفي مقالات وكلمات متفرقة وردت لدى محمد علي الطاهر ـ في كتابه "ذكرى الأمير شكيب":

1- بيوتات العرب في لبنان، (علمنا مؤخراً بوجوده لدى أحد المشايخ الفضلاء في الجبل).
2- البيان عما شهدت بالعيان ولعل ذكرياته عن الحرب العالمية الأولى.
3- تاريخ بلاد الجزائر.
4- ما لم يرد في متون اللغة.
5- حياة شكيب بقلمه. ولعله كتاب "سيرة ذاتية" المنشور حديثاً.
6- بحث عن طرابلس وبرقة.
7- الحلة السندسية في الرحلة البوسنية.
8- اختلاف العلم والدين(ترجمة).
9- مدينة العرب.
10- الجيش المعبأ في تاريخ أوروبا.
11- قضيتنا مع سمو الخديوي لعلّه الخديوي' عباس حلمي.
12- تاريخ لبنان.
13- إصلاح العامية.
14- التعريف بمناقب سيدي أحمد الشريف(السنوسي المجاهد الليبي المعروف).
15- الفوضى الإسلامية والوحدة الإسلامية وما جنته على المسلمين الإسلامية
16- لطف العسلوج في وصف الماء المثلوج بجوار البيت المحجوج.
17- الحجر الكريم فيمن ولد من العلماء بثريم.
18- الديانة في ألمانية.

19- سيرة صلاح الدين الأيوبي.

20- العقد الثمين فيمن من العلماء تجاوز الثمانين.

21- الإسلام في المستعمرات الأوربية.

22- الحرب العامة الأولى.

23- دليل العالم الإسلامي.

24- الجزء الثاني من رسائل أبي إسحق الصابي. ومعظم هذه المخطوطات موجود في المكتبة الخاصة بالملك المغربي الحسن الثاني، أو موزعة لدى العديد من أبناء الجبل في لبنان وحوران».



رشيد طليع

رشيد طليع والكفاح من أجل الحرية والاستقلال

الميلاد والنشأة

وُلد رشيد طليع في جديدة الشوف في لبنان عام1876، ونشأ في أسرةٍ دينية عريقة، فقد تقلّد جدّهُ وعمّاه منصبَ مشيخةِ العقل، لأكثر من مئة عام. وكان والدهُ كاتباً في إدارة متصرّفيّةِ جبل لبنان. وقد تلقّى رشيد علومه الابتدائية في مدرسة القرية، ثم انتقلَ إلى المدرسة الداوودية في بلدة عبيه. وظهرت عليه علائم النبوغ المبكر، وحظي بمحبة زملائه، وتقدير معلميه، ووصفهُ أحد زملائه في المدرسة الداوودية المؤرخ عجاج نويهض بقوله: "كان نقطة البيكار في المدرسة، نسيج وحده في الألمعيةِ، والذكاءِ، ودماثةِ الخلق، وطيب العشرة "[1].

بعد تخرّجه من مدرسةِ عبيه انتقل إلى بيروت وأنهى دراسته الإعدادية فيها، ثم سافر إلى الأستانة، موفداً من قبل الدولة العثمانية حيث التحقَ بمعهد الإدارةِ هناك وتخرّج من ذاك المعهد سنة 1900، وعادَ إلى بيروت في العام نفسه ووظف " مأمور معية لولاية سورية " وبقي في عمله ثلاثَ سنواتٍ ثم عُيّن وكيلَ قائمقام بعلبك لمدة عام، ثم أصبح قائمقام الزبداني عام 1905، فنقل منها إلى قائمقامية راشيا عام1906، ومن ثم الى حاصبيا، وبقي فيها ثلاث سنوات، وبعدها انتقل إلى جبل العرب، ليمارس المهمة ذاتها في بلدة عريقة في جبل حوران عام

---

[1] أمين طليع ـ الشهيد رشيد طليع ـ بيروت — 1982ـ ص 9

1911، وقد أسهم من خلال موقعه في تخفيف مظالم الأتراك بعد سامي باشا الفاروقي، وتوسّط لدى الآستانة لعودة المنفيين ولرفع الحيف عن عدد من الذين لحق بهم الأذى.

انتقل بعدئذ إلى بلدة المسمية من أعمال محافظة حوران، وخلال ذلك ظهرت مواهبه الإدارية، فقد جمع إلى الحنكة والمرونة، المتانة الأخلاقية، والمقدرة العلمية والقانونية، وسرعان ما أصبح في الجبل، وحوران، مرجعاً يؤمّه القصّاد من كل فجٍ وصوب، يسألونه الرأي والمشورة فيما يتخطّى نطاقَ عمله. ومن الجدير ذكره أنه حرص على عقد صلات وثيقة مع وجهاء القرى، والمستنيرين من الشباب آنذاك، وسوف يكون لذلك أثره في التحاق هؤلاء بالثورة السورية حين نشوبها. كما أهّلته ثقةُ أبناء الجبل التي تمتّع بها أن يرشحَ نفسه لعضوية مجلس المبعوثان في الآستانة، فتم اختياره ممثلاً للجبل وحوران عام1914، وأصبح متصرّف لواء حوران حتى شهر آب من العام ذاته. ولعل انتقاله من قائمقامية إلى أخرى، يشير إلى طبيعة العمل في الدولة العثمانية إبان تلك المدّة، الذي تميّز بعدم الاستقرار. كما يشير من جهة أخرى إلى سمات رشيد طليع القيادية وكفاءته في إدارة شؤون الناس. بحيث لم تستطع الدولة العثمانية أن تستغني عنه.

رشيد وسلطان الأطرش

خدع سامي باشا أبناء الجبل حين تعهد بالحفاظ على أمنهم إذا لم يعترضوا القوات العثمانية، فدخلت القوات العثمانية السويداء دون قتال سنة 1910، فنّكل سامي بالناس الآمنين بطريقة غادرة، وارتكب المذابح في السويداء، وبعض القرى التي أحرقها ودمر بيوتها، واعتقل أبرز زعماء الجبل آنذاك ونصب لهم المشانق، وبين هؤلاء ذوقان الأطرش، والد سلطان الذي عاد من الأناضول إثر ذالك الحدث، منهياً خدمته العسكرية، التي سيق إليها عنوة.

كان رشيد طليع إبان تلك المدّة في درعا قاعدة متصرفيّة حوران، وسرعان ما تعرفّ سلطان الأطرش، ونشأت بينهما علاقةٌ مميزة وحميمة، تجسّدت عبر الرؤية المشتركة لمسائل السياسة، والتعاون المشترك لحل المشكلات الاجتماعية، وفض الخلافات التي تقع بين الناس. وخير شاهد على ذلك ما ورد في مذكرات سلطان الأطرش حول الخلاف الذي نشب على الأرض بين أهالي القريّا وأهالي بصرى، حيث قال: " ذهبت ذات يوم لمقابلة المتصرف رشيد طليع ومراجعته بخصوص الأرض المختلف عليها، فوعد خيراً ثم برّ بوعده، بعد إن بذل جهداً كبيراً في إقناع والي الشام، بتعيين الأمير علي الجزائري وسيطا، فكان التوفيق حليفه إذ حسم الخلاف القائم بمساعدة المتصرف وبتعاوننا مع الجميع "[1] ومنذ تلك الواقعة، ظل التعاون والثقة المتبادلة، سمة ثابته بين سلطان الأطرش ورشيد طليع.

أصبح رشيد عام 1916م متصرفاً لطرابلس الشام، وهناك أخذ يتردد إلى مجلسه الأدباء والمثقفون، ومن طرائف تلك الحياة الأدبية الغنية التي شهدها مجلسه أن شخصاً من آل اليازجي وهو شاعر وأديب، افتقر ذات يوم إلى صفيحة من الكاز لينيرَ بيته، فكتب إلى رشيد رسالةً أنهاها بهذا البيت من الشعر:

أُتطفأ نارُ اليازجي غضاضةً ونورُ طليعٍ في البلاد طليعُ[2]

ولم يتأخر على اليازجي نورُ طليع فأضاء بيته.

وفي عام1918 عُين رشيد متصرفاً للواء اللاذقية، وكان صيتُه قد سبقه إليها، وعلى الرغم من أنه بقي في اللاذقية مدة قصيرة، إلاّ أنه ترك فيها أثراً لا يُمحى، وحول هذا الأثر يقول محمد الشريقي، وهو من أبناء اللاذقية المتنورين،

---

[1] أحداث الثورة السورية الكبرى كما سردها قائدها ـ دمشق – دار طلاس – 2007 – ص120

[2] أمين طليع ـ مصدر سابق ـ ص 14

وأحدُ رجال القضية العربية : " كانت سيرةُ رشيد طليع في اللاذقية مضمّخة بالطيوب، وكان أحرار العرب وقادة حركاتهم السرية يعلمون أيّ عنصر ينطوي عليه خلق هذا المتصرف، وأيّة كفاءةٍ يتمتّع بها "[1]. لقد توثقت علاقة رشيد بالشيخ سليمان الأحمد والد الشاعر المعروف محمد، الملقب ببدوي الجبل، وقد أعجب رشيد بالفتى محمد، وحين أصبح رشيد متصرفاً في حماه، آثر أن يصطحبه معه، كما رافقه إلى دمشق لمتابعة دراسته.

رشيد طليع والحكومة العربية:

باشر العثمانيون الانسحابَ من سورية. إثر هزيمتهم بعد الحرب العالمية الأولى. وقرر الحلفاء في مؤتمر سان ريمو وضع سورية تحت انتداب فرنسا وذلك في 24 نيسان 1920، وأُبلغت الحكومة السورية هذا القرار ببرقيتين إحداها على شكل بلاغ، والثانية على شكل رسالة موجهة إلى فيصل. وجاء في البلاغ: " إن الحكومة الفرنسوية مُشيرة من جهة إلى بلاغاتها السابقة، ومن جهة أخرى إلى المبادئ العمومية لتحرير الشعوب، والمعاونة الودية التي أعلنها مؤتمر الصلح، تؤكد اعترافها بأن للأهالي المتكلمين باللغة العربية من جميع المذاهب، والساكنين في القطر السوري الحق أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم بصفة شعوب مستقلة، وهي ترى من واجباتها أن تقبل المهمة، التي عهد بها إليها مؤتمر الصلح لإعطاء هؤلاء الأهالي مشوراتها، ومساعداتها لتحقيق أمانيهم المشروعة وجعلهم ينتظمون أمماً، وهذه المساعدة لا بد منها بعد استعباد طويل، وخروج من حرب تركت البلاد خراباً، وتضمن الحكومة استقلالكم ضد كل اعتداء ضمن الحدود التي يعينها مؤتمر الصلح"[2]. أما الرسالة إلى فيصل فقد وجهها

---

[1] نجيب البعيني – رجال من بلادي – بيروت ـ مؤسسة الريحاني، عام 1984، ص 79

[2] ساطع الحصري – يوم ميسلون – بيروت – بلا تاريخ – ص 290

الجنرال اللنبي وقد جاء فيها " نتيجة القرارات التي اتخذها الحلفاء أخيرا في سان ريمو، قد تم الاعتراف بسورية والعراق دولتين مستقلتين على شرط أن تتناولهما مساعدة دولة منتدبة، إلى أن يحين الزمن الذي تستطيعان فيه الوقوف وحدهما. وقد أودعت مهمة الانتداب على سورية إلى فرنسا وأودعت مهمة الانتداب على العراق إلى إنجلترا، كما أن الأخيرة قد سُميت منتدبة على فلسطين أيضا. إن الزمن قد حان للوصول إلى ترتيب تأتلف به مطالب الشعب السوري مع هذه القرارات.."[1]. ويبلغ اللنبي فيصلاً بأن قضية البت في مسألة ملكيته على سورية بصورة رسمية تنحصر بمؤتمر الصلح، ويدعوه لحضور هذا المؤتمر لمنحه الفرصة اللازمة لبسط القضية بكل تفاصيلها. لقد كان على فيصل أن يفهم ما بين سطور تلك الرسالة، وأن يدرك جوهر مقررات مؤتمر سان ريمو، وتناقضها مع الاتفاقات التي عقدها الحلفاء مع والده، وقد اقتربت جيوش الحلفاء من حدود سورية بقيادة الجنرال البريطاني اللنبي لتنفيذ مقررات سان ريمو.

آثر فيصل أن يتوجه إلى دمشق بعد أن علم بتحرك الجنرال اللنبي.. ووضع نصبَ عينه دخولها، قبل دخول القوات الإنجليزية إليها، ومهّد إلى ذلك بإقامة صلات مع الوطنيين من أبناء سورية لتحقيق هذا الهدف، "وقد تلّقى منه سلطان الأطرش كتاباً يخبره فيه عن خططه، وعن حرصه على دخول بلاد الشام، باسم الحكومة العربية قبل دخول الحلفاء، ويطلب منه الدعم والمساندة، فاستجاب سلطان سريعاً، ولبى نداء فيصل، وشد أزره وتمكن من دخول دمشق، على رأس كوكبة من فرسان الجبل قبل وصول فيصل" [2].

وما إن وصل فيصل، حتى وجد تلك الكوكبة ترفع العلم العربي في سماء سورية. اجتمع حول فيصل أبرز أنصار جمعية العربية الفتاه، التي انبثق منها

[1] ساطع الحصري – يوم ميسلون – بيروت.– بلا تاريخ – ص291
[2] أمين طليع – مصدر سابق – ص 15

حزب الاستقلال. وقام محمد الشريقي أحد أعضاء الحزب، بالحديث أمام أعضاء الحزب بحضور فيصل عما يعرفه عن رشيد طليع، الذي كان قد بارح اللاذقية إلى مسقطِ رأسه في لبنان، بعد هزيمة العثمانيين، حيث بقي مدة قصيرة في منجى من انتقام الفرنسيين، وبدأت مرحلةٌ جديدةٌ في حياته، وفي حياة المنطقة كلها. "واقترح الشريقي على فيصل دعوة رشيد طليع، للاشتراك في بناء الدولة العربية، لإيمانه بالقضية العربية، وللاستفادة من مواهبه الإدارية. وكُلِّف الشريقي بإبلاغه قرار الحزب ودعوته إلى دمشق"[1].

استجاب رشيد طليع لدعوةِ فيصل، وانهمك مع رجال حزب الاستقلال في العمل لتوطيد دعائم الحكم العربي. وسرعان ما أصبح طليع عضواً بارزاً في هذا الحزب، ونُدِبَ متصرفاً لحماة وحاكماً عسكرياً لها، لأن المنطقة هناك كانت في حالة غليان، وبحاجة مآسةٍ إلى من ينظمُ أمورها، وحرصَ رشيد على بعث الاستقرار في ربوع حماه، والأهم من ذلك أنه دعم ثورة الشيخ صالح العلي، وسعى إلى أن يتعاون الأمير فيصل مع الشيخ صالح " واقترح أن يشكل الأمير وفداً، وأن يكون محمد سليمان الأحمد " بدوي الجبل " في عداد الوفد، للتنسيق والتعاون بين فيصل وبين صالح العلي، وذلك لنجابة الفتى وعلو منزلة أبيه بين أبناء الساحل "[2].

نجح رشيد في حماة نجاحاً منقطع النظير، واستمال زعماءها على اختلاف مذاهبهم الدينية والسياسية. وتمكن من إقامة الجسور مع زعماء مختلف الفئاتِ الدينية والسياسية، ووضع هؤلاء في أجواء الحكم العربي المنشود فيها. وأصبح من أبرز الرجال الذين أحاطوا بفيصل. " وعندما ألف فيصلٌ حكومة مديرين

---

[1] أمين طليع – المصدر السابق ص 80

[2] سيف الدين القنطار – بدوي الجبل ـ محمد سليمان الأحمد – دمشق – وزارة الثقافة – 2000 – ص 23

برئاسته في 4 آب 1919 ، أُسندت إلى رشيد طليع وزارة الداخلية"[1] ، واستمر رشيد في إدارة الداخلية إلى أن بويع فيصل ملكاً على سورية باسم فيصل الأول في 8 آذار 1920 ، " فشّكل وزارة جديدة برئاسة رضا باشا الركابي "[2].

عيّنت الحكومة الجديدة رشيد طليع والياً على حلب وشمال سورية ، في اليوم الأول من تأليفها ، وخولته الوزارة الصلاحيات كافة بما في ذلك الصلاحيات العسكرية. معتمدةً على كفاءته ، وشجاعته ، وسلامة رؤياه. فلم يدّخر وسعاً في ترسيخ الحكم العربي ، ولم يتوانَ عن دعم ثورة إبراهيم هنانو ، وثورة العلي قبلها. وأسدى رشيد لكلا الثورتين خدماتٍ جُلّى على الرغم من مراقبة الفرنسيين الشديدة له ، وتتبعهم لحركاته ، " وعندما انهارت جبهة الشمال ، أمام حشود الجيش الفرنسي ، تخّلى رشيد عن عمله ، وغادر حلب مع مجموعة من رفاقه الوطنيين ، متجهاً نحو جبل حوران ، وبقي فيه مّدة من الزمن على الرغم من المؤامرات والمخاطر التي كان يضمرها الفرنسيون له ، ولغيره من السوريين ، خاصة بعد أن نسف بعض الوطنيين قطاراً قرب "بلدة خربة غزالة " من أعمال حوران ، وقتلوا رئيس الوزارة علاء الدين الدروبي ، وعبد الرحمن اليوسف رئيس مجلس الشورى في صيف 1920 ، اللذين كانا في القطار ، لتعاونهما مع السلطة الفرنسية بعد دخول الجيش الفرنسي إلى دمشق ، وترك هذا الحادث دويه الكبير في معظم أرجاء البلاد "[3].

---

(1) ضمت حكومة المديرين اسكندر عمون – للعدلية ، سعيد شقير ـ للمالية – اللواء ياسين الهاشمي لرئاسة الشورى العسكرية – ساطع الحصري للمعارف جبرائيل حداد ـ للأمن العام – المصدر نفسه ص 19

(2) تألفت حكومة رضا من علاء الدين الدروبي لرئاسة مجلس الشورى – رضا الصلح للداخلية – الفريق عبد الحميد قلطقجي للحربية – جلال زهدي للعدل – سعيد الحسيني للخارجية – فارس الخوري للمالية – ساطع الحصري للمعارف يوسف الحكيم للأشغال العامة المصدر نفسه ص 20

(3) نجيب البعيني مصدر سابق ـ ص 82

كان الصراع بين الملك العربي، وبين الفرنسيين على أشُدّه، وسقطت الحكومة العربية بعد دخول الفرنسيين، وتناهبت فيصلاً المواقف المتباينة للذين حوله، فمنهم من دعاه إلى ملاينة الفرنسيين، ومنهم من أراد مجابهة التحدي الفرنسي بالتحدي، وكان رشيد طليع من هذا الفريق. وبعد أن اهتزّ استقرارُ البلاد، وعمّها الاضطراب، إثر معركة ميسلون واستشهاد وزير الدفاع يوسف العظمة، ودخول الجيش الفرنسي سورية، وانتهاء الأمر إلى رحيل فيصل سنة 1921، انتقل رشيد طليع إلى الأردن.

رشيد طليع في الأردن:

انتقل مركزُ الأحداث إلى الأردن، بعد رحيل فيصل من سورية. وكان قد قدم إلى معان عبد الله بن الحسين في شتاء 1920، وراح يعلن بل يحلم باسترجاع عرش أخيه فيصل، والمضي قدماً لإقامة الإمبراطورية العربية، التي تعهد الإنجليز بإقامتها. وفي هذه الأثناء قدم تشرشل وزير المستعمرات البريطانية إلى المنطقة، واجتمع بممثلي بريطانيا في جميع أنحاء بلاد العرب، من اليمن جنوباً حتى العراق والكويت شمالاً. وكان من ترتيبات تشرشل في ذاك الاجتماع، السماحُ للأمير عبد الله بالبقاء في الأردن، باعتبار ذلك خير وسيلة لاستمرار النفوذ البريطاني. وربما فهم عبد الله ذلك فحاول أن يستقوي بالتيار التحرري، المتمثل بحزب الاستقلال. وقد ضمّ هذا الحزب كثيراً من الشخصيات العربية المستنيرة المناهضة للغرب، "كشكري القوتلي، وعادل أرسلان، والحاج أمين الحسيني، ورشيد عالي الكيلاني، وأحمد مريود، وإحسان الجابري، ونبيه العظمة، ورشيد طليع الذي أصبح فيما بعد رئيساً لهذا الحزب.[1].

[1] نجيب البعيني مصدر سابق - ص 83

فاوض الأمير عبد الله بعض هؤلاء الرجال على تأليف حكومة أردنية، فقبلوا التعاون مع الأمير، مدركين خطر تراجع الحلفاء عن الوفاء بعهودهم، متبعين سياسة "خذ وطالب". واستقر رأي الجميع على دعوة رشيد طليع، لتأليف هذه الحكومة، فلبى رشيد الدعوة، وألف في أوائل نيسان عام 1921، أول حكومة عربية استقلالية في شرق الأردن من أصلب الرجال عروبة ووطنية"[1] وقد سميت الحكومة بمجلس المشيرين – وهو مصطلح تركي – وتعمّد رشيد بذلك الابتعاد عن أبهة الوزارة ونفقاتها.

أصبحت الأردن آنذاك مسرحاً لنشاط دعاة الحرية والاستقلال، وبخاصة أعضاء حزب الاستقلال، ولكن لا بدّ من الإشارة إلى طبيعة الدور البريطاني، في أحداث تلك المرحلة، فلقد كانت سياسةُ البريطانيين ملتبسة، تمليها المصالحُ الاستعمارية للتاج البريطاني أولاً، والتواطؤ مع الحركة الصهيونية ثانياً، والوعود المعسولة للعرب من جهة ثالثة، وكانت بريطانيا تُنفّذ هذه السياسة بذرائعية ماكرةٍ، وضمن أولويات تتم التضحية فيها بمصالح الطرف الأضعف كلياً أو جزئياً. والطرف الأضعف في هذه اللوحة هو العرب. وقد حاول الساسة البريطانيون إبقاء الحبل ممدوداً بينهم وبين فريق من الوطنيين السوريين لتوظيف ذلك في التنافس مع فرنسا على النفوذ في المنطقة. ولم يكن دعاة حزب الاستقلال سذجاً إزاء ألاعيب السياسة البريطانية ومكائدها، إلا أنه لم يكن أمامهم خيارٌ آخر ضمن هذا المناخ إلاّ مدّ يد العون إلى الأمير عبد الله.

كان من الطبيعي أن يصطدم رشيدُ طليع وحكومته بالإنجليز، منذ الأيام الأولى لعمل تلك الحكومة. فحين أعلن المندوب السامي البريطاني في فلسطين

---

[1] ضمت الحكومة الأمير زيد بن شاكر لشؤون العشائر ـ الشيخ محمد خضر الشنقيطي – قاضي القضاة – مظهر رسلان – للعدلية والمعارف والصحة – علي خلقي للم – أحمد مريود – معاون لشؤون العشائر خير الدين الزركلي رئيس ديوان الوزارة –واحتفظ رشيد طليع بوزارة الداخلية أيضاً – المصدر نفسه ص 28

عزمه على زيارة الأردن، في السابع عشر من نيسان عام 1921، وإلقاء خطاب أمام أبناء الأردن، أصرّ رشيد على أن يطّلع على نص الخطاب. فباغتَ هذا الطلب المندوب السامي وملأ صدره غيظاً. وبعد مفاوضات صعبة وعسيرة، وافق الإنجليز على طلب رشيد، "وتم اجتماع بين المفوض السامي البريطاني ومعاونه ديدس، وبين الأمير عبد الله ورشيد طليع، وفرض رشيد بقوة الحجة. وسداد الرأي وجهة نظره. فحذفت المقاطع التي اعترض عليها وعدلّ بعضها الآخر"[1]. ولكن سرعان ما ظهر رد فعل الإنجليز، فبعد جولة تفقدية قام بها رئيس الحكومة شمال البلاد، وجد لدى رجوعه خياماً منصوبة لجنود بريطانيين قرب خيمة الأمير، وتجثم قربها طائرتان بريطانيتان، فثارت ثائرة رشيد، وطلب من المندوب السامي سحب الجند وإقلاع الطائرتين، ولكن الأمير عبد الله أبلغ رشيداً بالتغاضي عن الأمر، وبدأ يتضح لرشيد أن الأمير أقرب إلى تلبية مشيئة الإنجليز، أكثر من مشيئة رئيس وزرائه، وتجلى ذلك بصورة سافرة حين رفض الأمير إنشاء مجلس نيابي، لإشراك الشعب في الحياة العامة. فوقف رشيد إلى جانب المطالبين بالمجلس، وتم حل الأمر بتأليف مجلس، يُنتخب نصفه من الحواضر، ويُعين نصفه الآخر.

استمر الإنجليز في خلق المصاعب أمام حكومة رشيد، وضاقوا ذرعاً بنهجه في إدارة دفة حكمه، وصمّموا على الخلاص منه، ولجؤوا لتحقيق مآربهم إلى شكلٍ من أشكال الحصار الاقتصادي، فقرروا عدم دفع حصة الأردن من العائدات الجمركية، فطلب رشيد من الأمير عبد الله رفض ذلك، ولكن الأمير لم يحرك ساكناً، فقرر طليع معالجة الأمر بنفسه رغم معرفته التامة بما يضمر له الإنجليز من ضغينة، فالتقى في القدس هربرت صموئيل المندوب السامي البريطاني، غير أن اللقاء لم يكن مثمراً، وخرج منه طليع ساخطاً، " فوجه إلى

---

[1] أمين طليع – مصدر سابق – ص 29

المفوض السامي تحذيراً بوصفه رئيس حكومة مستقلة، بأنه إذا لم ينل الأردن حقه، فسيقطع العلاقات مع الدولة البريطانية، وسيطلب من المعتمد البريطاني مغادرة البلاد، فخشي المندوب السامي عاقبة الأمر، واتهامه بعدم الحكمة في إدارة دفة السياسة البريطانية، فسارع إلى إبلاغ رشيد بأن الأردن سينال حصته من العائدات الجمركية كاملة "[1].

لم يكن خافياً على الإنجليز، أن رشيد طليع يعبّر عن ظاهرة، تجسّد إرادة القوى الحيّة في الأمة، الراغبة في الانعتاق، والتحرر، والسيادة، وأيقنوا أن استمرار هذا النموذج من الرجال في ممارسة هذا النمط من الحكم، يهدّد مصالح الإنجليز، ويرمي إلى أبعد من الاكتفاء بالسيادة على قطعةٍ من الأرض العربية، فوضعوا نصب أعينهم تحريض الأمير عبد الله على رشيد، باعتبار ذلك أنجع السبل لإبعاده عن رئاسة الوزراء. وسعوا إلى زرع بذور الخلاف بين الأمير ورئيس وزرائه، وكثر تبرّمهم من رشيد، وتفننوا في الوشاية به. فتنامى لدى الأمير الشعور بعدم قدرته على إطفاء نار الحقد الذي يكنّه الإنجليز لرشيد، ونجح الإنجليز فيما رموا إليه، وتلّبدت سماء العلاقات بينهما بغيوم التباعد، وذات يوم وبينما كان رشيد طليع، وإبراهيم هنانو في مجلس الأمير عبد الله قال على أسماعهما: " أن وزير المستعمرات أبرق لحكومة فلسطين، معبراً عن استيائه من رشيد طليع، ووزرائه، فهذه الحكومة عدوة لحلفائهم الفرنسيين. وإذا لم يُستبدل رئيس الحكومة بسواه لن تقدم بريطانيا المساعدات للأردن "[2].
وفي حقيقة الأمر فلقد كان رشيد لا يتصدى للسياسة الإنجليزية فحسب، بل يدعم أبناء سورية في كفاحهم الوطني من أجل الحرية أيضاً مستفيداً من موقعه رئيساً للحكومة، وقد جاء في كتاب الجنرال الفرنسي أندريا " إن السلطة الفرنسية

---

[1] أمين طليع – مصدر سابق – ص 31
[2] المصدر نفسه – ص 33

صادرت خرجاً، كان على ظهر حصان، وجدت فيه رسالة من سلطان الأطرش إلى رشيد طليع، يطلب فيها مده بالمال ليدفع معونات الثوار الذين رافقوه "[1].

أكد رشيد للأمير أنه ليس ذاك الرجل، الذي تستعبده شهوة البقاء في الكرسي، ولا يغويه إغراء المنصب، بل كان يمارس الحكم، كمن يخوض معركةً مع عدوٍ يعرفه جيداً، فهو لا يطمع برئاسة حكومة؛ وهو مستعد للتخلي عنها كل لحظة، إذا اقتضت المصلحة الوطنية ذلك، أما أن يكون التخلي نزولاً عند رغبة الإنجليز فهذا شأن آخر! وقد لاحظ رشيد أن صلابة الأمير في مقاومة الإنجليز قد تلاشت، فقال للأمير: " إن وزير المستعمرات غير معني بهذا الأمر، بل المعتمد البريطاني في الأردن، هو من يستغل اسم وزير المستعمرات لتنفيذ مآربه، وإذا ما تحقق له ذلك، أيها الأمير! فسيأتي يوم تُفرض عليك الحكومات، وأسماء وزرائها فرضاً "[2].

كان رشيد من الجرأة والوضوح، بحيث لم يستطع الأمير عبد الله أن يعثر على الإجابة المناسبة، وأدرك رشيد أن أميره مغلوبٌ على أمره، فترك الحكومة غير آسف. وتركها أيضاً الوزراء الوطنيون أمثاله، وشعر أنه لم يعد لبقائه في الأردن معنى، ولا جدوى.

الانتقال إلى القاهرة

ترك رشيد الحكم في الأردن، ليصبح هذا البلد رهن إرادة الإنجليز تحت واجهة عربية، وانتقل إلى القدس ثم إلى رام الله، وترك فلسطين وتوجه إلى مصر، التي أصبحت آنذاك ملاذاً لرجال القضية العربية. وكان قد سبقه إليها عصبةٌ من دعاة الاستقلال، والحرية، منهم الأمير عادل أرسلان، وفؤاد سليم،

---

[1] الجنرال أندريا – تاريخ الدروز وتمرد دمشق – ترجمة حافظ ابي مصلح - دمشق ص 301 302
[2] المصدر نفسه ص 37

وخير الدين الزركلي وعبد المحسن الكاظمي، وتوفيق اليازجي، وأسعد داغر، وغيرهم، وقد التقوا في أرض الكنانة، ليتابع هؤلاء المنفيون نشاطهم، يوحّد بين عقولهم وقلوبهم هدفُ الحرية، والاستقلال، فراحوا يجتمعون، وأكثروا من اللقاءات والندوات السياسية، وظلوا يتعطشون إلى ثورة تروي ظمأهم، ويتطلعون إلى قبس ضوءٍ يأتيهم من بعيد، لينير لهم طريق الحرية. وكانوا على الدوام يتسقطون أخبار بلاد الشام، فسلطات الاستعمار هناك كانت تسوم الناس العسف، تاركةً لجندها الحبل على الغارب، ساعيةً إلى تمزيق وحدة الشعب وإذلاله، والقضاء على روح الصمود لديه. غير أن رشيداً ورفاقه كانوا على يقين أن شعبهم لا بد أن يثور على الظلم، وصدق حدسهم، فقد اندلعت آنذاك من جديد نيران الثورة، في جبل العرب عام1925 بمعركة الكفر، التي تمكن فيها الثوار بقيادة سلطان باشا الأطرش من الإجهاز على قوةٍ فرنسيةٍ بسرعةٍ خاطفة، فانتشرت أخبار هذا النصر، وتناقلته الصحف والإذاعات ووصل إلى أسماع رشيد وصحبه في أرضِ الكنانة، إذ نشرت الصحفُ المصرية بيان قائد الثورة في 23/آب/1925، بنصّه الكامل وقد جاء في مقدمته: " أيها السوريون العرب، باسمِ الوطن السوري المقدّس، وباسم استقلاله المبارك، أُحييكم وأحيّي فيكم العروبة الصادقة، والأنفة القومية، وأستصرخُ منكم أمةً عربية مشت على مناكب الدهر محمية الذمار، وأستنصركم لحومةِ الجهاد الوطني.. أناديكم من معاقل الجبل المنيع.. أن هبّوا إلى المنافحة عن وطنِ آبائكم وأجدادكم "[1]. وتحول هذا البيان إلى نداء موجّه للوطنيين كافة، كي يهبّوا لمؤازرة الثورة، واستجاب رشيد طليع لصوت النفير، وأخذ يعدّ العدة للاشتراك في الكفاح النوطني للشعب السوري، فرحلَ عن مصر ويمّم شطر فلسطين، وهناك تعددت اجتماعاته ومشاوراته، وفي أحد الاجتماعات أُقترح إنشاء حكومة للثورة، بهدف تأمين السلاح من هيئة رسمية، وانتقل سيف الدين

[1] أحداث الثورة السورية الكبرى كما سردها قائدها – مصدر سابق – ص 125

المأمون أحد أركان الجيش السوري سابقاً إلى فلسطين لبحث الأمر، فاجتمع بالشيخ كامل القصاب في حيفا، ثم انتقلا إلى رام الله، للاجتماع برشيد طليع وبعض الزعماء. " وجرى البحث، وتمّ الاتّفاق على تأليفِ حكومةٍ، تضمُّ ممثلين عن أنحاء سورية الطبيعية كلها، وكان في جملة أعضاء تلك الحكومة المقترحة: سلطان الأطرش، ورشيد طليع، وإبراهيم هنانو، وهاني أبو مصلح، ومحمد عز الدين الحلبي، وغيرهم من رجالات سورية، غير أن الأمير عادل أرسلان أقنع الزعماء بالتخلّي عن فكرة إنشاء مثل هذه الحكومة، تجنّباً لإثارة الخلافات داخل البلاد حولها[1]. ودعا رفاقه للالتحاق بالثورة، فكان فؤاد سليم أول الوافدين بعد أن كان قاصداً اليمن، وتلاه أحمد مريود الذي قدم من العراق، ووصل عادل أرسلان، وإبراهيم هنانو، وشكري القوتلي، وحمد صعب، وكثيرون غيرهم. وكان على رشيد طليع أن يتنكر بزي مهندس طلياني، مرخياً لحيته معتمراً قبعةً واضعاً على عينيه نظاراتٍ سوداء. وبهذه الصورة تمّكن من اجتياز الحدود الأردنية السورية وشرطتها من الإنكليز والعرب، واتّجه صوب الجبل بأمان، وليس هناك معطياتٌ تشير إلى زمن وصوله إلى الجبل، سوى ما كُتبَ في مذكّرات سلطان الأطرش حيث يقول " سمع رشيد صوت النفير فاخذ على الفور ما يمكن تدبيره للمساعدة، والاشتراك بالثورة، وتضيف المذكرات: " أنه بعد اجتماع بلدة ريمة الفخور، في أيلول عام1925، والدعوة إلى السلاح، بدأت النجدات تصل إلينا تباعاً من إخواننا، وكان على رأسهم عادل أرسلان، ورشيد طليع، والعقيد فؤاد سليم من لبنان، وقد أفادوا الثورة بخبراتهم ومؤهلاتهم العالية، واشتدّ أزرنا بهم، إثر انضمامهم إلى هيئة أركان القيادة العليا للثورة"[2].

---

[1] الجنرال أندريا ـ مصدر سبق ذكره — ص 90

[2] سلطان الأطرش ـ أحداث الثورة ـ مصدر سابق ـ ص 251

ويمكن أن نخمّن أن رشيد طليع ، قد انهمك في مهمات العمل القيادي للثورة وأصبح ركناً من أركانها ، منذ ساعة وصوله الجبل. لما يتمتعُ به من مؤهلاتٍ قيادية ، ولما يحظى به من مكانةٍ ، بين معظم قادة الحركة الوطنية ، الذين وصلوا تباعاً إلى الجبل قادمين من مصرَ ، وفلسطينَ ، والأردن ، ولبنان ، كالدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، وسعيد العاص ، والدكتور أمين رويحه ، ومنير الريس وغيرهم.

ولا شكّ أنّ استقطاب الثورة لرشيد طليع ، وغيره من الوطنيين قد منحها الطابعَ الشمولي والشعبي. فامتد لهيبها في أرجاء الوطن ، واتّسع نطاقُها لتشمل الغوطة ، وإقليم البلان ، وحماة ، ومناطق الشمال. يقول الجنرال الفرنسي أندريا : " كان الانتصار في معركة المزرعة ، على حملة ضخمة مجهّزة بأفتك الأسلحة ، قد أنعش الروح الوطنية ، وأدهش العقولَ ، واستقطب دعاة الحرية ، فقد أخذ الشهبندر ، والأمير الأرسلاني ، ورشيد طليع يجتمعون يومياً ، ولم تكن ثورة الجبل إلا جزءاً من مخططهم ، فقد كانوا يسعون إلى توسيعها ، ويطمحون إلى امتداد لهيب الثورة إلى كل أنحاء سورية. وكان رجالهم يحركون المدن الكبيرة ، ويثيرون عصبية الوطنين ضد فرنسا ، مستغلين بشاعة هزيمتنا الأخيرة.. "[1]. وكما يقول المستشرق لوتسكي " فقد أيقظت الثورة السورية الروح التحررية في الشرق عامة ، وتعاطف معها الوطنيون العرب في شتى الأصقاع"[2]. ففي الخامس من تشرين الثاني عام 1925وجّه سعد زغلول نداءً إلى الشعب المصري ، يدعو فيه للتضامن مع الثورة ودعمها ، فأجابت قيادةُ الثورة على نداء الزعيم المصري بالقول : " من سفوح الجبل المطلةِ على سهول حوران ، ومن تحت السماء الصافية الأديم ، التي تعكّرها قنابلُ الطائرات ، وفي وسط خلقة من

---

[1] الجنرال أندريا – مصدر سابق – ص 91

[2] لوتسكي الحرب الوطنية التحررية في سوريا – مصدر سابق – ص 13

المجاهدين، الذين عاهدوا بلادهم أن يفتدوها بالغالي والرخيص، وبجانب سلطان القائد العام للثورة، نرفع لمعالي زعيم مصر خالص الشكر، وعظيم الامتنان على ندائه البليغ، لإسعاف القطر السوري، الذي يجاهد كالقطر المصري، لتحرير نفسه من رقّ العبودية ووصمة الاستعمار"[1].

شعر الفرنسيون بقوة تأثير الثورة السورية العام، وشدة خطرها على أهدافهم الاستعمارية، فصمموا على الإجهاز عليها، قبل أن يقطف رجالها ثمار النصر، فتعددت أساليبهم لتحقيق هذه الغاية. وكان النّيل من قيادة الثورة، والإساءة إلى أركانها أحد الأساليب التي لجؤوا إليها، فالجنرال أندريا الذي وصفَ رشيد طليع بأنه أحد دعاة الحرية يكتب عنه مرة أخرى قائلاً: " توالت الأخبار من الجنوب والشرق عن أن دعايةً قويةً، تعمل لدوام الدعم المادي الكبير للثورة، ينشرها أجنبي اسمه رشيد طليع "[2]. وحول هذا الدعم للثورة يقول سلامة عبيد: " بعد معركة المسيفرة، وما رافقها من الإحساس بحجم الخسائر وكثرة شهداء الثورة انتعشت النفوس لإخلاء السويداء، وانسحاب الحملة الفرنسية المفاجيء بسبب تخوف الفرنسسين من حصار جديد، واندلاع الثورة في حماة، وزاد في انتعاشها قدوم رشيد طليع ببعض الإعانات التي بدأت ترد من المهجر بطريق فلسطين والأردن، وتجديد الاتفاق مع الدكتور الشهبندر لمهاجمة دمشق ثانية "[3]

كما واجهت الثورة أسلوباً أكثر دهاءً وخطورة، حين سعت فرنسا إلى تحطيم الروح المعنوية للثوار بتوجيه النداءاتِ إلى السكان، ففي شباط من عام1926 أرسل المفوض السامي دي جوفنيل وفداً إلى الجبل ليقوم بدور

---

[1] سعيد الصغير ـ بنو معروف الدروز في التاريخ ـ بيروت ـ 1952 ـ ص 568

[2] الجنرال أندريا – مصدر سابق ـ ص 95

[3] سلامة عبيد – الثورة السورية الكبرى – دمشق – 1971 – ص 159 / 160

الوسيط حاملاً اقتراحات لم توافق الثورة عليها، فخاطب دي جوفنيل أبناء الجبل بنداء جاء فيه:

" لماذا تحاربون؟ وفي سبيل من تحاربون؟ ذهب إلى رؤسائكم منذ أيام بعض المتأملين من أبناء جلدتكم، لما يَرَوْن ما أنتم فيه من العذاب، ليقابلوهم ويبرهنوا لهم أنه لم يبقَ من داعٍ إلى القتال، وإنما يسير القتالُ بكم إلى الانكسار والموت والمجاعة، وأن نساءكم وأولادكم يكونون أول الضحايا "[1].

كانت هذه النداءات تستند إلى المعاناة الواقعية التي أصابت السكان، فأبناء الجبل الذين عانوا فعلاً مرارة الجوع والفقر، كانوا يدركون أن مردّ ذلك هو الاحتلال وليسَ الثورة على الاحتلال "، ويمضي البيان قائلاً: " إن فرنسا وحدَها، قديرةٌ أن تقدّم لكم ما ينقصكم من قمحٍ، وماءٍ، وطرقاتٍ، ومدارسَ. وتلكَ الحرية، التي بدأت تمتدُ حسناتها اليوم إلى جميع الأنحاء السورية المتمتعة بالسلام. إن ما جئتكم به من السلام، والحرية، والقوت لهو أفضل من بنادقكم "[2].

ودون ريب فإن مثل هذه الحرب النفسية، والدعاوى الخبيثة، كان يمكن لها أن تفعل فعلها، لولا العقل المفكر لأركان الثورة، ورباطة جأش قائدها، فلقد كُلّفت لجنة برئاسة الأمير عادل أرسلان وعضوية رشيد طليع وغيره، للرّد على بيان المفوّض السامي وكشف التضليل بين سطوره.

واجهت قيادةُ الثورة خطراً آخر، وأسلوباً ثالثاً من أساليب الفرنسيين، تجلّى في دفع بعض العشائر، للقيام بهجمات خاطفة على السكان وتحريضها على السلب والنهب، فتقرّر دعوة شيوخ العشائر، في منطقة اللجاة، للتباحث معهم، " وكلّف رشيد طليع، وعبد الرحمن الشهبندر، وأحمد مريود، ببذل

---

[1] الجبرال أندريا – مصدر سابق – ص 200

[2] المصدر نفسه ـ ص 208

الجهود لمعالجة الأمر، وقد تمكن هؤلاء من إقناع هؤلاء الشيوخ، بأن الثورة حريصةٌ على العيش المشترك، والحفاظ على حياة أبناء العشائر، وتقديم العون لهم، وفندوا أمامهم دسائس العدو، وتهمه الملفقة[1]".

لم تكن هذه الأساليب، لتفت من ساعد الثّورة، وإنما جاءها الخطر الحقيقي من ذاك التفاوت الهائل في العدة والعدد، من البون الشاسع بين الأسلحة الحديثة المتطورة التي يملكها العدو، وفقر الثوار لمثل هذه الأسلحة، إذ لم يكن بيد الثوار سوى البنادق القديمة، المتنوعة المصادر، لمواجهة طائرات العدو، ودباباته، ومدفعيته، ففي الخامس والعشرين من نيسان عام 1926، أثناء معركة السويداء تعرضت المدينة إلى قصف متواصل من أسراب الطائرات، وقنابل المدفعية الثقيلة وقذائف الدبابات، فردَّ الثوار على الهجوم برصاص البنادق، ولم يكن لديهم سوى بضعة مدافعٍ غنموها يوم المزرعة، وقد جرى استخدامها استخداماً محدوداً، وساعد بعض المغاربة من الجنود الذين انضموا إلى الثوار في العمل على المدافع التي انفجر أحدها واستشهد سدينه.

جاء في مذكرات سلطان الأطرش: " أن كلّ ذلك أوجب علينا أن نعيد النظرَ في تنظيماتنا العسكرية، والإدارية، علّنا نستطيع مواصلة الكفاح، والصمود في وجه تلك الجيوش الجرارة، التي أعدتها فرنسا للقضاء على ثورتنا، وإخماد نارها في مختلف المناطق، فدعونا إلى مؤتمر شعبي كبير في قرية شقا أواخر أيار عام 1926 تقرّر فيه:

- تشكيل إدارة شعبية، وإعادة تنظيم قوى الأمن الداخلي.
- انتخاب مجلس وطني.

---

[1] أحداث الثورة السورية – مصدر سابق – ص 210

- تنظيم جيش الثورة في وحداتٍ مقاتلة، يرأس كلٌ منها قائدٌ مسؤول عن شؤونها العسكرية والتموينية.
- الإصرار على مطلبنا الرئيس في وحدة البلاد.
- الموافقة على عقد معاهدة مع فرنسا، تُحفظ فيها حقوقنا كاملة في الحرية والاستقلال.

وتحت موجة من القصف الجوي، تمّت تسمية أعضاء المجلس الوطني للثورة، وقد تكّون من اثنين وخمسين عضواً، واُختير لرئاسة المجلس الشيخ يوسف الهجري وأُسندت أمانة السّر إلى رشيد طليع[1].

كانت المؤتمرات العامة، تُعقد من حين لآخر، لتوسيع قاعدة التشاور، والاشتراك في تحمّل مسؤولية القرارات المتّخذة، وكان رشيد طليع يشارك مشاركة نشيطة في هذه المؤتمرات، ويرأسها في بعض الأحيان.

يقول الجنرال أندريا: " وصل إلى صلخد، في الثاني عشر من حزيران عام 1926، رسولٌ أعلن أن زعماء الثورة من أبناء الجبل، والدمشقيين، عقدوا اجتماعاً في مطحنة قريبةٍ من بلدة الهّويا، برئاسة شخصية يكتنفها الغموض، وهي رشيد طليع، ولقد نجح في إعادة أكثرية المجتمعين، إلى الأخذ بفكرة متابعة القتال بعد سقوط مدينة صلخد، وتقرّر الامتناع عن مهاجمة الحملاتِ الفرنسية القوية التجهيز، حتى يتيسّر النصر، وإبقاء البلاد في جوٍ من العصيان. وتوزيع بعض الفرسان إلى القرى لرفع الروح المعنوية. وأبلغ رشيد المجتمعين ما قاله سلطان الأطرش من أن حوران في طريق الثورة، وعلى أبناء الجبل إلاّ ييأسوا من النصر النهائي "[2]. وقد واجه الثوار قوات الجنرال أندريا، وقاتلوا بحمية وبسالة،

---

[1] المصدر السابق – ص 264

[2] الجنرال أندريا – مصدر سابق – ص70

غير أن البون الشاسع في القوى اضطر الثوار إلى التخلي عن صلخد، وحول ما جرى في مدينة صلخد، كتب رشيد طليع إلى شكيب أرسلان يحدّثه عن المعارك التي دارت أثناء تقدم الجيش الفرنسي من بصرى إلى صلخد، " فقد مكث الجيش نصف شهر في صلخد شبه محاصر، وكانت دوريات المجاهدين ترصد الطريق "[1].

لقد تعددت اجتماعات الثوار ومؤتمراتهم بهدف المزيد من التشاور، بعد أن زجّت الحكومة الفرنسية بقوات جديدة لتعزيز حملة أندريا في المنطقة الجنوبية والشرقية من الجبل، للقضاء على الثورة. وحول هذه الاجتماعات، والمؤتمرات التي كانت تعقدها الثورة، يقول أندريا: " أن اجتماعاً عاماً جرى في قرية " بوسان، في السابع والعشرين من حزيران، برئاسة سلطان الأطرش، ورشيد طليع، وأحمد الهجري، فاقترح سلطان استعادة مدينة صلخد، فاستحسن الجميع رأيه استحساناً كبيراً، وأضاف رشيد قائلاً: لن تتوقف الثورة حتى ولو لم يبقَ جبلي واحد واقفاً على رجليه، ولن نسلّم السلاح إلا بعد أن توافق فرنسا على مطالب الثوار وأهمها العفو العام "[2].

هذه الأقوال التي يقولها رشيد كانت تصل إلى الفرنسيين، فتملأ قلوبهم حقداً عليه، فلقد كتب أندريا في المدّة نفسها يقول: " الموقف في المقرن الشمالي سيء، تستقبل المنطقة سلطان الأطرش أحسن استقبال، وقد استفادَ الثوار من سحب طابور من الجيش الفرنسي، ليُسهم في العمليات التي تقوم بها الثورةُ في الغوطة وحول دمشق، فأُشيع في الجبل أن الجيش الفرنسي سيُهزم، وأن الثورة منتصرة حتماً، وأنه لا داعي للاستسلام، تلكَ دعايةٌ ماهرةٌ. اختبأت خلفها شخصيةٌ أتينا على ذكرها في فصل سابق، إنها رشيد طليع الذي حمل إلى الجبل

---

[1] أحداث الثورة – مصدر سابق ـ 235

[2] الجنرال أندريا – ص107

دعماً مالياً، من اللجان الإسلامية في القاهرة، والهند، وأمريكا تساوي خمسين ألف ليرة ذهباً، وزّعت على الجبل منذ عودتنا إليه. إن هذا الأجنبي يملكُ بيده اليوم مفاتيح القوة والتأثير، وهو ينتقلُ في الجبل محرضاً أبناء المقرن الشمالي، كي يساندوا رفاقهم في المقرن الجنوبي، الذين يُقتلون بيد الفرنسيين. وقد عُلّقت إعلانات في القرى تقول: على الذين يرغبونَ في الدفاع عن وطنهم ودينهم أن يحضروا إلى بلدة الهويا، وبلدة أم الرمان، لتلقي الإمداد اللازم لأسرهم" الإمضاء رشيد طليع[1]. لقد أكثر الجنرال أندريا من الحديث عن رشيد طليع في مذكراته، واختلف رأيه فيه من حين لآخر، فهو مرة رجل أجنبي، وهو مرة أخرى شخصية يكتنفها الغموض، وهو مرة ثالثة محّرض يملك بيده مفاتيح القوة، وهو من يتلقى الإعانات ويوزعها على الثوار. ولا شك أن تعدد آراء أندريا فيه تكشف بجلاء غيظ الجنرال من دور رشيد في الثورة ومن عمله المتفاني لمواجهة قوات الاحتلال الفرنسي.

ظل رشيد طوال عام 1926 ينتقلُ مع قيادة الثورة، من موقع إلى آخر وقد كتب إليه سلطان الأطرش في إحدى رسائله يقول: " بعد أن تفارقنا نحن وانتم من قرية نمرة، وصلنا المقرن القبلي، وجدنا أن لبقائنا شأناً عظيماً، لكي نبث روح الوطنية. قررنا اجتماعاً لكافة وجوه القرى، وسننفذ قرار المجلس الوطني، وقيام الأهالي يفيدنا أكثر من مقابلة الحكومة. سنتوقف لجمع قوة نتوجه بها للمقرن الشمالي، نأمل منكم الإفادة عما يحدث نواحيكم تموز 1926"[2].

كان رشيد يعاني من آلام جسدية، وقد تدهورت صحته تدهوراً ملحوظاً، لكنّه لم يتوقف عن القيام بواجباته، معرضاً نفسه للخطر، وثمة رسالةٌ من سلطان الأطرش إلى علي عبيد أواخر تموز عام1926، توحي بأن

---

[1] الجنرال أندريا – ص107

[2] سلامة عبيد – الثورة السورية في ضوء وثائق لم تنشر – دمشق ـ 1960 ص 348

المجاهد علي عبيد خائفٌ على رشيد طليع ليس بسبب المرض، بل لأن رشيد يواصل كفاحه في أقسى الظروف التي كانت تمر بها الثورة، ويسألُ سلطان الأطرش رأيه فيجيبه سلطان قائلاً: " بخصوص خوفكم على رشيد طليع، اعتقادي الشخصي، طالما يوجد عند رشيد ثوارٌ فلا خوف عليه، وأنتم تعلمون سعة إدراك رشيد، وعلوَّ أفكاره، ولو وجدَ نفسه غير آمنٍ بتلك المنطقة لحضرَ إلينا، وأعتقد أنه يجد ضرورةً لبقائه هناك "[1]. وآخر ما كتب عن نشاط رشيد " أنه في الثامن من أيلول عام 1926 وصلت حملة الفرنسيين قرب قرية " الشبكي" التي تبعد 40 كيلومتراً عن مدينة السويداء شرقاً، فعلمت أنّ ثمة ثلاث عصابات في المنطقة يقود أحدها رشيد طليع.

وفي بلدةْ (الشبكي) أصيب رشيد بمرض معوي واشتد عليه المرض، وأدّى إلى وفاته أواخر أيلول عام 1926، لتفقد الثورة السورية أحد أركانها، وقادة الرأي فيها، ولا شكّ أن موتَ رشيد طليع كان بسبب ظروف الثورة القاهرة، سواءً من حيث العناية الصحية، أو الطعام، أو اللباس، اختطفه الموت ولّما يبلغ الخمسين. وأغمض عينيه على حلم الحرية التي كافح من أجلها ووهبها روحه.

وعندما وصل خبرُ وفاته إلى أهله وذويه، في مسقط رأسه في جديدة الشوف بلبنان، وقبل أن يحضر جميع الأهل لإذاعة النعي، وصل المستشار الفرنسي وفي نيته الحيلولة دون إقامة مأتم كبير للفقيد، غير أن الخبر سبقه وشاع بين الناس، فشاهد بأمّ عينه الوفود القادمة من كل فجٍ وصوب، فأُسقط في يده، وانصرف بعد أن اضطر لتقديم التعازي، مشفوعةً بنصائح السلطة الفرنسية: ألا يتحوّل المأتم إلى تظاهرة وطنية، فتحوّل المأتمُ إلى تظاهرة وطنية.

---

[1] سلامة عبيد – الثورة السورية في ضوء وثائق لم تنشر – دمشق ـ 1960 – ص 350

ولقد نعاهُ قائد الثورة السورية قائلاً: " فُجعنا بوفاة المجاهد الكبير والبطل المقدام، والإداري الحكيم رشيد طليع ببلدة الشبكي إثر مرضٍ معوي أصابه بصورة مفاجئة، ففقدنا ركناً من أركانِ الثورة، ورجلاً من خيرة رجالات العرب الأفذاذ ".

وقد نشر عجاج نويهض عشر مقالات في جريدة نهضة العرب في ديترويت في الولايات المتحدة سنة 1964، تحت عنوان " رشيد طليع يكاد يكون لا كالرجال، ويدور في فلك وحده، وقد استهلَّ مقالاته بقوله " إني معني بإيجاز ترجمة رجل هو من دهاة العرب، ونبغائهم إلى آخر الربع الأول من هذا القرن، فلما ذكرت تحت اسمه إنه يكاد يكون لا كالرجال، ويدور في فلك وحده، لم أكن في هذا القول إلا واصفاً واقع الرجل وقيّمه التي تفرد بها، وقد عرفته معرفة تلميذ لأستاذ قليل النظير في القديم والحديث"[1].

وفي الختام:

لقد كانت غاية هذا البحث أن يشرّع الأبواب للتعرف على حياة رشيد طليع الغنية، والتي يصعب اختزالها في صفحات قليلة وإذا كان ثمة كلام آخر يمكن إضافته فهو التأكيد من جديد على أهم سمات هذه الشخصية البارزة، فرشيد طليع قبل كل شيء فارس معلم في ساح المعارك لا يشق له غبار، عمل في صفوف الثورة جندياً لا قائداً، يفترش الأرض ويلتحف السماء، يقيم مع رفاقه يجوع ويعطش إذ يجوعون ويعطشون، ويقاتل حيث يقاتلون وبالإضافة إلى ذلك، هو رجلُ سياسةٍ وفكرٍ وأدبٍ، وليس أدل على ذلك من منادمته المثقفين والأدباء ورجال الفكر.

---

[1] أمين طليع – مصدر سابق – ص 43

ورشيد طليع سياسي واضح الرؤية، وهو من ألمع الإداريين العرب في العهد العثماني، ومن أبرز وجوه عهد الملك فيصل، جمع بين الحزم واللياقة، فعندما كانت تتلبد سماءُ الثورة بغيوم المكائد الفرنسية تلتمعُ رؤيته النيرة. قال مرة لأحد دعاة التفاهم مع العدو: " إن الفرنسيين يخدعونكم إذ ليس لهم إلا هدف واحد هو تجريد البلاد من السلاح، والقضاء على حريتها، وجعل جبلكم مستعمرةً فيما يسمّونه استقلال الجبل، ولن يكون هذا الاستقلال إلا حبراً على ورق "[1].

ورشيد طليع رجلٌ مؤتمن، حظي بثقة الناس، فوضع هذه الثقة في خدمة الثورة، فانهالت عليه التبرعات من شتى أنحاء المعمورة، لسدّ رمق الثوار وإطفاء عطشهم، ورد غائلة الجوع عنهم.

لقد سُمّي باسمه شارعٌ صغير لا يتجاوز بضعة أمتار في منطقة المزرعة في بيروت، وأقيم له نصبٌ في بلدة الشبكي، ومما يروى أن امرأة من هذه القرية هتفت حين همّ الرجال بدفنه قائلة: لاتدفنوه في التراب، دعوه واقفاً، فالسنديان يموت واقفاً ليبقى منارة للمجاهدين.

وقال فيه الشاعر خير الدين الزركلي "بقصيدة الشهداء" فؤاد سليم، أحمد مريود، عادل النكدي، رشيد طليع:

يا عين أسهرك الجناة وناموا	لا أنت هاجعة ولا الآلام
تتلمسين، وللظلام تكاثف	نور الحياة، وفي الحياة ظلام
الناس في وثباتهم ماضون في	أهبـاتهم والنائبات جسام
يا يوم أوشكت الأعنة تنثني	والنفس تهلع والسماء تغام
من رد وجه الخيل جامحة الخطى	واقتاد جيش الكر وهو لهام

[1] أمين طليع – مصدر سابق – ص 45

مـن سـن للجبـل النظـام ولم يكـن　　مـن قبـل للجبـل المنيـع نظـام
شب الرشيد وشاب مصقول الحجى　　وعلـى التجـارب تـصقل الأحـلام
رأيٌ لـه الإشـعاع حـين يُجيلـه　　وبـه ينـار الحـادث المظـلام
ودؤوب معتقـد بلـوغ مرامـه　　ولكـل سـاع في الحيـاة مـرام
مـا كـان في إزماعـه لهـوادة　　أثـر ولا لمـضيه إحجـام
نفـس تـثير النائبـات صـلاءها　　كالـصلد يخـرج نـاره الهـدام
نبكـي ونحـزن أو نثـور ونـصطلي　　والمحرجـان العـسف والإرغـام
لـولا مخافـة شـامت يقـظ الأذى　　لبكيـت حتـى تبكـي الأيـام[1]

وقال فيه الأمير شكيب: [2]

"إنّه عميدٌ كبيرٌ، وأخٌ حميمٌ، ومجاهد نادر النظير، وخارق العادة في الهمة والنبالة وحسن التدبير، لم يكنْ يكتفِ بمرافقة المجاهدين، ومواساة المصابين إبّان الثورة، بل خاضها بنفسه رغم المرض، لأن غرامه باستقلال أمته أنساهُ كل شيء، وأخرجه من نفسه، وعوضه من قوة جسمه بقوة روحه العالية، وبقي يجاهد حتى تناهت همته إلى حدها الأقصى وهو الموت، وهيهات أن يَسُدَّ أحدٌ مسدّه في الرأي أو يبلغ أحدٌ مبلغه في العزيمة والنهوض، فهذا هو الرزء الذي لا يعوض وكما قال أبو تمام:

هيهـاتِ أن يـأتي الزمـانُ بمثلـه　　إن الزمـانَ بمثلـه لبخيـلُ

---

(1) ديوان الزركلي — بيروت — مؤسسة الرسالة 1993 ص 240
(2) نجيب البعيني ـ رجال من بلادي ـ بيروت — دار الريحاني — 1984 — ص 91



" أسمهان "

أسمهان
تراجيديا الحياة و والموت

الميلاد:

- أسمهان ابنة فهد الأطرش، بن فرحان بن إبراهيم بن إسماعيل، وقد أسس إسماعيل الزعامة الطرشانية في جبل حوران*[1]. وكان فهد ممن أُرسلوا إلى اسطنبول للدراسة. وبعد الدارسة بدأ عمله في الحكومات العثمانية. وقد تزوج مرتين، قبل أن يلتقي علياء المنذر، ابنة بلدة حاصبيا في لبنان، وكانت على جانب كبير من الرقة والجاذبية، فوقع فهد في حبها. ومع أنها كانت متزوجة، رتّب أمر خطفها من بيت زوجها، بعد أن وافقت على ذلك، وقد بقيا محاطين بحماية من احتميا به، إلى أن أُقرّ الزواج، عن طريق وسطاء، على وفق العادات الجبلية المعروفة.

أقرّ أهل علياء زواجها من فهد دونما رغبة، إن لم نقل مكرهين، جراء الفوارق في نمط حياة كل منهما. فعلياء على حظ غير قليل من التمدن، وتعيش حياة مستقرة، بينما كان فهد موظفاً في الدولة، وهو عرضةٌ للتنقل الدائم بين المدن والبلدان، التي يُعيّن فيها على وفق متطلبات وظيفته، الشأن الذي لم يرق لأهل علياء.

- سمي جبل حوران بعد ذلك جبل العرب، بتغليب المصطلح السياسي على المصطلح الجغرافي.

كان فهد إبّان تلك المدة، كما تشير بعض الروايات يشغل منصب قائمقام حاصبيا، ثم ما لبث أن عُيّن متصرفاً في منطقة إزمير، وأقام مع أسرته في بلدة ديمرجي الواقعة جنوب شرق الأناضول، وبقي هناك زهاء خمسة أعوام. وكانت علياء تنتظر مولوداً، حين قرر فهد الرحيل جراء عدم الاستقرار، والاضطرابات في الدولة العثمانية، في العقد الأول من القرن العشرين الميلادي. فركب وزوجته البحر، متجهين إلى بيروت، وخلال رحلتهما ولدت أسمهان في 23 تشرين الثاني عام1912، على أرجح الروايات المتضاربة، وقد اقترح الأب أن تسمى " بحرية "، بينما أرادت الأم أن تسميها آمال، وكانت الغلبة لرأيها، على نحو ما يجري في مثل تلك الحالات.

أقام فهد في بيروت مقر عمله الجديد، وعاشت علياء مدّة ذهبية من حياتها، في تلك المدينة الساحلية المنفتحة، حيث لاقت كل عناية ودلال، وكانت أول امرأة تسوق سيارة في تلك المدينة.

الرحيل

كان يوم ميسلون طعنة نجلاء لأماني العرب، دخلت فيه سورية مرحلة من مراحل الصراع الضاري مع المحتلين الفرنسيين، الذين ما أن وطأت أقدامهم الأراضي السورية حتى عمدوا إلى تقسيمها دويلات على أساس طائفي ومناطقي، وحرصوا على تعيين حكام محليين لها، ولم يُفلح هذا الأسلوب في تطويع أبناء الجبل، الذين رفضوا بغالبيتهم إقامة دويلة في الجبل، وأصروا على أن يبقى جبلهم جزءاً من سورية الأم. وبعد مضي عام على الانتداب، جرت محاولة اغتيال الجنرال غورو " المفوض السامي الفرنسي" واُتهم أدهم خنجر بمحاولة الاغتيال تلك، فيمم الجبل مستجيراً بسلطان الأطرش الذي لم يكن في بيته، فتمكنت السلطات الفرنسية من اعتقاله، وقد أثار ذلك غضب سلطان ولم تفلح جهوده في تحرير أدهم الذي استجار به، بل لم يتورع الفرنسيون عن

إعدامه، فزاد ذلك من النقمة على الفرنسيين، وأشعل فتيل المقاومة في تموز 1922. ولعل حادثة أدهم، والرد عليها من قبل سلطان، ثم قصف الفرنسيين لداره في القريا، قد زعزع إحساس علياء بالطمأنينة، وكان سبباً في رحيلها من الجبل إلى دمشق، ومن هنالك واصلت رحلتها إلى بيروت، معلنة بإصرار، أنها ليست مستعدة لاحتمال الأعمال الحربية، لأنها مفعمة بالحزن على ولديها أنور ووداد، بعد أن اختطفتهما يد المنون، ولم تعد قادرة على احتمال أي أذى؛ يمكن أن يقع على من بقي من أبنائها، فؤاد وفريد وآمال.

لم تطل إقامة علياء في بيروت، وربما يعود ذلك لخوفها من رغبة زوجها بعودتها إلى الجبل، فقد رحلت رغماً عنه وقد يشير ذلك إلى أن حياتهما الزوجية لم تكن في أحسن حالاتها. وقد يكون سبب الرحيل صعوبة العيش في لبنان آنذاك، أو يكون جراء خشيتها من تعقب الفرنسيين لها. فرحلت قاصدة مصر عام1923. فقادت سيارتها بصحبة أولادها إلى حيفا، وهناك نصحها ابنها فؤاد أن تبيع السيارة فباعتها، واستقلت القطار مع أولادها إلى مصر، ولم تكن تحمل وثائق السفر المطلوبة، وحين حاول موظف الحدود منعها من دخول مصر رفضت النزول، وطلبت منه أن يُبرق إلى سعد زغلول زعيم مصر الوطني يُعلمه بالأمر، ففوجئ الموظف بالطلب ولم يصدق أذنيه، ولكنه أبرق جراء إصرارها إلى القاهرة، وفوجئ مرة ثانية بالرد الذي وصلْ من سعد، يقول فيه: " أرحّب بك في مصر يا سيدتي "[1].

هكذا رحلت الطفلة آمال: " أسمهان " من الجبل إلى مصر، لتقول فيما بعد أنها تذكر من أيام طفولتها، أنها كانت سعيدة راضية، وإذ لم يكن في

---

[1] المصدر نفسه ص67 "كان سعد قد كتب إلى سلطان الأطرش قائلاً: سرْ على بركات الله، فإذا لم يقدر لك خونة الوطن هذه الوصية العظمى حق قدرها فستقدرها لك الأجيال ويسجلها لك التاريخ يا سلطان الشهامة والمروءة".

عيشها ترف، فإنها لم تعرف الحاجة ولا العوز. وقد ارتسم الجبل في وعي أسمهان بصفته موطناً أليفاً، وكل ما فيه يبعث على دهشة الصغيرة، ويثير لديها عذوبة الاكتشاف. كانت كما تذكر تلهو فوق ترابه، ويُسمح لها ولأخوتها أن يلعبوا ما طاب لهم اللعب، كما كانت تشعر ـ كما تقول ـ بالأمن، وبأنها محمية من أي سوء، بينما يتردد على مسامعها أصداء الأحداث والوقائع السياسية والحربية التي انغمس فيها رجال الجبل، ولعلّها وهي في العاشرة من عمرها قد أحسّت الأخطار المحيقة بهذا الجبل الذي أحبته، والذي اضطرت إلى الهرب منه مع أسرتها[1].

الأسرة في مصر:

استأجرت علياء عند وصولها شقة متواضعة في منطقة فقيرة، وأرسل فهد رسالة إلى علياء المخطئة، فكتبت إليه أنها لا تنوي العودة إلى سورية، بل عليه هو أن يأتي إلى مصر، ووصلت رسالة ثانية منه هدد فيها علياء بالطلاق إن لم تعد، ولكن دون جدوى، فتزوج ابنة عمه، وعين قاضياً في السويداء. ومات فهد عام1942. ولم يمر عام واحد على وجود علياء وأولادها في مصر، حتى نضب مورد الأسرة ووقف شبح الجوع بالباب، تقول أسمهان: "بدأت أمي تعمل في خياطة ملابس السيدات، وكان ما تحصل عليه قليلاً ولكنه كفانا شر الجوع"[2]. وهنا بدأت علياء تغني وتُحيي حفلات خاصة، بعد أن تعرّفت بالملحن داود حسني وعازف الكمان سامي الشوا، واتسع رزق الأسرة قليلاً، فأمكن لها أن تُدخل فريد وأسمهان المدرسة لمتابعة الدراسة التي قُطعت. وقد سجلتهما في مدرسة فرنسية كاثوليكية، مستعيرة لهما كنية أخرى هي "كوسا"، واضطرت إلى طلب المساعدة من مدير المدرسة حتى تفي برسوم التعليم.

---

[1] المصدر نفسه ص63

[2] محمد التابعي – أسمهان تروي قصتها ـ مصر – دار الشروق 2008 ص 48

كانت أسمهان تتعلم الفرنسية بشغف إلى جانب العربية، وكانت الأم تروي من حين لآخر أحداث الثورة السورية لأبنائها، بعد أن احتلت أخبار معارك الجبل زوايا بارزة في الصحافة العربية "وقد حولت الملاحم التي جرت على بطاح الجبل سلطان الأطرش إلى بطل شعبي تتناقل الجرائد صوره، وتحكي عن أنباء انتصاراته، فما كان من التلميذ فريد المزهو بكنيته الحقيقية إلا أن كشف سر انتمائه لأسرة سلطان الأطرش لأحد زملائه، فأخبر زميله مدير المدرسة بذلك، فلم يفهم المدير من تلك الحكاية إلا أمراً واحداً، هو الطلب من علياء المسكينة أن تتحمل رسوم المدرسة الباهظة "[1].

تعود أسمهان بذاكرتها إلى سنوات الحرمان والفقر التي عاشتها في بداية إقامة الأسرة في مصر فتقول: " وقف شبح الجوع بالباب، وأرسلتني أمي ذات يوم إلى الدكتور عبد الرحمن الشهبندر "أحد الزعماء السوريين الذين أسهموا في إذكاء نار الثورة السورية " وكان يومئذ لاجئاً في مصر، كي أطلب منه أن يقرضنا شيئاً من المال، وقطعت الطريق إلى مسكنه على قدمي، وكان الطريق طويلاً جداً، ولما قابلته وأبلغته رسالة أمي وشكوت له حالنا، ناولني ريالاً واحداً، ولما رأته أمي بكت وبكيت معها. كنت ما أزال صغيرة السن، ولكنني فهمت يومها أننا أوشكنا أن نصبح من المتسولين، وتتابع فتقول: " كنت ذات يوم أزور أسرة الأميرالاي محسن بك بالقرب من ميدان عابدين، وظننت أنهم سيخرجون بسياراتهم فيوصلونني إلى مسكني، ولكن السماء أمطرت مطراً غزيراً كأفواه القرب، فعدلوا عن الخروج، وكان علي أن أعود إلى البيت، ولم أسمح لنفسي أن أقول لهم إنه ليس في جيبي قرش واحد لركوب الحافلة، ومشيت تحت وابل المطر تلك المسافة الطويلة بين بيتهم وبيتي "[2]. وخلال فترة العوز تلك جاءت

---

[1] شريفة زهور – أسرار أسمهان – دمشق – دار المدى للثقافة والنشر _ ص 72
[2] محمد التابعي _ مصدر سبق ذكره – _ ص47 و48

مساعدة مادية لعلياء من حيث لا تتوقع، حيث وصل إلى القاهرة الأمريكي "بارون كراين" وقد يكون أحد عضوي لجنة "كينغ كراين" التي قدمت إلى سورية لاستطلاع رأي أبنائها حول الانتداب، ورفعت تقريرها الذي يؤكد أن أبناء سورية، لا يريدون سوى الاستقلال. وكان هذا الأمريكي كما يزعم معجباً بسلطان الأطرش وثوار الجبل، فتعاطف مع أحوال علياء، واقترح عليها سفر الأبناء للتعلم في أمريكا فرفضت، ولكنها قبلت أن يقدّم لها مئة دولار معونة شهرية، و مكّنها هذا المبلغ من الانتقال إلى شقة جديدة.

كيف تم اكتشاف صوت أسمهان:

وقع اختيار معلم الموسيقا في المدرسة على آمال وفريد، عندما بدأ يعلّم تلاميذه الصولفيج، وتبين أن علياء قد أورثت صوتها الجميل إلى ولديها، وأخذت في تلك الفترة تخالط المهاجرين اللبنانيين والسوريين، وحددت يوم الثلاثاء لاستقبال الزوار، وكان بعضهم من الموسيقيين المصريين، الذين أتيح لهم سماع صوت علياء بعد أن غنت للإذاعة المصرية. وفي هذا الوقت كانت أسمهان تغني أيضاً، وقد تنازع الموسيقيون اكتشاف صوتها، وأكثر روايات الاكتشاف درامية قدمها المؤلف الموسيقي داود حسني.

كان حسني متعاطفاً مع واقع الأسرة المادي الحرج، وكان يخشى على سمعة الأسرة ويتفهم المشكلة الاجتماعية التي تواجه المشتغلين بالغناء. وحين سمع آمال تغني لم يتمالك نفسه، فأوضح والدمع يسيل من عينيه، أنه عرف فيما مضى، فتاة جميلة الصوت ووضع خطة لتدريبها، لكنها ماتت، وشاء القدر أن تحل أمال محلها. واقترح ألا تغني باسمها الحقيقي، ومنحها لقب "أسمهان" وهو اسم حسناء فارسية في زمن غابر، والاسم يتصف كما يعتقد بالفخامة اللائقة بصوت أمال، وكان حسني يظن أن الاسم الفني يضفي فتنة وغموضاً على المطربات اللواتي لا يعرفن إلا باسم واحد. وعلى الرغم من

ذلك، ظلت أسمهان على الدوام، تصرّ على أصدقائها ألا ينادوها إلا باسمها الحقيقي.

بدأ داود حسني يعلمها الغناء، وأصول العزف على العود، وتبّنى محمد القصبجي تدريبها على المقامات، وعلّمها زكريا أحمد قواعد التقنية الصوتية، وأعطاها فريد غصن دروساً في التأليف الموسيقي. وكان التعليم الموسيقي صعباً ومعقداً، غير أن أسمهان، وأخاها فريد استطاعا التعلم في زمن قياسي، من خلال محاكاة ما يسمعانه، وكانا سعيدين بدراساتهما الموسيقا، ولم يخطر في بالهما ما ينتظرهما من نجاحات في عالم الفن.

بداية الطريق:

تّعلم فريد وأسمهان أشكال الموسيقا الشرقية، التي كانت شائعة مثل "الدور" وهو لب الغناء القديم. يؤديه مغن واحد مع مجموعة منشدين. والتواشيح والطقطوقة، والقصيدة، إضافة إلى المواويل والأغاني الشعبية اللبنانية والسورية واستوعبا التقنيات الخاصة، والدقة الأسلوبية لهذه الأشكال. ولم يكن طريق الغناء أمام أسمهان معبداً ومفروشاً بالرياحين، إذ كانت النظرة إلى المغنيات محكومة بثقافة تراثية جائرة، لا تعلي من شأن الفنان، غير أن داود حسني أخذ يشجع أسمهان. وبدأت شركة اسطوانات تسجل لها الأغاني بمساعدته، فراحت زميلاتها في المدرسة يسخرن منها. وأصبحت حياتها في المدرسة لا تطاق. فتركت أسمهان المدرسة، واتجهت صوب الفن. ولكنها سرعان ما اكتشفت ضريبة السير على هذا الطريق. تقول: كنت أتألم وأطوي صدري على ما فيه، وأنا مضطرة للغناء أمام جمهور من السكارى يقذفني بالنكات، والألفاظ النابية، وكنت أحس أنني لم أخلق لمثل هذه الأمكنة، فأثور ولكن ما الحيلة، كان يجب أن نعيش، وكان علينا أنا وفريد أن نعمل لنعيل الأسرة. ولقد جعلتني صالات عماد الدين أقف على قدمي ساعات طويلة، أغني من أجل

جنيه واحد، لأحس وأنا في مطلع الشباب بالذل والألم، ولقد رفضت الجلوس مع زبائن الصالة، وكان العقد الذي أوقعه ينصّ على ذلك في أية صالة أغنّي فيها"[1].

وعلى الرغم ممّا رافق البداية من مشاعر متناقضة، فقد كانت أسمهان تحب الغناء، وتغني دائماً لنفسها ولمن تحب. وقد دُعيت لتغني في نادي منصور عام1931، مع فرقة القصبجي الذي تعهد بحراسة أسمهان. ويصف الصحفي محمد التابعي غناء أسمهان في نادي منصور قائلاً: "كنّا نُصغي إلى صوت شجي رقيق، صوت فتاة صغيرة، واقفة على المنصة، دمثة المظهر، تلبس ثوباً أسود، وإزاراً أسود ملفوفاً حول رأسها ووجهها. كانت تحّدق إلى الأمام من غير أن تتلفت يمنة أو يسرة. يا للمشاعر العذبة المحزنة التي أشاعتها. وما لامس روحي في تلك الليلة، كان شيئاً فتياً مكشوفاً محتاجاً، يبحث عن رأفة صادقة، كان ذلك الشيء في ذلك الصوت الحزين النحيل، الذي بلغ أذني أول مرة، شيء ظل يبلغني حتى الساعة، ولم أعد قط إلى صالون ماري منصور ولم أسمع هناك صوت أسمهان مرة أخرى، ولكن لم أنسَ صوتها ولا اسمها[2].

أسمهان وفؤاد

أخذ فؤاد يراقب أخته جراء إحساسه أنه المسؤول عنها، وفي ضوء موقفه من حرفة الغناء وتبعاتها، خاف على أخته الجميلة من العمل في الوسط الفني، وأدرك أن نموها أخذ يكتمل، وإن الرجال ينجذبون إليها، ليس بوصفها مطربة فقط، وإنما لأنها صبية تمتلك الجاذبية التي تأسر قلوب من حولها. وكان فؤاد مفعماً بالتقاليد والمفاهيم التي تربى عليها، وبخاصة المتعلقة بصون العرض،

---

[1] التابعي - مصدر سبق ذكره ص49

[2] المصدر السابق ص16 .

والحفاظ على الشرف الذي ارتبط في ثقافتنا بسلامة سلوك المرأة، فالسموأل يقول:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكـــل رداء يرتديـــه جميـــل

وقد تلّقى فؤاد رسالة من والده تعودُ إلى 13 كانون أول لسنة 1928، وجّهها الأب له ولأخيه فريد يتضّرع فيها إلى الله أن يأمر بالائتلاف كما أمر فيها بالفراق، ثم يدعوهما للحفاظ على سمعة أختهما أسمهان قائلاً: "بخصوص الحبيبة إيميلي يلزم أن تحافظا عليها كما نفسيكما، وعلمّوها الأدب وحسن الأخلاق والحرية، حيث أنتم من بيت عريق في الحسب والنسب... فحذار عليها من البغي والفساد فذلك عار لا يمحى مدى الدهر"[1]. ربما عجلت هذه الرسالة من عودة فؤاد إلى الجبل، وقد وطّن العزم على تأمين الحل المناسب المتعلق بمستقبل أسمهان، ورأى أن الزواج خير سبيل لإنقاذ أخته، وكان السماح لها أن تتزوج من واحد ليس من أبناء الجبل، أمراً لا يمكن لفؤاد تصوره، فوصل الجبل في صيف 1928، وأنشأ صداقة مع الأمير حسن الأطرش ثم كرر زيارته إليه مع فريد عام1929، وكان هاجس زواج أسمهان، هو من أهم دواعي مجيئه إلى الجبل، وحين رجع من رحلته الثانية كان قد صمم على أمر اتفق عليه مع الأمير حسن.

قصة زواج أسمهان:

ما إن وصل فؤاد إلى المنزل في القاهرة، حتى طلب طلباً حاسماً من الضيوف الموسيقيين مغادرة المنزل، وقال لأخته تعرفين أن نساءنا لا يصاحبن رجالاً غرباء، ولا يتزوجن من خارج دائرتهم ومذهبهم، والأمير حسن يريدك

[1] http: //www. Fnoonarabia. com/news_new/2009/7/28002. jpg

زوجة. ولم تكن أمال حينها تفكر بالزواج، وكلمات الإعجاب كانت تنهمر على أذنيها ممن حولها من كل فج وصوب، ولم يخف الرجال حولها رشقها بعبارات الاستحسان، والتغزل بجمال عينيها، ولكن روحها كانت مشدودة إلى شيء آخر، يعبّر عن ذاتها، كانت هذه الروح هائمةً في عالم الغناء الرحب.

حين وصل الأمير حسن الأطرش إلى مصر، أحسّت على الفور أنه مفتون بها، وقد استطاع بخبرته وذكائه أن يثير اهتمامها ويبعث في نفسها الإعجاب، فبدا لها شاباً ربع القامة، أشقر، صارم المظهر إلى حد ما، وسيماً، بل حلو التقاطيع. وقد رفضت الأم هذا الزواج، وربما يعود ذلك من وجهة نظر أسمهان، إلى أنها كانت الأوزة التي تبيض الذهب للأسرة. سافر حسن الأطرش إلى الجبل، دون أن يحسم أمر زواجه، فقامت قيامة الأسرة كما تقول أسمهان "وخشيت أمي على حياتها ولما عاد الأمير للمرة الثانية وافقت الأم على الزواج بشروط تضمن لها حياةً طيبةً، وعيشاً كريماً، فوافق الأمير، وقدّم لها خمسمائة جنيه من الذهب "[1].

وتزوجت أسمهان من الأمير حسن زواجاً تقليدياً ومرتجلاً، تحكمه في النهاية إرادة الأهل ومفاهيمهم، وبخاصة فؤاد وليس من السهل معرفة مشاعر أسمهان الحقيقية من هذا الزواج الذي ارتضته، "ولكنها وضعت ـ شأن أمها — شروطها، فأصرّت على العيش في دمشق، وزيارة القاهرة كل شتاء، وتم الزواج عام1933 "[2]، ليشكل نقلة نوعية في حياتها.،

استمتعت أسمهان في البداية، بالحيوية الدمشقية، فكانت تتجول في سوق الحميدية، مفتونة بتنوع زخارفه وجاذبيتها، وكانت تسمع أغانيها المسجلة على أسطوانات، أثناء سيرها في طرقات دمشق، وتشتري القماش والعطور، وسعت

[1] شريفة زهور — مصدر سابق — ص 100

[2] المصدر السابق ص98

إلى التّكيف مع حياتها الجديدة ما استطاعت، ورغبت أن تتكيف مع الحياة الزوجية، بعفويتها وتلقائيتها وذكائها، ولكن سرعان ما تبين لها أن أحداث الجبل كانت تشغل زوجها عنها، وهي الفتاة التي تتعطّش في مقتبل عمرها لحياة تنعم فيها بالحفاوة وتحظى بالاهتمام.

حاول الأمير أن يقتنص الوقت الذي يتذوّق فيه متعة زواجه بأسمهان، وقد أفلح ذات مرة ببعث السعادة في أعماقها، وذلك يوم اصطحبها إلى بيروت، لقضاء إجازة فقالت له في لحظة من الغبطة والرضى: " إنني أتنازل عن شرطيَ الأول بالبقاء في دمشق وسأرافقك إلى الجبل، وسوف أقضي الشتاء معك متخلية عن شرطي الثاني، أعني السفر إلى القاهرة، فلم تكد أذنيه تصدّق ما سمع فقال لها: أتمزحين، فقالت إنني أعني ما أقول"[1].

أسمهان في الجبل:

كانت الأسرة تملك مقراً للضيافة في السوْيداء، ولكن الأمير حسن يفضل الإقامة في قريتة عرى، التي تبعد عن السويداء 12 كم جنوباً، ومنزله في عرى عبارة عن دار ترمز إلى زعامة آل الأطرش بُنيت عام1878، وهي تشبه الحصن في بنيانها المصنوع من حجارة سوداء. ومن أجل أسمهان قرر الأمير أن يضيف إلى الدار أربع غرف أخرى، ويطلب الأثاث الذي أرادته من دمشق وبيروت.

في عرى، مشت أسمهان عبر المدخل المقنطر للمنزل، وتعرّفت الغرف فوق المضافة، وتطلعت إلى الباحة، ومقاعد المضافة الحجرية، كل ذلك ذكّرها بالقلاع التي قرأت عنها في كتب المدرسة الفرنسية. كانت دار عرى مقامة على قمة تلة، تستقبل الرياح التي تهب في كل اتجاه، وقد حملت أسمهان إلى عرى

---

(1) شريفة زهور – مصدر سابق – ص 51

فطرتها النقية، وحسّها الإنساني، وتفكيرها المفعم بمحبة الخير للناس، ولم تتخطّ حينها الثانية والعشرين. بدأت تمارس حياتها العامة باقتدار، وبما تملك شخصيتها من سحر وتأثير لا يقاوم، كان أكثر الزوار فظاظة، يتخلون عن غرورهم أمامها. ولقد تعاطفت مع شكاوى الناس من ظلم الفرنسيين، ومدّت يد العون لمن يطلبها، وأصرّت على تأمين المياه النقية ونقلها عبر الأنابيب إلى بلدة عرى، وملأت هذه المأثرة عيون أبناء البلدة وقلوبهم بالامتنان والتقدير، وما زالوا يتذكرون هذه الواقعة إلى اليوم. وفي الجبل أقامت أسمهان حفلات فنية، ورقص الضيوف في قصر الإمارة وقد صدح فيه الغناء وعلت أنغام الموسيقى.

كان الأمير مولعاً بالصيد، فتعلمت أسمهان ركوب الخيل على وجه السرعة، ورافقت الأمير وهو يطارد الغزلان والأرانب والطيور، في أرض وعرة، ولم تكن أقل منه قدرة على تحمل مشاق الصيد المقرونة بالمتعة. ووضعت أسمهان جلّ طاقتها من أجل التكيف مع مظاهر الحياة في الريف، والاندماج الحقيقي في قضايا الناس الاجتماعية، إلا أنها بدأت مع الأيام تشعر وكأنها طائر مهيض الجناح، حطّ في أرض وعرة وتحت سماء مكفهرة. فأخذ يعتريها اكتئاب ممتزج بالسأم، حرصت على كتمانه، ولكنها فقدت شهيتها للطعام، وطرأ عليها تغير سرعان ما اكتشفه زوجها، فاقترح عليها الانتقال إلى السويداء حيث تتحرر هناك من الشعور بالكآبة، وتجد البيئة المناسبة التي تروق لها. ولمّا كان الأمير دائم التنقل بين دمشق والسويداء، فقد انعكس ذلك على حياتهما الزوجية فتلفعت بغيوم الحياة العامة القلقة، ولتفادي ذلك شرع الأمير في بناء منزل جديد وكبير في قلب السويداء، واستغرق بناؤه عامين وأُنجز عام1936م، وطلبت أسمهان من العمال، أن يزرعوا أشجاراً دائمة الخضرة حول المبنى، وما زال بعض هذا الشجر حول البيت شاهداً على ذوقها الرفيع حتى اليوم.

في عام1936 ، وقع الفرنسيون مع السوريين معاهدة غيرت وضع الساحل والجبل وضمتهما منّ جديد إلى الوطن الأم ، بعد أن كانت قد قسّمت سورية إلى خمس دويلات ، ومع ذلك ظل الفرنسيون يعبثون بوحدة السوريين ، ويحاولون استمالة بعض أبناء الجبل لإبقائه منفصلاً ، ولكن الأمير حسن الأطرش دعم المعاهدة لصيانة وحدة البلاد ، وكانت أسمهان ناضجة بما يكفي لتفهم مغزى الأحداث ، وما تنطوي عليه سياسة الانقسامات في الجبل. وكان أبناؤه يعرفون مدى قوة شخصية الأميرة ، التي تتيح لها أن تتوسط بينهم وبين الفرنسيين وقد أتقنت لغتهم ، وترافق ذلك مع دورها الاجتماعي والإنساني ، الذي جعل فتيات الجبل يلجأن إليها بوصفها نصيرة للعدالة ، ويُروى عنها أنها حمت إحدى الفتيات في قضية (خطف) وهو ما يلجأ إليه العاشقان ، حين يعترض الأهل على زواجهما ، وقد التجأ الخاطف والمخطوفة إلى بيتها ، فدافعت عن حقهما بالزواج بكل جرأة.

أمضت أسمهان ما يزيد عن أربع سنوات في الجبل ، كانت تلك السنوات مفعمة بالأحداث التي استأثرت باهتمامها ، غير أن حنينها إلى مصر ظل يستيقظ في نفسها من حين لآخر. وقد جعلها ذلك حائرة بين ما هو ممكن ، وما هو غير ممكن. عذّبها توقها لعالم الغناء ، ووصل إلى أسماعها خبر نجاحات فريد ، بعد أن بدأ التمثيل ، وحيّرها تحوّل عاطفتها نحو أمها ، وحيّرها الجبل بما في حياته من وقائع آسرة أحياناً ومنفرة أحياناً. وحيّرها أمرٌ آخر إذ لم تدرك سرّ التغيّرات التي غمرت نفسها ، وطرأت على جسدها لتكتشف أنها حامل ، وبعث ذلك في أعماقها مشاعر غريبة ، ولازمها إحساس دائم بالاختناق والغثيان ، والاشتعال الداخلي. ومما يبعث على الغرابة ، أنها راحت تبحث عن وسيلة تتحرر فيها من حملها فلم تُفلح ، وانبثقت لديها فكرة السفر إلى القاهرة فسافرت ، وهناك التمّ شمل الأسرة والتقت مع أصدقائها من جديد. وفي القاهرة قابلت أحد الأطباء بهدف التخلص من الحمل مرة أخرى ، . ولا يمكن معرفة سرّ إصرارها على

التخلص من حملها، إذ من المعروف أن الرغبة بالإنجاب تمتلك النساء بصورة عامة، غير أن محاولاتها باءت بالفشل. وجاء اليوم الذي ولدت فيه ابنتها كاميليا، وسرعان ما تحولت أسمهان إلى أم.

كان على أسمهان أن تعود إلى الجبل، فتركت ابنتها في مصر، الأمر الذي يخفي رغبتها أن تبقى كاميليا مسوّغاً لزيارة القاهرة، تلك المدينة التي حفرت على صفحة روحها ذكريات عميقة الجذور، فاحتفى الأمير بعودة زوجته إلى البيت، وأقام لها الحفلات الباذخة، وتقاطرت أرتال الضيوف إلى المنزل. إبان هذه الفترة كان الجنرال الفيشي " بيو" يجول في المنطقة، فعرّج على منزل الأمير حسن بالسويداء، وكتب عن أسمهان قائلاً: " إنها لم تتكيف تماماً مع مشاق الحياة في الجبل، فحاولت أن تخلق في السويداء الحزينة، جواً غريباً، كانت تستقبلنا بغير نقاب، وفي ثوب أبيض مكسر، وتتكلم فرنسية واضحة ونقية، تعلمتها في المدرسة، وكان يُقدم لنا الكوكتيل أمام بار من خشب " الماهو جاني " في صالون المنزل، وقد أحاط ضباط فرنسيون وُفرسان في أزيائهم بالأميرة التي كانت تضحك، وهي تشرب مزيج الشمبانيا والويسكي"[1].

على الرغم ممّا يوحي هذا الوصف من رغد العيش الذي ترفل فيه أسمهان، فإنها لم تتردد في عقد صفقة على تسجيل أغانيها حين التقت في دمشق صاحب شركة اسطوانات بيضافون، وأبلغت زوجها أنها قررت السفر إلى مصر، وحين سألها الأمير متى ستعودين أجابت: " إن كنت تطلب مني أن أعود فاحلم بذلك دائماً"[2].

[1] شريفة زهور — مصدر سابق ص110

[2] المصدر السابق ص111

العودة إلى مصر

عادت أسمهان إلى مصر مجددة صداقاتها القديمة، مقيمة صداقات جديدة، أهمها صداقة أمينة البارودي، وهي امرأة حسناء وغنية وجريئة ومتحررة، وأصبحت المرأتان من أكثر النساء ظهوراً في حفلات مدينة القاهرة، وأكثرهن لفتاً للأنظار، واتسعت دائرة أسمهان، وجُذبت إليها بعض كبار المسؤولين المصريين، وأهم الشخصيات الفنية والاجتماعية، وارتفع أجرها في الحفلات الغنائية الخاصة التي تدعى إليها في القاهرة وخارجها. وبدأت تغني في الإذاعة شهرياً، ونالت عن غنائها في أول فيلم دون أن تظهر فيه مئة جنيه. ولكن علاقة أسمهان بأخيها فؤاد تدهورت سريعاً، وكان يُضيره أن تعبث أخته المتزوجة مثل مراهقة، وبدأ يجابهها، معترضاً على سلوكها، محبطاً محاولات خروجها، وكشفت مراقبة فؤاد وقيوده، أن الاستقلالية هي جوهر شخصية أسمهان، فجابهت سلوك فؤاد بالهروب من البيت إلى جهات شتى. نامت على كثبان الرمل تحت النجوم قرب الأهرامات، والتجأت إلى مسكن ريفي لإحدى الأسر الصديقة للأسرة، وسعت هذه الأسرة لإصلاح ذات البين. وذات مرة ذهب فؤاد لإحضار أخته الهاربة فوجدها تغني للفلاحين مأخوذة ببساطتهم، وقد فتنتهم رقتها، ولين جانبها، وجمال صوتها وصدق ابتساماتها. فارتاع مما رأى، وعادت معه إلى البيت يملأ الغم صدرها، غير أنها ما لبثت أن واصلت حياتها، بالطريقة التي تروقها. فكتب فؤاد إلى الأمير حسن، فجاء إلى القاهرة. ووجدت أسمهان نفسها وقد طلب إليها زوجها العودة إلى الجبل أمام أمر لا مفر منه، وكان من الصعب عليها أن تقاوم وبدت هادئة المظهر، مستسلمة لمنطق الحياة الزوجية الطبيعي والصارم.

في الجبل من جديد

ما أن وصلت أسمهان إلى الجبل، حتى أحست بالبون الشاسع بين ضجيج الحياة في القاهرة وصخبها، وما فيها من فتنة وجاذبية، وبين نمط الحياة الزوجية في الجبل، رغم ما يمكن لزوجٍ كالأمير حسن أن يقدمه، ليبعث البهجة في نفس زوجته، وبدأ يأس بعيد الغور يتسلل إلى أعماق أسمهان، حاولت تخطيه على طريقتها، فكانت تنهض قبيل الفجر لتمتطي جواداً، تجتاز فيه كروم بلدة عرى وصخورها، وتصل إلى حقول الخوخ في بساتين بلدة القريا. وذات مرة راحت تهمز جوادها، ليعدو بأقصى سرعة ويسير على حافة الخطر، وكانت الصبايا اللواتي يرافقنها يراقبنها وقلوبهن إلى حلوقهن، وقد نجت يومئذ بأعجوبة. ولعل هذا السلوك، وما فيه من تهور، يكشف بصورة ما عن حالة أسمهان النفسية، ويُظهر ما في أعماقها من اضطراب. كان الزوج – محافظ الجبل آنذاك – في شغل شاغل عنها، فعزمت على الذهاب إلى دمشق، علّها تتعزى وتنعم بالسكينة. فسعى فؤاد الذي كان يرافقها كظلها والذي قدم معها من القاهرة إلى التضييق عليها، مستخدماً الأسلوب ذاته الذي كانت تنفر منه، فرافقت أحد أبناء الأسرة إلى قصر الشرق في دمشق، زاعمة أنها تريد شراء الثياب، وفي الفندق شعرت أن يد القدر القاسية تمسك بخناقها، وامتلأت نفسها بالسأم والاكتئاب، فحاولت الانتحار بتناول كميةٍ كبيرةٍ من الدواء ولكن أُنقذت قبل تفاقم الخطر. وسعت إلى إخفاء الأمر عن زوجها. وخرجت من ذاك الوضع الشائك، الذي كانت فيه مع وصول برقية من القاهرة، تحمل نبأ مرض الأم، فحزمت أسمهان أمتعتها على وجه السرعة، ورحلت مع فؤاد إلى مصر لتطمئن على صحة والدتها.

إمّا الفن وإمّا الزواج

استأنفت أسمهان بعد عودتها حياتها الفنية، فغنت وحققت نجاحاً هائلاً، بدا وكأنه الرد الطبيعي على توقها لمتابعة الفن الذي خلقت له. فطلبت من القصبجي أن يلحن لها، فتلقف دعوتها، ولحّن لها ثلاث أغنيات تباعاً، وعاد

فؤاد إلى سابق عهده، بل تمادى في محاصرة أسمهان ومراقبتها، وتمادت هي في الخروج من البيت ساعة تشاء، واللقاء بمن تشاء، وترددت على أماكن اللهو، ووصل التوتر بينهما إلى الذروة، وكان فريد يميل إلى أسمهان في ضراعها مع فؤاد، مما عذب الأم الحائرة. في هذه الأثناء وصل الأمير حسن إلى مصر، وقصد فندق ميناهاوس في الجيزة، حيث تقيم أسمهان بعد أن صممت على الانفصال عن الأسرة. كانت تجلس مع ثلة من الطبقة الراقية، وحالما وقعت عيناها على زوجها، تركت صحبها لمعالجة الأمر. كان حسن يكتم غيظه وآلامه الشديدة، فبدأت هي الكلام عبر شجاعتها وتوقد ذهنها، مختارة ما تريد قوله، فأكدت أنها حاولت أن تعيش معه، وتتبنى قضيته المناوئة للفرنسيين. قائلة: " وقفت معك من أجل الاستقلال والتحرر، أجل وقفت ولكنني خلقت من أجل هدف آخر، إنني مخلوقة للفن ـ تكلّمت على عجل وأوحت أنها راغبة بالعودة إلى ضيوفها، وكأنها تدفعه إلى قول ما لا يحب قوله ـ فسألها هل تريد الطلاق فأجابته: نعم أريد"[1].

ثمة أسئلة عديدة تتعلق بجوابها! هل كان هذا الجواب يجسّد موقفاً مدروساً صادراً عن محاكمة عقلية مديدة، أم أنه كان مرتجلاً، وليد اللحظة التي كانت أسمهان تشعر فيها بنوع من الحرية، بعد رحيلها عن البيت وامتلاكها الاستقلالية التي تصبو إليها؟ وهل يُعبّر هذا الموقف عن حالة التناقض الأصيل في طبع أسمهان والذي تميزت به على الدوام وتأرجحت على حباله مرات ومرات حائرة معذبة؟. وماذا كان على الأمير حسن أن يفعل؟ لقد جعلته تلك المقابلة مزعزعاً، ولدى عودته إلى الجبل تزوجْ هند علم الدين وذلك عام1939م بحثاً عن التماسك والنسيان. ومع أنه تزوج تسع نساء تباعاً، غير أنه هام بأسمهان، وأعماه حبه لها عن مشكلاته معها. ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى

---

[1] شريفة زهور – مصدر سابق ـ 145

سمات أسمهان المتفردة المختلفة عن زوجاته الأخريات، فقد كنّ بنات بيئتهن، بينما كان عالم أسمهان أرحب، وثقافتها أشمل، وقد رأى كيف تمكنت بمواهبها وحيويتها الخارقة، من جمع أقربائه حوله عبر نشاطها السياسي والاجتماعي.

أما أسمهان فقد كانت تصريحاتها، وسلوكها عامة، بل وأغانيها تساعد إلى حد بعيد على معرفة حالتها فقد أصبحت بعد الطلاق هائمة حزينة، وأمعنت في الشراب. جافاها النوم، وصارت تقضي الليالي خارج المنزل، وأنفقت مع صديقاتها وأصدقائها أموالاً كثيرة بحيث لم تبقِ أحياناً في جيوبها فلساً واحداً.

تقول أسمهان: إن حياتها مع أمها وشقيقها فؤاد أصبحت لا تطاق، كان فؤاد، يتعقبها ويحصي عليها الأنفاس وكان يبتزها ويأخذ نقودها. ولعله لم يكن الأخ المناسب لها بما يحمل في أعماقه من ذكورية شرقية بلغت حدها الأقصى، وقد أثرت رعونته وقسوته في حياتها بصورة جلية، وربما كان العامل الأهم في معاناتها واضطرابها. لقد ضربها ذات مرة ضرباً موجعاً، وسجنها في غرفتها، ولم يسمح لها بالخروج، إلا بعد أن تلفن"أحمد حسنين رئيس الديوان الملكي، مذكّراً بموعد حفلة في بيته تغني فيها أسمهان. كانت بعد تلك الواقعة المؤذية شديدة التأثر، وعزمت ألاّ تعود إلى بيت الأسرة، وقالت في تلك اللحظة": سأعود إلى الجبل، وأُقبل قدمي حسن كي يردني زوجة له، فإذا رفض توسلت إليه أن يبقيني خادمة في داره، وهذا خير ألف مرة من العيش الذي أعيشه"[1].

أكانت جادة فيما تقول؟ أكانت حقاً مصممة على العودة؟ أم كانت أقوالها في لحظة غضب وليدة نفورها من سلوك فؤاد المنفر؟ لم تعد أسمهان إلى الجبل، وقد هدأ اضطراب روحها بعد أن تدخلت أسرة حكمدار القاهرة سليم زكي باشا، صديقة الأسرة فأصلحت الأمر إلى حين.

---

[1] التابعي مصدر سابق ـ ص92

كان القصبجي من أكثر الموسيقيين المصريين معرفة بطبقات صوت أسمهان، وأشدهم اهتماماً بها، ولقد سعى جاهداً أن يقدم لها أفضل ما لديه من ألحان. و أظهرت الألحان الثلاثة التي وضعها للأغاني والقصائد التي غنتها في هذه المرحلة، أنها تُعبر خير تعبير عن حياتها، وعما يجيش في صدرها "فليلى" في القصيدة الأولى تتمنى " أن يرى صاحبها "البراق" ما تعانيه، ولم تكن ليلى سوى أسمهان الحزينة الممزقة من ظلم الأهل:

ليت للبراق عيناً فترى   ما أُلاقي من بلاء وعنا
عذبت أختكمُ يا ويلكم   بعذاب النكر صبحاً ومسا
غللّوني قيدوني ضربوا   جسمي الناحلَ مني بالعصا
فأنا كارهةٌ بغيكمُ   ويقيني الموت شيءٌ يُرتجى

وفي القصيدة الثانية "اسقنيها" وهي قصيدة الشاعر بشارة الخوري تغني أسمهان همومها وعذابات روحها:

أسقنيها بأبي أنت وأمي   لا لتجلو الهم عني أنت همي

أما عمل القصبجي الثالث فكان قصيدة شعبية تجسد عذاب الفرقة والهجر، ولعلّها بوح شجي، لما حدث بينها وبين الأمير حسن:

فرق ما بينا ليه الزمان!   والعمر كله بعدك هوان
فؤادي من حبك مجروح   وقلبي من بُعدك بنوح
تعال شوف يا حبيب الروح   العمر كله بعدك هوان
أسباب شقايا ذُل الفؤاد   والعين ضناها كثر السهاد
إمتى يعود لي عهد الوداد   والعمر كله بعدك هوان

في غمرة هذه الوقائع، بدا صيت أسمهان الفني ينتشر كالضياء، كانت تُسمع من محطة الإذاعة المصرية، وبدأ متعهدو الحفلات يتقاطرون إليها، وكثرت تنقلاتها في مدن مصر وأريافها: يوم في المنصورة، وآخر بكفر الشيخ، وثالث بالمحلة الكبرى، ورابع في طنطا. وكانت الحفلات ترهقها، وطالما أكّدت أنها تضيق ذرعاً بالغناء في الحفلات العامة. وقد دعتها جامعة فؤاد الأول في تشرين الأول عام1940، للغناء تكريماً لمديرها، واحتشد لسماعها نحو خمسة آلاف، من كبار المدعوين وطلبة الجامعة، وغنّت قصيدة للشاعر عبد الغني حسن، وغادرت مسرعة بعد ما يربو على نصف ساعة رغم التصفيق والاحتجاج، وعاتبها مدير الإذاعة قائلاً: "لقد كان أمامك أكثر من خمسة آلاف سامع، يهتفون بعد أن سيطرت عليهم وسحرتهم بصوتك، وكان بمقدورك أن تبقيهم فرحين إلى مطلع الفجر. ولكنك ضيعت على نفسك فرصة لن تعوض"[1].

ودون ريب فمثل هذه الحادثة تلقي مزيداً من الضوء على شخصية أسمهان، وعلى الكيفية التي تتعامل فيها مع الحياة. لقد أحبت الغناء، وكرهت تبعاته، وعذبها الإطراء كما عذبها همس الآخرين المسموم، وأقلقتها الإشاعات التي تسم أجواء الفنانين، وتجعل الواحد منهم ريشة في مهب الريح.

أسمهان وبدرخان

ظل طلاق أسمهان من الأمير حسن جرحاً، ينكأ كلما كثرت الأقاويل حوله، وفكرت من جديد بالزواج من مصري، للبقاء في البلد، بعد أن لاح في أفق حياتها خطر إبعادها عن مصر، بطلب من إدارة الجوازات والجنسية المصرية.

---

[1] التابعي مصدر سابق ـ ص119

وأخذت تبحث عن حل لهذه المعضلة، كان ذلك عام 1941، حين بدأت بالعمل في فيلم "انتصار الشباب" مع المخرج أحمد بدرخان، الذي درس فنون السينما في باريس، وكان من أسرة عريقة وثرية، وقد تنامت الثقة بينه وبين أسمهان، ورأت في الزواج منه حلاً واقعياً لمعاناتها، فرفض الأهل بصورة مطلقة هذا الزواج، فهجرت البيت نهائياً في 7/ 3 / 1941، وانتقلت إلى شقة صديقتها أمينة البارودي، وكان هذا آخر عهدها بالحياة مع أسرتها تحت سقف واحد. وتزوجت أسمهان بدرخان زواجاً عرفياً، ذلك لأن موظفي الدولة المصرية لم يوافقوا على الزواج، إلا إذا أحضرت وثيقة أنها غير متزوجة، ولم يكن باستطاعة أسمهان إحضار مثل هذه الوثيقة، لأنها لم تكن مطلقة من الأمير حسن رسمياً ووثائقياً. وكان ثمة قانون يمنع المصريين من الزواج بأجانب دون مسوغ مقبول. وهكذا كان هذا الزواج سيء الطالع، ولم يحقق الإحساس بالأمان الذي كانت أسمهان تبحث عنه، وتم إلغاؤه ولم يمضِ عليه أكثر من شهر. وقد مزّقت أسمهان عقد الزواج العرفي من بدرخان في لحظة من لحظات توترها وهياجها وصراعها الضاري معه. وشعرت بعد ذلك بمزيد من الكآبة والضعف والإحساس بالمهانة، وراحت تبحث عن أفق آخر يبدد غيوم الكآبة التي أحاطت بها من كل جانب.

أسمهان والحرب العالمية:

كانت معارك الحرب العالمية الثانية آنذاك على أشدها، وكان الفرنسيون منقسمين على أنفسهم بين أنصار حكومة فيشي الخاضعة للألمان، وأنصار فرنسا الحرة بزعامة الجنرال ديغول. وقد وصل ديغول عام 1941 إلى القاهرة، وألقى كلمة في قاعة الجامعة الأمريكية، وكانت أسمهان حاضرة، وقد التُقطت لها صورة وعلى سترتها علقت وسام اللورين " رمز فرنسا الحرة المناهضة للهتلرية ". وكان ديغول قد وضع بالتنسيق مع حكومة تشرشل خطة لاجتياح سورية،

وطرد أنصار حكومة فيشي منها. وكي يسهل تحقيق هذا الهدف، كان لا بد من ضمان موقف أبناء الجبل، الذين في وسعهم منع وصول قوات الحلفاء إلى دمشق. وقد وجدت استطلاعات الدبلوماسية البريطانية السرية في القاهرة، أن أسمهان خير من يقوم بهذا الدور، فجرى اللقاء بها وشُرحت لها عملية الحلفاء بهدف الخلاص من الفيشيين في سورية، وطُلب منها المساعدة على ذلك.

لا شك أن أسمهان قد فكرت ملياً في خطورة المهمة المسندة إليها، كانت تدرك أن ذلك سيشكل انعطافاً في حياتها، تلج فيه حقلاً مليئاً بالألغام، فأوار الحرب العالمية لا زال ملتهباً، والبريطانيون في أحلك فترات هذه الحرب. ورغم أن أسمهان لم يكن لديها خبرة كافية بما كلفت به، ورغم قلقها من مغبة ما طُلب منها إلا أنّها وافقت. ودون ريب فثمة أسباب عديدة لهذه الموافقة، أهمها يعود إلى طبيعة أسمهان، وحبّها لركوب المغامرة والخطر، كما جاءها العرض البريطاني وهي في أسوأ حالاتها النفسية والمادية، بسبب طلاقها من جهة وانشقاقها عن الأسرة من جهة أخرى. وربما استيقظ ماضيها وجعلها تتوجه بأبصارها إلى الجبل، وإلى الأمير حسن بخاصة للخروج من مأزقها المادي والنفسي. وثمة من يشير إلى البعد الوطني الذي نشأت عليه أسمهان منذ الطفولة وحرصها على استقلال بلادها، بعد أن أكد الإنجليز وحلفاؤهم الفرنسيون دعم ذلك الاستقلال. فقد أصدر الجنرال الفرنسي كاترو بياناً إبان تلك الفترة، يفصح عن خطط الحلفاء جاء فيه: "أيها السوريون واللبنانيون، في اللحظة التي تدخل فيها أراضيكم قوات فرنسا، المتحدة مع قوات الإمبراطورية البريطانية، أعلن أنني أتولى تمثيل سلطات فرنسا التقليدية والحقيقية باسم قائدها الجنرال ديغول، وأنا قادم لأنهي نظام الانتداب، وأعلن حريتكم واستقلالكم في لحظة عظيمة من تاريخ فرنسا، وبصوت أبنائها الذين يحاربون من أجل الحرية في العالم"[1]..

[1] شريفة زهور مصدر سبق ذكره ص170

وربما أسهمت هذه الأسباب والعوامل مجتمعة في موافقة أسمهان والإقدام على المغامرة.

تقول أسمهان عشية سفرها ـ لمحدثها ـ مسوغة ما أقدمت عليه كاشفة سرّ رحيلها إلى الجبل، " لا تنس أننا، نستطيع أن نبعث فرساننا إلى القتال، وكم من مرة في عهد الأتراك وصلت طلائع أبناء الجبل إلى دمشق، وهم الذين أشعلوا الثورة السورية الكبرى، "[1].

غادرت أسمهان مصر في 26 أيار 1941، وأقامت حفلة في بيتها قبل السفر للإيهام، وفي هذه الحفلة تعرفت على ماري قلادة، التي أصبحت فيما بعد صديقتها المقربة جداً. وفي صباح اليوم التالي جلست في القطار الذاهب إلى القدس، وهناك وُضعت أمامها التعليمات، التي تنطوي على استدعاء أخيها الأكبر غير الشقيق طلال إلى الحدود الأردنية- السورية، بهدف وصولها إلى الجبل بأمان. وحين وصلت متخفية، اجتمعت بالأمير حسن الأطرش، شارحة الغاية التي جاءت من أجلها. وحين انتهت من إبلاغه رسالتها، قرن الأمير موافقته على ذلك بعودتها إليه، وظهر جلياً ما يخبئ في أعماقه من مشاعر نحوها، تجعله مستعداً للتضحية بكل شيء في سبيل الظفر بها من جديد.

يقول فؤاد مازحاً: " إنها لمفارقة أن يحتاج الأمير إلى قوة هتلر وموسوليني، حتى يتمكن من إنجاح مسعاه الشخصي مع أسمهان"[2]. كانت مثل هذه العودة إلى الأمير حسن خروجاً على العرف وعلى تقاليد الجبل، وكان لابّد من موافقة العائلة وزعمائها على صنيع الأمير المحدث والمثير. وقد وافقت زعامة الجبل على الأمرين معاً، على الزواج وعلى أن تتقدم قوات الحلفاء عبر السهل الواقع غربي الجبل، تجنبا لتلف الزرع والتفريط بالمحصول. وكان على الإنجليز وعلى أنصار

---

[1] شريفة زهور مصدر سبق ذكره ص144

[2] المصدر نفسه ـ ص169

فرنسا الحرة أن يقّدموا ثمن انحياز أبناء الجبل، وزعماء عشائر البدو لهم في مواجهة خصومهم الموالين لحكومة فيشي، وكانت أسمهان هي العّراب لتحقيق هذا الأمر.

مكثت أسمهان أسبوعاً في الجبل، وانتقلت إلى دمشق وأقامت في فندق قصر الشرق في دمشق، وهناك جاء من يخبرها أن الفيشيين قد كشفوا أمرها، وقرروا إعدامها، فهربت مع الأمير فاعور أحد أمراء البدو، بعد أن طلت وجهها بالقار الأسود، وارتدت ثياب عبد ليسهل عليها تخطي الدوريات الفرنسية المناوبة، ولتجاوز الحدود السورية الأردنية مرة أخرى. وثمة رواية تزعم أنها ما إن تخطت الحدود وودعت مرافقها، حتى أخذت تغني ما يطيب لها وتغرد بما يُطمئن روحها، فيتردد صدى صوتها في الفضاء الرحب.

وصلت أسمهان إلى الأردن، وعادت إلى الجبل من جديد، برفقة القوات البريطانية، وقوات فرنسا الحرة حيث تم طرد الفيشيين، واستعادت أسمهان اسم الأميرة، بعد أن طلّق الأمير حسن هند علم الدين وتزوجها. وانتشر خبر الزواج في مطلع تموز 1941، وكان يوم الزواج الذي أقيمت مراسمه في العاصمة، حدثاً مشهوداً حضرته شخصيات بارزة من ضباط الحلفاء بينهم الجنرال كاترو، والجنرال ديفيس، وإدوارد سبيرز الذي يقول:

" رأيت أميرة آل الأطرش أول مرة في الحفل الكبير، الذي زفت فيه إلى الأمير ثانية.. كانت رائعة في تلك الأمسية التي لبست فيها ثياباً أوربية، وعلمت أنها أجمل بكثير في الثياب العربية. لقد كانت وستبقى أجمل النساء اللواتي رأيتهن في حياتي، كانت عيناها خضراوين مثل لون البحر الذي عليك أن تمخره في طريقك إلى الفردوس، كانتا معطوفتين إلى الأعلى عند الطرفين مثل جناحي نورس"[1].

---

[1] شريفة زهور مصدر سبق ذكره ص177

وكتب المراسل الحربي لوكالة الأنباء التابعة للقوات الفرنسية الحرة يقول:

" أُحتفل بدمشق بزواج الأميرة آمال الأطرش، بابن عمها الأمير حسن، وأدلت بتصريح قالت فيه: " لقد ودّعتُ الحياة الفنية وداعاً أخيراً، لأنصرف إلى الحياة الزوجية فأجعلها سعيدة هانئة، وإلى خدمة بلادي وأهلي بالاشتراك مع زوجي، وهذه أمنية عزيزة عليّ محببة إلى نفسي"[1].

وتتفق آراء بعض ممن تحدث عن أسمهان بهذه المناسبة على أن جمالها ساحر، وحفلت آراؤهم باستخدام المجاز والتفنن البلاغي في وصف هذا الجمال، وبخاصة جمال عينيها وقد كتب الضابط البريطاني ـــ Steven Hastings يقول: " كان الواحد يراهما داكنتين، والآخر يبدوان له مثل كهرمان مغبّش يصدر ضوءاً ثاقباً مثل شمس وراء ضباب مدينةHighland ــ ـ عينان نجلاوان خضراوان متحديتان تستحوذان عليك كأنك مثبت على شعاع راداري"[2]. " كما يُروى أن الجنرال البريطاني ديفيس" وقع في حبها، وعرض عليها الزواج، وكان ذلك سبباً في إنهاء مهمته وإعادته إلى بريطانيا بعد أن اشتعلت غيرة المحيطين بأسمهان من الجنرالات الإنجليز"[3]، فأوقعوا به.

بعد طرد أنصار فيشي، ركب الأمير حسن وأسمهان جوادين، وسارا في دمشق المحررة ترافقهما سرية من الفرسان شاهري السيوف، وقد كوفئ الزوجان باحتلال مقعدين على المنصة قرب ديغول، في حفل الاحتفاء بالنصر، والتقطت لهما صور مع ديغول مجتمعين ومنفصلين[4].

---

(1) التابعي ص159

(2) لمصدر نفسه ص126

(3) سعيد الجزائري – أسمهان اللحن الخالد – بيروت – 1990 ـ ـ ص 40

(4) المصدر نفسه ص178

توفي عبد الغفار الأطرش عام1942، وكان آنذاك وزيراً للدفاع في الحكومة السورية. فعقد آل الأطرش اجتماعاً في فندق أمية، لاختيار خلف لعبد الغفار، يرضى بالمنصب، وقد توجهت أسمهان إلى سلطان الأطرش مباشرة سائلة إذا كان يقبل أن يكون وزيراً للدفاع، فرفض وأيدت رفضه بوضوح، ولعلّها أرادت بذلك أن ترى زوجها يتقدّم، ويصبح وزيراً للدفاع وهكذا كان[1].

حياة صاخبة

برز في غمرة هذه الأحداث السريعة، والخصبة، والمتدفقة، تأثير كبير على حياة أسمهان، تمثل بنزوعها نحو الترف، والغنى، والبذخ فهي زوجة أمير ووزير دفاع، كانت تعيش في منزلها في ساحة سرسق بدمشق، وكانت تتنقل كما يحلو لها بين فندق القديس جورج وفندق قصر الشرق، و تتجه إلى صوفر في بيروت لتنعم بالهواء العليل، وتميزت بالإسراف الأسطوري، وكأن المال الذي يصل إلى يديها يحرق راحتيها، فتعمد إلى الخلاص منه، وقد التفّت حولها في بيروت بعض السيدات، والآنسات من أكبر الأسر اللبنانية الشهيرة، يتملقنها ويحطنها بمظاهر الإجلال والإكرام، طمعاً بمالها وبنفوذها وبمكانتها لدى السلطات الفرنسية والإنجليزية، فاستُثمرتْ هذه المكانة ونجحت وساطتها لديهم، لتجني بعض الأسر اللبنانية من وراء ذلك الأموال، والأرباح الطائلة. "واعتادت الأميرة في تلك المرحلة على زيارة القدس في أيلول، والنزول في الجناح الملكي، لتعيش في الفندق حياة الأميرات، وتُقيم في صالونه الكبير الملحق بالجناح الملكي حفلات الاستقبال التي تّذكر بما يحدث في أي بلاط عريق"[2]. وأصبح هذا الفندق مسرحاً من أهم المسارح المتعلقة بحياة أسمهان، فالفندق مركز الضباط الأجانب، وملتقى رجال السياسة وأعيان المنطقة، وعلى هذا

---

[1] زهور – مصدر سابق - ص185

[2] التابعي – مصدر سابق - ص190

المسرح جرى تنافس بين الملكة نازلي، وأسمهان لاحتلال الجناح الملكي في الفندق. وفي هذا الفندق جُمعت عن أسمهان قصص، واختُلقت أقاويل، وتعددت شائعات، تفننت في وصف تناولها المفرط للكحول، حتى الإدمان، وسهرها حتى الصباح، وهي تدخن دونما توقف، والناس بصورة عامة يقرنون بين المطربين وشتى الرذائل، فالتدخين وتعاطي الكحول يتعارض مع الأنوثة والأخلاق، وقد يتسامح المجتمع مع مدمني القمار والإنفاق المفرط، ولكنه ينتقد إفراط النساء في الإنفاق، ولا يتصورهن مقامرات.

كان الأمير حسن غارقاً في مهامه الجديدة، ونشاطه السياسي حتى أذنيه، ولم يبال في البداية بتنقلات أسمهان، وما يروى عن حفلاتها، ولولا كثرة نفقاتها لظل تاركاً لزوجته الحبل على غاربه، غير أن نفقاتها بلغت حداً جعلته يخشى أن تبذر أسمهان ماله كله. وكان عليه أن يحدد المبالغ المعطاة لها. كانت أسمهان تتلقى مال زوجها، وتتلقى أيضاً مال البريطانيين تقديراً لما قامت به، ولكن علاقتها بالبريطانيين أصيبت بالفتور لأسباب مختلفة، منها ضعف السرية لديها، ومنها تبذيرها الذي لا حدود له. فقدم لها الفرنسيون الدعم المالي بهدف استمالتها. وقد أنفقت أسمهان المال يمنة ويسرة، ولعل هذا يتعلق بطباعها الخاصة، فأخوها فؤاد يعد ذلك نزعة متأصلة في شخصيتها. كانت سخية إلى درجة أسطورية كما يقول التابعي فقد " رأت ذات مرة، امرأة شابة في ملابس رثة ممزقة، قد افترشت بلاط الشارع وأسندت رأسها إلى الجدار، وهي في سبات عميق، وعلى صدرها يرقد طفل رضيع، أحاطته بذراعيها، نظرت أسمهان إليهما وفتحت حقيبتها، وأخرجت ورقة مالية دستها في صدر المرأة، فأفاقت مذعورة مستردة طفلها من أسمهان، التي طمأنتها فنظرت إلى الورقة المالية وكأنها لا تفهم، لأن هذه البائسة لم ترَ طوال حياتها ورقة مالية بهذه القيمة وقد تكون هذه الورقة هي كل ما كانت تملكه أسمهان في تلك الآونة"[1].

---

[1] التابعي – مصدر سابق ـ ص90

لقد أقامت في فندق صوفر الكبير في لبنان، يحيط بها حراس تمنطقوا بخناجر مزينة بخيوط الذهب والفضة، يقدمون لها عقود الزهر كل صباح وكل مساء"[1]، وكانت تنثر عليهم نقودها بسخاء لا يُصدق، كما كانت تغدق المال على الفقراء والفنانين والموسيقيين أيام شهر رمضان. وقد دُعيت يوم ذكرى سقوط الباستيل إلى مقر الجنرال كاترو. كانت ترتدي حجاباً على الطريقة المصرية، وقد أعطت كل جندي قدم لها التحية مئة ليرة، وكان لليّرة قيمة ذهبية آنذاك، ومن الطريف أن الجو كان حاراً، وكانت أسمهان تتصبب عرقاً، وفيما كانت تمسح وجهها لمح كاترو (مسدس براوننغ) في حقيبتها فقال لها: "ويحك يا أميرتي أتيت إلى مقري حاملة مسدساً، أنا لا أخشى إلا أمثالك."[2]

كان إسرافها حديث الناس، وحين عصفت المجاعة بفقراء لبنان، خصصت الأميرة يوم الاثنين من كل أسبوع، لتوزيع الطحين مجاناً على الناس، وعممت ذلك في الصحافة.

خلاف أسمهان مع الحلفاء:

كانت التقديرات المتعلقة بنتائج الحرب العالمية الثانية محيرة، وشاعت فكرة انتصار المحور، في وقت استطاعت فيه قوات هتلر أن تجتاح أراضي الاتحاد السوفياتي الشاسعة، وتقترب من العاصمة. وكانت أسمهان آنذاك قد لاحظت هي والأمير حسن، أن ضمانات الاستقلال التي وعد بها كاترو السوريين واللبنانيين لم تتحقق، ، بل ذهبت أدراج الرياح، جرّاء سياسات الحلفاء الاستعمارية القائمة على التعاون والتنافس بآن معاً، وجراء أطماع كل دولة منها في البقاء على الأرض السورية، وقد ترافق ذلك مع تصريحات ومواقف

[1] التابعي – مصدر سابق ـ ص205
[2] زهور ـ ص187

متناقضة لكلا الفريقين، فقد كتب آنذاك الضابط البريطاني ليتلتون إلى الفرنسيين "أود أن أغتنم هذه الفرصة لأؤكد لكم أننا نحن البريطانيين، نعترف بالمصالح التاريخية لفرنسا في المشرق، وليس لبريطانيا العظمى أية مصلحة في سورية أو لبنان ما عدا كسب الحرب.[1] بينما كان الفرنسيون يؤكدون أن لبريطانيا رغبة حقيقية في البقاء على الأرض السورية. كل ذلك أسهم في ظهور شعور شعبي سوري مناهض للفرنسيين، وللغربيين عامة، وكان بعض الضباط الفرنسيين آنذاك يثيرون غضب أبناء الجبل بتصرفاتهم الرعناء، ويُذكر هنا أن أسمهان بذلت جهداً كي تخلّص الجبل من غطرسة الكولونيل "بوفيه" وعسفه. وكل ذلك جعلها تفكر جدياً في مجابهة سياسة الحلفاء، ولعلّ ذلك كان سبباً رئيسياً في موافقتها على إقامة صلات مع المحور، ومثل هذا التغير لم يخلق بمحض المصادفة، بل كان هناك العديد من السوريين يرون في ذلك، شكلاً من أشكال مجابهة تنكّر الحلفاء لعهودهم.

ركبت أسمهان سيارة أجرة إلى طرابلس، ثم مضت بالقطار إلى حلب في طريقها إلى استانبول أواخر عام1942، " وحسب قول شقيقها منير - وهو شاهد عيان رافق أسمهان التي لم تذهب وحدها — أخرجها الجنود البريطانيون من المحطة قبل أن يركبا القطار، مدعّين الخشية على حياة الأميرة، وعادوا بها إلى بيروت، ثم أنهم قيدوا حركاتها، وفرضوا عليها الإقامة في بيروت "[2]. ومن الجدير بالذكر "أن صلات أسمهان السياسية المتنوعة والمعقدة والمتبدلة، قد أطلقت العنان فيما بعد لأقلام بعض الصحفيين، على اختلاف مواقعهم وانتماءاتهم، لاتهامها بعلاقات مع الاستخبارات البريطانية، والألمانية، والفرنسية، وبلغت تلك الاتهامات، حد القول إنها كانت ترفع التقارير الخطية،

---

[1] زهور - ص180

[2] المصدر نفسه — ص 191

لأجهزة المخابرات الفرنسية والبريطانية في آن معاً، غير أن طبيعة أسمهان الخاصة وما اتسمت به من شعور بالأنفة، ومن الإحساس العميق بالأصالة، ينفي عنها إلى حد بعيد تلك الاتهامات. ويمكن الإشارة هنا إلى ما كتبه "كيم فيلبي" الذي اخترق أجهزة الاستخبارات البريطانية عاملاً لمصلحة روسيا، ، فقد كشف عام 1963، أسماء المسؤولين والسياسيين العرب، الذين تعاملوا مع الاستخبارات البريطانية على مدى عشرات السنين، ولم يذكر أسمهان في عدادهم"[1].

لم تستمر إقامة أسمهان الجبرية التي فرضها الإنجليز عليها طويلاً، واستأنفت حياتها وزياراتها ورحلاتها، ولكنها أصبحت مسكونة بالتوتر والقلق، وذات يوم "تلقت وهي في غرفتها مكالمة من مكان قريب، ولعلعت طلقات، وكادت أن تصيبها حين تحركت للرد على الهاتف، ولم يُشاهد أحد هناك. غير أن الفرنسيين والبريطانيين ما انفكوا يتعقبون المرأة التي يمكن أن تؤذيهم بلسانها "[2]. لقد تناقلت الصحف الخبر، وكان له دوي في الجبل، إذ نزل الناس للشوارع وهم يهتفون بغضب ضد الفرنسيين والإنجليز. ولازم أسمهان الشعور بعدم الأمن، ووصلت إلى يقين بأن بقاءها في سورية ولبنان أصبح مستحيلا فطلبت، في غمرة هذه الأحداث من زوجها، السماح لها بالذهاب إلى مصر، لزيارة ابنتها كاميليا، فما كان من الأمير إلا وسافر إلى مصر لإحضار ابنته. ودعا السلطات الفرنسية إلى عدم السماح لأسمهان بالسفر خارج لبنان أثناء غيابه، ولشدّ ما أغضبها ذلك، ولم تحصل على موافقة كاترو بالسفر، إلا بعد عودة الأمير. فانتقلت إلى فنذق الملك داود بالقدس وأحسّت أنها مريضة ووحيدة، وأن إحدى رئتيها مصابة، فاستدعت صديقتها ماري قلادة من مصر للعناية بها، وجاء الأمير حسن ليعود بها إلى منزله، وزعمت أسمهان أنه لم

---

[1] سعيد الجزائري ـ أسمهان – مصدر سابق ـ ص152

[2] شريفة زهور – مصدر سابق – ص 204

يأتِ ليطمئن على زوجته إثر مرضها، بل جاء غاضباً ليقول: إن صبره قد نفد بسبب سلوك زوجته، فإذا أقام في السويداء أقامت في دمشق، وإذا جاء إلى دمشق انتقلت إلى بيروت، وإذا حضر إلى بيروت، فإنها تتذرّع بضرورة الذهاب إلى القدس، وقد أصبحت في هذا السلوك حديث الناس.

خشيت أسمهان المريضة، من أن العودة مع زوجها ستحد من قدرتها على الانتقال كما يحلو لها، وأصيبت بحالة اكتئاب شديدة، وتراءى لها الانتحار مخرجاً، "وقد دخلت المشرفة إلى غرفتها فوجدتها هامدة، فدعت طبيباً وأسهم بإنقاذها من الموت، وفوجئ الأمير بذلك، فدخل عليها متألماً، وأدرك أن عودتها معه أمر عصي عن التحقيق فتركها ورحل"[1]. وربما كان يخالجها الشعور بأن العيش ضمن دائرة نفوذ الأمير في سورية ولبنان غير محتمل، وبدأت تفكر بالعودة إلى مصر.

العودة إلى القاهرة:

تلقت أسمهان عرضاً سينمائياً من أستوديو مصر، أوائل عام 1944، وطلبت أجراً عالياً وصل إلى سبعة عشر ألف جنيه، وهو أعلى أجر يمكن أن يتقاضاه الفنان آنذاك، ولم يسمع به من قبل.

كانت أسمهان تعرف صعوبة العودة إلى مصر، فثمة إرادة مصرية تعترض على إقامتها في القاهرة، وكانت فكرة الزواج بمصري هي السبيل الذي يسهل لها العودة، مع أنها لم تكن في أعماقها راغبة أن تهوي في لجة زواج آخر. وقد وصلت في تلك المدّة الراقصة تحية كاريوكا، وزوجها أحمد سالم إلى فندق الملك داود، واتفق أحمد سالم وأسمهان بصورة مفاجئة على الزواج، في غياب تحية

---

(1) زهور ـ مصدر سابق ـ ص198

كاريوكا التي كانت تحيي إحدى حفلاتها خارج القدس. وثمة روايتان مختلفتان لهذا الحدث إحداهما تقول إنها أعلمته أن الزواج منه وسيلة دخول إلى مصر، وستدفع له خمسة آلاف جنيه مقابل ذلك فوافق. والثانية تقول إن أحمد سالم استغل غياب زوجته، وعرض على أسمهان الزواج عرض العاشق، فوافقت وطلق على الفور تحية كاريوكا.

كان باستطاعة سعيد زكي مدير إدارة الهجرة والجوازات الحيلولة دون عودتها، رغم زواجها بأحمد سالم. غير أنه تلقى تقريراً من قنصلية مصر بالقدس، يفيد أن حياة أسمهان مهددة بالموت من الناقمين عليها. فسمح لها بدخول مصر وقابلها ليقول لها: " إننا نعدك ابنة مصر، لأنك أمضيت فيها سني حياتك، أكثر مما أمضيت في وطنك، ولا مانع عندنا مطلقاً من أن تقيمي هنا ما طابت لك الإقامة "[1]، ويمكن قراءة ما جاء بين السطور في هذا اللقاء، فهي تبين أن السلطات المصرية، وليس السلطات الأجنبية وحدها كانت تتعقب أسمهان، وترصد تحركاتها.

لم تكن حياة أسمهان مع أحمد سالم أفضل من حياتها مع بدرخان، فتبعات الزواج وقيوده الموضوعية هي هي. وإن اختلفت طبيعتها، وقد أظهرت حياة أسمهان الزوجية القصيرة والمتقطعة، أنها نموذج للمرأة المشبعة بالتفرد والاستقلال. فسلوكها ينبعث عن رغبة دفينة في أن تصنع ما تشاء، وتلتقي من تشاء، وتسافر مع من تشاء، وحيث تشاء، ولم تكن الطاعة ولا الهدوء ولا الاستقرار من طبيعتها، وهذه كلها من أركان الزواج الطبيعي.

بدأت أسمهان العمل في فيلمها الجديد " غرام وانتقام " وكانت تعيش في منزل أحمد سالم، وكان الزوجان متماثلين في العناد والمزاج المتفجر. وسرعان ما

---

[1] التابعي ـ مصدر سابق ـ ص253

بدأ أحمد سالم يضيق بسلوك أسمهان، وحين راح يستوضح عن تصرفاتها في غدوّها ورواحها غير آبهةٍ برأي زوجها، تفاقم الأمر بينهما. أكدت أسمهان أنها حرة، وإنها ليست المرأة التي تُسأل أين ذهبت؟ وبمن التقت؟. وفي ذروة إحدى المشاجرات أطلق أحمد على أسمهان الرصاص من مسدسه، فلجأت إلى الجيران وأبلغت الشرطة، فحضروا وحاول ضابط الشرطة الإمساك بأحمد شاهراً عليه مسدسه، وأدى الشجار بينهما إلى خروج إحدى الرصاصات فجاءت برئة أحمد سالم فنقل إلى المشفى.

أما أسمهان فقد خرجت للعمل في فيلم غرام وانتقام، وبعد العمل لم تعد إلى البيت، بل توجهت مع صديقتها ماري قلادة إلى رأس البر، بهدف الاستراحة والخلود إلى السكينة والهدوء بعد العاصفة الزوجية، وفي الطريق كانت السيارة تسير محاذية القناة، فرمى السائق نفسه بعيداً عن القناة، فهوت السيارة فيها، وغرقت الصديقتان لتتحول هذه المأساة المروعة إلى حدث مدوٍّ وأكمل هذا الموت المبكر تراجيديا الحياة بتراجيديا الموت.

لقد تعددت الآراء في تفسير ما جرى، وكثرت التساؤلات حوله: هل كان مدبّراً بفعل الغيرة والتنافس الفني المعروف، الذي نشأ بين أسمهان وأم كلثوم؟ أأيادٍ بريطانية تختفي خلفه؟ أم كان لهذا الموت سبب آخر يتصل بمجرى حياتها الزوجية؟ هل يتعلق بحسابات بين قوى محلية تتقن تدبير حوادث القتل والتصفيات؟ كانت أسمهان التي استيقظت باكراً صباح الجمعة 14 تموز ترغب الذهاب إلى رأس البر بالقطار فهل المصادفة هي التي جعلت السائق يقترح عليها أن تذهب بسيارة من استوديو مصر الذي يعمل فيه، بحجة أن مقاعد القطار كلها محجوزة؟ وهل من قبيل المصادفة أن تكون تلك السيارة ببابين بحيث يصعب الخروج منها؟ ثم ألا يبعث على الشك ما ورد في محضر الشرطة أن السائق مجهول؟ لقد وصلت أسمهان حيّةً إلى المشفى وبدا وكأنما ثمة إرادة سياسية منعت إنقاذها بإجراء عملية جراحية ناجحة، كل هذه التساؤلات وغيرها ما زالت

قائمة حتى اليوم فموت أسمهان التراجيدي انطوى في غياهب الزمن كاللغز ينتظر من يفك رموزه.

أسمهان وهاجس الموت

سيطر هاجس الموت المبكر على أسمهان، وعبرت عن مخاوفها منه مراراً، وكانت بذلك تصغي إلى صوت داخلي ينبعث من أعماقها، وإلى حدس نادر الوقوع. فكانت تخاف مما يخبئه لها المستقبل، وتخشى تصاريف الزمن وكانت كثيراً ما تهمس لصديقاتها وأصدقائها، أنها لن تعيش طويلاً وهذا ما جعلها لا تبالي إلا بنداء حياتها الداخلي، وأقصى مناها أن تروي ظمأها للحياة كما يروق لها قبل الرحيل، وهذا ما جعل نصائح الناصحين لها، كي تكف عن الإسراف في التدخين والشراب دونما جدوى يقول الكاتب مصطفى أمين " إنها كانت تتصرف وكأنها في زيارة خاطفة للدنيا"[1]. لقد صاغت عن دراية قدرها، وفهمت وضعها المفتقر للأمان، وتقبلت الضعف البشري ضعفها، وضعف الاخرين حولها، وظل هاجس الموت يخترق علاقاتها. ولعل من المصادفات العجيبة ـ كما يروي التابعي " أنها كانت في طريقها إلى رأس البر تتمرن على غناء قصيدة المعرّي:

غير مجدٍ في ملتي واعتقادي   نوح باك ولا ترنم شادِ

وقرب المكان الذي ماتت فيه، كان ثمة آلة بخارية يقترب صوتها ويعلو، وحين وصلت أسمهان إلى قول المعرّي:

صاحِ هذي قبورنا تملأ الرحب   فأين القبور من عهد عادِ

---

[1] التابعي ـ مصدر سابق ـ ص 126

تقلصت عضلات وجهها، وغشي صفاء عينيها رعب مباغت، وأخفت وجهها بيديها، وبعد لحظات، وقد اختفى صوت الآلة البخارية قالت أسمهان: "لقد خيِّل إلي أنها دقات دفوف الجنازة وأنا ما سمعت هذا الدق مرة إلا انتابني رعب شديد، وفي السويداء بالقرب من دار الأمير آلة للطحن، كنت أتحاشى المرور بالقرب منها حتى لا أسمع صوت دقاتها لأنه يذكرني بقرع دفوف الجنازة[1].

مكانة أسمهان الفنية

أحب الغناء، أحب أن أغني دائماً، أغني لمن أحب، ولمن أرتاح، هذه الكلمات كانت ترددها أسمهان دوماً، فتعبر عن رؤيتها لفن الغناء، وتقوم هذه الرؤية بداية على الحب. والتجربة الإنسانية توضح بجلاء أن حب عمل ما هو أهم عوامل النجاح فيه. ودون ريب فإن آثار أسمهان الفنية هي التي جعلت منها امرأة مشهورة، ولقد أحرزت تلك الشهرة بالتأدية الواضحة المرهفة للمعاني، وبطريقتها في الأداء. كما يقوم نجاحها على تمكّنها من اللغة العربية التي تتكلمها النخبة، وعلى أسلوبها العاطفي المناسب لكلمات هذه اللغة، وإضفاء إحساسها على عباراتها.

كانت نصوص أغانيها تشتمل على القصيدة، وعلى المقطوعات الشعرية للمونولوج: (الشكل الأحدث للقصائد المغناة بصوت منفرد) وعلى الطقطوقة: (الأغنية الخفيفة باللهجة الشعبية) وعلى الديالوج: (الغناء الثنائي). وتعددت موضوعات أغانيها وتراوحت بين الحب، والمدح، والأغاني الوجدانية، والتاريخية والاجتماعية. وكتب أغانيها عدد من المؤلفين أشهرهم: أحمد شوقي، وأحمد رامي، وبيرم التونسي، ويوسف بدروس وغيرهم.

---

[1] التابعي – مصدر سابق - ص106

ولقد قسّم النقد الموسيقي في مصر عمل الفنانين إلى مراحل تعكس المناخ الاجتماعي في القرن العشرين، فالثلاثينات مرحلة " الرومانسية " والأربعينات مرحلة " الأغنية " الشعبية " والخمسينات مرحلة " الكلاسيكية الجديدة " وبعد ذلك بدأت مرحلة " الأعمال الفنية المستحدثة " غير أن أسمهان اختزلت هذه المراحل، وأنتجت عام 1941، أعمالاً يمكن تسميتها: رومانسية، وشعبية، وكلاسيكية جديدة، وحديثة، واستطاعت أن تفلت من التصنيف المرحلي، ويعود ذلك إلى تعدد مواهبها، وتطور غنائها، فبراعتها الصوتية، وأداؤها المثير للإعجاب، اعتمدا على تراث الأغنية العربية القديم، مما جعلها تستوعب نظام المقامات، مع إدماج هذا الاستيعاب في الغناء المرتجل، وقد استفادت من المزايا الشعرية للغة العربية بغية خلق ديناميكية، ولبعث تواصل غنائي وعاطفي مع جمهورها، وأظهر ذلك كله قدرتها الفائقة على ترجمة الموضوعات الغنائية ترجمة خلّاقة، وهي التي أتاحت للجهور أن يتذوق فن الطرب الذي لا يحسنه إلا مطرب متفوق ففي أغنية: "هل تيّم البان" زينّت أسمهان البيت بنغمات منسابة انسياباً سريعاً ومؤثراً، رغم العبارات الطويلة، وغلب التحكم في الصوت على الأداء، وأضحت بعد غنائها هذه القصيدة الفريدة الطويلة—كما يقول صميم الشريف ـ قمة في الغناء، وقمة في الأداء تغني بصوتها الشجي على الدنيا، وتشع بها الدنيا" [1].

كما أن النغمة الأدبية، والتوزيع القديم للموسيقى، والسمة الكلاسيكية هي الغالبة على أغنية " أسقينها بأبي أنت وأمي" وفيها تتضح الرشاقة الصوتية، والقوة غير العادية، والإلقاء المركز.

وتُعد أغنية " رجعت لك "مثالاً بديعاً على العمل المحكم، والتنغيم الحاد، والتعبير الحديث، وفيها يبرز سعة صوتها.

---

(1) صميم الشريف — الأغنية العربية — دمشق — وزارة الثقافة — 1981 ص ـ 221

غنت أسمهان عدداً من الأغاني بكلمات وألحان بسيطة ووثيقة الارتباط بالموضوعات الشعبية السورية والمصرية. ولحن لها عبد الوهاب أغنية " محلاها عيشة الفلاح "، ولحن لها أخوها فريد " أيدي في أيدك "و " يا بدع الورد " وقد تقدمت الصفوف في عالم الغناء، لأنها استطاعت تطعيم الغناء العربي بقواعد الغناء الأوربي في وقت مبكر، ولم يكن التأثر بالغرب مجرد محاكاة من جانب أسمهان، وملحنيها الذين اقتبسوا من "بيتهوفن" ومن " تشايكوفسكي". بل هو تأليف جديد وكما يرى الشريف "فإن أغنية " فرق ما بيننا " ليست امتزاجاً ناجحاً للقديم والجديد بل إنجاز موسيقي حقيقي". [1]

كما أن أغنية "المحمل الشريف" من القوة بحيث تبدو أسمهان وكأنها مقرئة تتقدم جمعاً من المنشدين إلى المركز الروحي للعالم الإسلامي:

عليك صلاة الله وسلامه

شفاعه يا جد الحسنين

دا محملك رجعت أيامه

هنيه وتملي به العين

يقول الدكتور زكي مبارك " إنه ما سمع غناء أشد كآبة من هذا الغناء ولا صوتا أعمق حزناً من هذا الصوت[2]"

ويروى أن من أحب الأغاني إلى قلبها أغنية حزينة دامعة، وهي منظومة لشاعر لبناني فقد شقيقه الصغير الوحيد وبكاه بألفاظ هي قطرات من ذوب قلبه كانت تبدأ الأغنية ومطلعها " أنا والنار" وهي جالسة بين أصحابها، "ولكنها لا تكاد تمضي في غناء هذه المرثية بين الآهات والزفرات المحرقة، حتى تتهاوى من

---

[1] المصدر نفسه – ص 229

[2] شريفة زهور ـ مصدر سابق ـ ص 130

مقعدها إلى أرض الغرفة وتنهي غناءها في همس ممدود، وقد أخفت وجهها بيديها ودموعها تبلل السجاد"[1].

ولعلّ محمد القصبجي هو أكثر الملحنين الذين تميزوا بالوفاء لأسمهان، وحين سمعها لأول مرة، امتلأ محياه بالدهشة وقال: " إن هذا الصوت من الفردوس"[2]، وكانت أسمهان تجسد عبقريته، ولما رحلت لم تجد تلك الطاقة الموسيقية الخلاقة متنفساً لها، أما السنباطي فقد لحن أغنية " حديث عينين " لأم كلثوم:

يـــا لعينيـــك ويـــا لـــي ... مـــن تـــسابيح الخيـــال

فيهمـــا ذكـــرى مـــن الحـــب ... ومـــن ســـهد الليـــالي

وبعد أن عزفت أم كلثوم عن أداء الإيقاعات الصارمة لموسيقا السنباطي في تلك الأغنية، اقتنع بإعطاء اللحن لأسمهان فنجحت حيث لم تنجح أم كلثوم، ومرة ثانية أفلحت أسمهان في تقديم أغنية "يا طيور" التي لحنها القصبجي وضّمنها مقطع السبرانو.

وتتجلى براعة أسمهان الفنية في أغنية " يا ديرتي" :

يـا ديرتي مالك علينا لوم

لا تعتبي لومك على من خـان

حنا روينا سيوفنا من القوم

مثل الردي ما نرخصك بثمان

وإن ما خذينا حقنا المهضوم

يـا ديرتي ما حنا لك بسكـان

---

[1] التابعي – مصدر سابق ـ ص118

[2] المصدر نفسه – ص 167

ولهذه الأغنية مكانة أثيرة في نفوس أبناء محافظة السويداء بخاصة وتتجلى قوة الكلمات في مماهاة المغنية مع بيئتها ونضال شعبها الوطني، " وهي تستحضر شعرهم الشعبي في مقاومة الظلم والاحتلال، سواء أقدمت عليه سلطة عثمانية، أم فرنسية أم بريطانية وتربط معاني هذا الشعر معارك الجبل بميسلون بدنشواي وغزة، وبكل المعارك والانتفاضات التي جرت وتجري، وتعبر عن علاقة أسمهان بأسلافها وبقريبها سلطان المجاهد العنيد في سبيل الاستقلال "[1].

وتنبع أهمية الأغنية الفنية في مدى السيبرانو الدرامي الذي لا يستطيع أي مغنٍ أن يمضي به بقولها: " ما نرخصك بثمان " إلى نهاية المقطع. بينما يسود في أيامنا الأداء الرديء التبسيطي، الذي تؤديه المغنية بجسدها ومفاتنها لا بصوتها.

إن تجربة أسمهان الفنية تشير بوضوح إلى قيمتها ومكانتها التي تمثلت في صوتها، وفي ما تركته من إرث فني هام، ومن تجربة موسيقية – غنائية لم تتكرر فأشكال الغناء مثل الأوبريت، ، والديالوغ، وقصائد الحب، ، وحضور أسمهان السينمائي القصير، وكل إنجازاتها الغنائية، جعلها كما يرى النقاد والموسيقيون تسهم بصورة ما في تطور الموسيقا العربية في القرن العشرين وهذا حسبها.

الأفول

مثلت حياة أسمهان القصيرة خير تمثيل خلاصة موضوعات ثقافية وسياسية واجتماعية وإبداعية، وجسدت الجدل المضطرب حول دخول النساء معترك الحياة العامة، وفي مجال الغناء بخاصة، لما يحيط بعمل النساء في الغناء غالباً، من إشاعات منسوجة بإحكام يختلط فيها الحابل بالنابل.

---

[1] شريفة زهور – ص 243

وقد برز في هذه الحياة خطان رئيسان الخط الأول: الطموح فلقد اجترحت بسالة طموحاتها دوراً للمرأة، تمردت فيه على العوائق المألوفة، وأصبحت رمزاً للجنسوية في كفاحها الأزلي دفاعاً عن الأنوثة، وعن حقها الإنساني في العمل، والتذوق، والاندماج، والحرية، والحب، والكفاح، وقد تطورت تجربتها الاستثنائية في سياق سنوات النصف الأول من القرن العشرين، وما انطوت عليه تلك السنوات، من حروب جسدت أطماع الغرب وصراعاته للهيمنة على خيرات الشعوب واستعمارها. ولعلّ تجربتها السياسية هي خير شاهد على شخصيتها، وما فيها من نزوعٍ للبطولة وركوب الخطر، ، كما أنها تُجسّدُ طبيعة الصراع على سورية بين الدول الاستعمارية، ومدى خضوع تلك الدول للمصالح لا للعهود والمواثيق، ومثل هذه السياسة ما تزال شاخصة في أحداث الحاضر العربي وما فيه من مآس. أما الخط الثاني فقد تجّسد في السعي الحثيث لولادة الموسيقا والغناء والفن الحديث، وقد منحت الحياة أسمهان موهبة استجابت لهذا السعي، فصنعت العجائب في زمن قياسي، ولو أُتيح لها أن تعيش طويلاً لأغنت عالمنا الفني بصوتها الصادح في البرية، يتردد صداه على مدى الأيام.

وخلاصة الخلاصة:

فأسمهان لو لم تكن جميلة بصورة ما، أو جذابة، لو لم تكن رائعة الصوت لما امتلأت سيرتها بأسماء الذين تنافسوا على حبها من سادة مصر وأعيانها وكبار فنانيها. فالتابعي كان يحفظ دفتر جيب ملأه بأخبار أسمهان اليومية، وقد كتب فيما بعد عن تنافس أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي، ومراد محسن باشا مدير مكتب القصر الخاص تنافساً كاد أن يُعطّل سير العمل في ديوان الملك، وقال عنها محمد محمود خليل رئيس مجلس الشيوخ في زمن الملك فاروق " هذه البنت تقدر أن تكتسح عالم الغناء في مصر، فهي

جميلة، ومهذبة، ومتعلمة، وبنت أصل، وصوتها جميل وهكذا اجتمعت لها صفات ومواهب لم تجتمع لأية مطربة أخرى[1]، ويقول صميم الشريف: "إنها تمكنت على الصعيد الاجتماعي من بناء علاقات اجتماعية وصداقات عميقة، مع كثير من الشخصيات الفنية والاجتماعية ورجال الدولة "[2]، وفي الوقت نفسه كانت عفيفة اللسان ليس في قاموسها لفظة نابية، وتميزت بالاحتشام والإحساس الدائم بالكرامة، فهي طيبة القلب جداً، كريمة النفس، رقيقة المشاعر، مرهفة الإحساس، أصيلة العنصر والعاطفة، يقول الصحفي البريطاني فيث: "كانت إنسانة منطوية ترى بهجتها مرتبطة برؤية الآخرين حولها يبتهجون"[3].

وعلى الرغم من ذلك يمكن القول: إن أسمهان امرأة لم تنجُ من قسوة الأحكام والأفكار المتحاملة والمتشددة المتعلقة بالسلوك، لا سيّما عند مناقشة المحددات الموروثة والتقيدات التي ميزت عبر التاريخ الحقوق بين الرجال والنساء، يقول الكاتب شوقي بغدادي " إذا أردنا أن نحاكم أسمهان قضاة متزمتين يقدّسون التقاليد العتيقة في بلادٍ لا تزال المرأة فيها عرضة لاتهاماتٍ أخلاقية قاسية، فإن أحكامنا سوف تدينها، فالسلطة الذكورية ما تزال هي الحاكمة بأمرها في مجتمعاتنا، تبرّر للذكور وتحرّم على الإناث"[4].

انتُقدت أسمان كما أسلفنا بقسوة، ولم يسهل على البعض أن يرى فيها نموذجا للمرأة المتحررة، أو المناضلة من أجل الحرية، بل يظن أنها مثّلت على

---

[1] التابعي ـ مصدر سابق ـ ص33

[2] صميم الشريف ـ ملحق الثورة الثقافي ـ 2008 العدد618

[3] شريفة زهور – مصدر سابق – ص 113

[4] شوقي بغدادي ـ المجلة العربية العصرية(الجيل) ـ حزيران 2009 ـ مجلد3 عدد6 ـ ص37

مسرح الحياة دور المرأة الضحية في كثير من فصول هذه الحياة الخاطفة، ففي أيامها الأولى في مصر كانت ضحية الفقر الذي جعلها تتألم من مرارة العوز ووطأة الحاجة وقد تحدثت عن مشاعرها وعن أنفتها وهي خالية الجيب في قصور أغنياء مصر وساداتها. وعانت بعد ذلك من الشرور المرتبطة بعالم الفن، فغنت وهي تكاد تكون طفلة أمام السكارى، والسوقة في ملاهي تعّج بمن يتعاطون المخدرات ويلعبون القمار وهم يقذفونها بالألفاظ البذيئة، وبعد ذلك أصبحت ضحية فظاظة أخيها الذي لم يتورع عن إلحاق مختلف صنوف الأذى بها، فسجنها وضربها بقسوة ودونما رحمة، وزرع في أعماق روحها جروحا لا تشفى، ثم أضحت ضحية تنافس بعض رجال القصر الملكي الذين يستغلون مواقعهم للظفر بالنساء. وبعد ذلك أضحت ضحية زواج فيه البريق واللمعان وفيه الأماني المحبطة، وذاقت مرارة الاتهامات التي اكتوت المرأة بنارها عبر التاريخ. وكانت في النهاية ضحية الصراع الذي شهدته بلادها بين الدول الاستعمارية، وقد رمت نفسها في لجته. وظلت رغم ذلك كله تجاهد كي تبقى طائراً حراً منتجاً لذاته بامتياز. يقول شوقي بغدادي: " لقد واجهت أسمهان مأزقها الوجودي، وكان عليها أن تحارب وحدها، من أجل حريتها ضد جبهةٍ عريضةٍ، متواطئة، أو بالغة القسوة من الفقّر والحرمان، ومن جور بعض أفراد الأسرة والعشيرة، فضلاً عن السلطات الحاكمة المتآمرة عليها، وأن تنتصر عليهم إنقاذاً لروحها العطشى، وحين نجحت في بعض هذا الصراع، حكموا عليها بالموت، كي يتخلّصوا منها ونجحوا بذورهم فيما كانوا يدبّرون"[1]. ولا شكّ أن حياتها تذكّر بالمآسي الإنسانية التي تحفل بها الروايات والأفلام العالمية،

---

[1] شوقي بغدادي - مصدر سابق - ص38

إنها أقرب إلى بعض بطلات تلك الروايات التي يصنعها خيال روائي مبدع مثل " مدام بوفاري " لفلوبير أو " آنا كارنين " لتولستوي. ويقول أحمد برقاوي: "أسمهان تراجيديا نادرة أسهمت كالعادة بموت البطل المأساوي"[1].

لقد سعت هذه البطلة إلى أن تنعم بالحياة ما وسعها ذلك ـ كما يؤكد التابعي ـ لذلك أنفقت، وشربت، ومتعت نفسها بلا حساب، ويعود ذلك إلى يقينها بأنها لن تعيش طويلاً، ولا شكّ أنها سعت إلى السعادة، وقد تزوجت الأمير حسن مرتين بحثاً عن هذه السعادة المفتقدة، ولكن عالم حسن كان ضيقاً أمام رحابة عالمها، وعظمة روحها، فعاشت في أتون الحب المفتقر للسعادة، ولقد أشارت الكاتبة التونسية فاطمة المرنيسي بحق إلى أسمهان قائلة: إنها " بقيت أيقونة الحب الرومانسي، التي تعلل النساء بالأماني، وكانت منبعاً ثرّاً للأفكار بالنسبة للنساء، اللواتي ظننّ أن المجهول جدير بالمجازفة، وأن الإخفاق والنجاح لا يهمان في حياة تقوم على المغامرة، ومثل هذه الحياة ربما تكون أكثر متعة من الحياة التي تؤثر الراحة، وقتل الوقت داخل جدران البيوت[2].

يقول أخوها منير: " كنا نقطع كعكة عيد ميلاد ابنتها كاميليا في14 تموز1944، وكان الأمير حسن حاضراً، ووصل أحد أقاربنا وقال: أما سمعتم خبر وفاة أسمهان في الراديو، فمضى الأمير حسن إلى غرفته وبكى، وفي اليوم التالي، ذهب إلى مصر للمشاركة في تشييعها، ودفنت في مصر في قبر هيأته وهي على عتبة الثلاثين من عمرها، لتبقى فلذة من روحها تلهم جميع النساء القلقات اللاتي يسعين للتصالح مع الحياة.

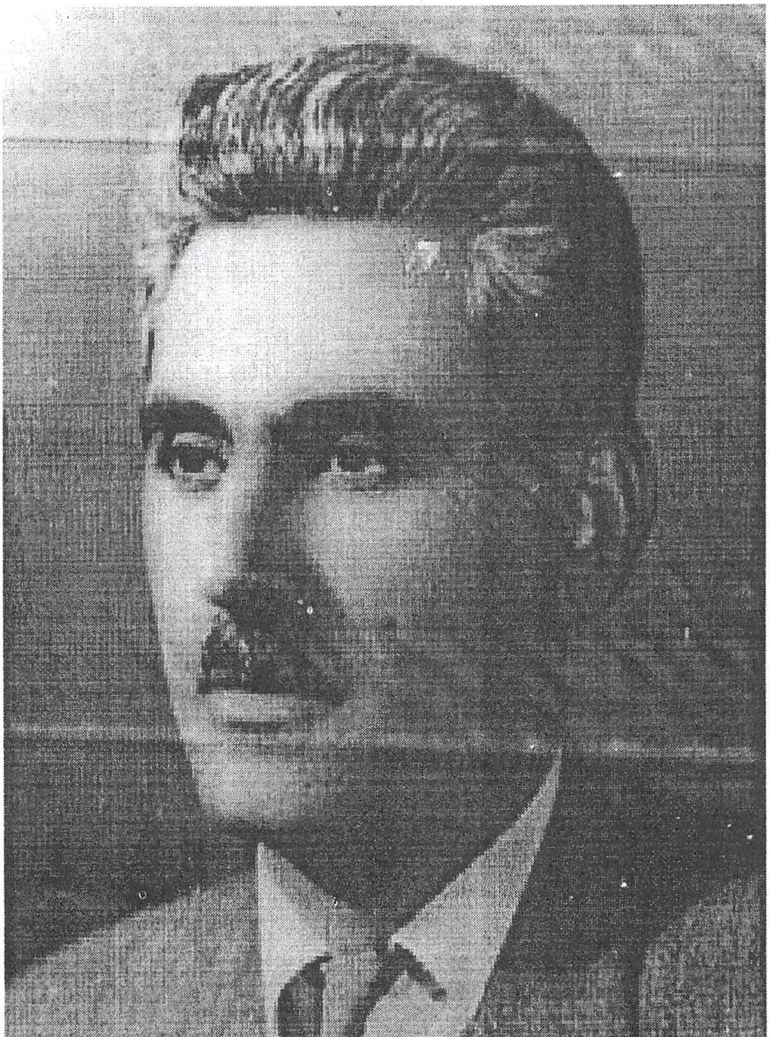
---

[1] د. أحمد برقاوي ـ الثورة ـ تشرين أول2008

[2] زهور ـ مصدر سابق ـ ص68- ص70

وبكلمة، يبدو أنَّ الشجاعة في حدها الأقصى، هي من سمات أسمهان الأصيلة، وتكاد تكون القاسم المشترك الأعظم لسيرتها، وبهذه الشجاعة واجهت تبعات الحياة، والحب، والغناء، والنضال، وكانت تقف دائماً على حافة الخطر، وبهذه الشجاعة اخترقت حصون الحلفاء. وبهذه الشجاعة واجهت موتها.

لقد رحلت أسمهان وخلّفت وراءها أنموذجاً استثنائياً، للمرأة الشرقية المفعمة بالصدق الإنساني ونقاء الروح. رحلت وتركت إرثاً لن يمحوه الزمن، بعد أن مرّت في هذه الحياة مرور النسيم.



سلامة عبيد

سلامة عبيد أديباً ومناضلاً وإنساناً

لا نعرف متى أمسك المربي والباحث والشاعر سلامة عبيد قلمه، ليخط حروف قصائده، التي تجسد تجربة حياة استثنائية، مفعمة بضروب الإبداع والعمل والإقبال عليهما بشغف، وربما يعود تاريخ أول قصيدة مكتملة إلى عام 1939، عندما كان الشاعر في الثامنة عشرة، ونُشرت في ديوانه "لهيب وطيب" ولقد كتب سلامة قصيدته الأخيرة عام 1984، وعلى مدى خمسة وأربعين عاماً تفصل بين القصيدة الأولى والأخيرة، ظل الشاعر يخط القصائد التي وجدت طريقها إلى القرّاء، وثمّة قصائد مكتوبة بخط يده تنتظر النور، وفي قصائده المعروفة وغير المعروفة، أسهم الشاعر مع غيره من الشعراء السوريين والعرب، في رسم أوصاف الحياة العربية منذ الأربعينات. وتتلاقى قصائده من حيث موضوعاتها، وطرائق بنائها مع قصائد الرعيل الثاني من الشعراء السوريين الذين ظلوا يتفيؤون شعر الأقدمين، ولا يخرجون عن القصيدة التقليدية إلا بمقدار، كالشاعر أنور العطار، وأمجد طرابلسي، وبدر الدين الحامد، ومحمد الحريري، وأحمد الجندي، وعدنان مردم بك وغيرهم، ويبدو أنّ ما يسم شعر سلامة عبيد أنه استقى شعره من صميم حياته الدرامية، وبدا شعره صورة أمينة مستوحاة من هذه الحياة.

ويمكن الإشارة إلى ثلاثة عوامل أساسية أسهمت في تكوين شخصيته، وغذّت موهبته، ومارست تأثيرها العميق في بناء هذه الشخصية، وصقل هذه الموهبة، ورسمت إلى حد بعيد ملامح تجربته الأدبية والكفاحية:

العامل الأول يتعلق بظروف الميلاد والنشأة:

ولد سلامة عبيد في مدينة السويداء عام 1921 م، في جوٍ مفعمٍ بالخطر على الصعيد الوطني، إذ أقدمت فرنسا في العام ذاته، على تجزئة سورية إلى خمس دويلات، على أسس طائفية، وفصلت جبل حوران مسقط رأس الشاعر، عن جسد الوطن، ليسهل عليها إخضاعه، غير أن أبناء الجبل سرعان ما أدركوا نيّات الفرنسيين، وبدأت مسيرة كفاحهم التحرري، لتحقيق هدفين: الأول طرد الغزاة المحتلين، والثاني مناهضة التقسيم، وإعادة توحيد وطنهم سورية، فكانت الثورة السورية الكبرى، ردّاً على سياسة الفرنسيين.

اكتوت عينا سلامة بنيران الثورة وهو رضيع، ورافقها طفلاً، وقد جعلت الثورة من حياته ملحمة على حد تعبير الناقد اللبناني مارون عبود الذي يقول: "إن الشاعر على الرغم من كل ما قاساه من شقاء بسبب ظروف هذه الثورة، ظلَّ شامخ الرأس كالسنديان الذي لا يطأطئ رأسه للعاصفة "[1].

العامل الثاني يتعلق بدور الأب في حياة الشاعر:

فلقد كان والده المجاهد علي عبيد شاعراً شعبياً من شعراء الثورة السورية وواحداً من قادة الثورة وفرسانها، كما كان قاضياً مرموقاً، ويشكل شعره الشعبي – إلى درجة كبيرة – سجلاً تاريخياً ووثائقياً للثورة، جسد فيه صور الكفاح الشعبي، وبين غاية الثائرين وأهدافهم، وأفصح عن خبرتهم ومعاناتهم في مقارعة الغزاة يقول الأب:

عمراً مضى بالحرب بين الأجانيب   لياما تقّطع هيكل الجسم تشطيف

---

[1] مارون عبود ـ مقدمة ديوان لبيب وطيب ـ شعر سلامة عبيد- دمشق1960 ـ ص5

من خبرة بين الملا والتجاريب ما لنا صديقاً يا رفاقي سوى السيف[1]

فالشعر الشعبي الذي طربت له أذن سلامة عبيد في وقت مبكر، هو أدب فرسان، وشعر حماسة، وقد نهلت القصيدة الشعبية من ينبوع الأدب العربي الصافي، من حيث الصور، والتعابير والأغراض الشعرية، يقول علي عبيد:

واحنا حماة البيض وسياج الملاح وحنّا قروم الحرب صعبين المراس[2]

فهذا الشعر الشعبي، يربط بين الفروسية، وبين الذود عن النساء، والتغني بجمالهن، وهو بذلك وطيد الصلة بالشعر العربي التراثي الفصيح، فهذه الأبيات تذّكر في معانيها بشعر عنترة، الذي لم ينسه وطيس المعركة ثغر حبيبته عبلة فقال:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ورث الابن عن الأب الحسّ الشعري، وحين كبر سلامة، ازدادت قدرته على ترجمة تفاصيل الصور الشعرية التي سمعها من الأب، بعد أن رسخت في ذاكرته، وأصبح على معرفة بدلالتها الوطنية والقومية، وامتلك القدرة على إعادة بنائها، وتحولت لديه إلى معيار من معايير بناء الشخصية الأدبية والوطنية، فالأب شاعر المقاتلين، يصغون بعد العودة من ساح القتال، وأتون المعارك، إلى بوح قلبه الشجاع، فيرون في شعره أنفسهم، ويسترجعون وقائع حربهم الأسطورية، ويضع الأب ابنه أمام هذا النوع من شعر الحماسة، بطابعه السياسي التحرري والوطني، يقول علي عبيد:

---

[1] علي عبيد – ربابة الثورة – ديوان شعر شعبي – دمشق – بلا تاريخ ـ ص 21

[2] المصدر نفسه – ص 53

ومهما عملنا للسياسة والسلم الفرق ما بين القلوب كبيرْ

حنا حرار وما نداني للقفص وهم يريدوا وضعنا في النير[1]

ويحدد الأب الغاية والهدف النبيل للثائرين، بعد أن حاول المحتل الإساءة لهم ولأهدافهم، فهم طلّاب وحدة لوطنهم المجزأ فيقول:

والكل عارف خلاصة طلبنا وحدة صحيحة مع زوال الدساتيرْ[2]

العامل الثالث: يتعلق بطفولة الشاعر وتكوينه وطبيعته الخاصة.

فسلامة عبيد لم يعرف حياة الطفولة ولم ينعم بها كالآخرين، بل اختزلت أحداث الثورة هذه الطفولة، فطوى مراحل النشأة، والنمو، والاكتمال، على وقع البارود، وفي معمعان النضال الضاري في شعاب الجبل، أوفي صحراء النبك بعد رحيل الثّوار إلى السعودية، فعّجل ذلك في تنامي عقل الشاعر الذي امتلك جسداً نحيلاً ومتقداً، تكهرب فيه المزاج والطبع، ورهف الحس، وشحنت وقائع الحياة نفسه، وملأت فكره بالرغبات المتوثبة، وتفتحت لديه في غمرة هذه الحياة مُعجزة الشعر، وقد تلون بالانفعالات النابعة من سمات هذه الحياة، وطبيعتها الدرامية، وأصبح سلامة عبيد كالمصباح الذي تتراقص أشعته، وتتوهج فتتحول إلى قصائد.

وبكلمة فالثورة السورية، والطفولة المختزلة، والأدب الشعبي، أسهمت في إثراء موهبة الشاعر، وكان لها الأثر الأكبر في صياغة شخصيته أولاً، ومن ثم صاغت عالمه الشعري.

---

(1) علي عبيد – ربابة الثورة – ديوان شعر شعبي – دمشق – بلا تاريخ – ص 57

(2) المصدر نفسه ص 55

ولدى محاولة تقصّي جدل الخاص والعام في، شعره وأدبه بعامة، يمكن أن نتعرف على ثلاث سمات بارزة، تميّز شعره وإبداعه وهي: القلق، والاغتراب، والتعلق، فلقد تآلف القلق والاغتراب، والتعلق، في نتاجه الفني، وتلامح في جل شعره ونثره. ومن خلال إلقاء الضوء على هذه المكونات الرئيسية الثلاثة لشخصيته الأدبية، يمكن الولوج إلى عالم الشاعر – الأديب. والتعرف على أبرز خصائص شخصيته الإنسانية والأدبية:

أولاً: القلق:

كيف يمكن ألا يكون القلق ملمحاً بارزاً في أدب الشاعر وقصائده بخاصة، وقد ولد في حضن الخوف، وارتسمت في مخيلته صور لأحداث ووقائع غرست نبتة القلق في أعماقه، لتصبح جزءاً من تكوينه النفسي، وتجعله يجفل كغزال شرود لنسمعه يقول:

لا تلمني فقد ولدتُ مع الخو ... ف شريداً ملفّعاً بالضباب
هائماً تطلب الحراب دمائي ... وشفاه الغزاة خلف الحراب
حملتني أمي مع النسوة الثكلى ... وهامت مذعورة في الشعاب
في كهوف الذئاب ترجو ملاذاً ... لبنيها من الطغاة الذئاب
والحفاة الأيتام حولي ضياعاً ... والأيامى في غصةٍ وانتحاب[1]

يرسم الشاعر في هذه الأبيات صورة واقعية لطفولته حين كان عليه أن ينتقل في أراضي الجبل من مخبأ إلى مخبأ تحت جناح أمه، وهو دون الخامسة، بينما ينشغل الأب عنه في حرب شعبية ضارية، استمرت سنتين ويزيد، خاض

---

[1] سلامة عبيد – ديوان لهيب وطيب – دمشق – 1960 ـ ص 148 ـ 149

فيها المجاهدون معارك ذاقوا فيها حلاوة النصر ومرارة الهزيمة، وتعرض أهالي السويداء وسواها من القرى، إلى قصف الطائرات الفرنسية المتعاقب، وإلى قذائف المدفعية المتتالية، واضطر الناس إلى ترك بيوتهم، والرحيل عنها فيما يُعرف " بالهجيج " واللجوء إلى البراري والكهوف، ويشهد الطفل بأم عينيه، كيف ذهب الأب وأولاده الشباب الثلاثة ذات يوم إلى أرض المعركة ويصور سلامة عبيد في كتابه " ذكريات الطفولة " المشهد قائلاً: " رآهم يتنكبون بنادقهم ويتمنطقون بخناجرهم وهم يرتدون أفخر ثيابهم كأنهم يذهبون إلى عرس، الأب يركب فرسه الحديدية، ويطرح بندقيته أمامه وسيفه يتراقص على خطوات الفرس، وأولاده الثلاثة يواكبونه مشاة... ويسمع الطفل، منذ الفجر، دوي القنابل مثل دوي الرعود، ومن بعيد يشاهد الطائرات تقذف فتزلزل الأرض، وتّغلف الجو بالدخان والغبار.. ومع الغروب رأى الطفل أشباحاً تقترب باتجاه المخيم، بعضهم فرسان تثاقلت خيولهم ومشاة تباطأت خطواتهم، ركض مع الراكضين لاستقبالهم.. هذه فرسهمْ الحديدية أما الفارس فقد كان معّصباً ملثّماً تلطخت كوفيته وصدره بالدم، واختفت عباءته التي بدت ممزقة مثقبة تحت طبقة من الغبار والبقع الداكنة "[1]، ويتساءل الطفل عن أخيه الكبير دون أن يسمع جواباً ". لقد عرف الطفل والده الملثم الجريح، واقترب منه ليردفه خلفه على فرسه، وتلفت الطفل حوله بقلق، ويسأل متوجساً عن أخيه الكبير، ولم يسمع جواباً، لكنه سمع شهقة عالية ثم نحيباً متقطعاً.

لقد ارتسم هذا المشهد في ذاكرة الشاعر، وعاش في أعماق روحه سنين طوالاً، وقد عبر عنه شعراً عام 1959 قائلاً على لسان أمه:

لم يعد، لم يعد أخوك، وتبكي ثــم أبكــي بدهــشة وارتيــاب

---

[1] سلامة عبيد – ذكريات الطفولة – قصص – دمشق – 1987 ص 18 – 19

وأبــي عاصــب الجــبين جــريح وعلــى نــصله بقايــا خــضاب[1]

ويروي سلامة عبيد في " ذكريات الطفولة " الحادثة التالية : " كانت خطة الثوار الرئيسية أن يتوغل العدو في القرى الخالية تماماً من السكان، ثم يُفاجأ بهجمات صاعقة مباغتة تذهله وتضعضعه وتدميه. لذلك ظلوا يحرصون على أن يبقى النساء والأطفال بعيدين عن القوات الزاحفة... والآن عادت ترتسم في ذهني، وبشيء من الرعب تلك الليلة الرهيبة... نساء وأطفال في مغارة جبلية في السفح الشرقي يحرسهم بضعة مسلحين، وفجأة ومع الغسق ترتفع من فم الوادي قرقعة سلاح وصهيل خيول وطبطبة أقدام ثقيلة الوطء.. ويبدأ الجيش الزاحف ينصب خيامه على أضواء المشاعل.. اجتاحت المغارة موجة من الذعر تزيدها الظلمة رهبة وفزعاً... أحس الأطفال بالخطر وظل بعضهم يعولون بحدة.

- سكّتوا أولادكم يا حريم!

ارتفع صوت خافت من أحد المسلحين الذين اتخذوا متاريسهم على أبواب المغارة.. لكن طفلاً واحداً ظل يعول، وظلت الأم الشابة تلاطفه.. ولكن بلا جدوى، وظل صوته يرن في أجواء المغارة

- سكتي ابنك يا حرمة!

رأيتها بعيني الاثنتين ترفع طرف اللحاف تّسد به فم الطفل، وفمها يردد شبه أدعية وصلوات... ويبدأ صوت الطفل يهدأ ثم يتلاشى ويختفي، وبدأت ضربات القدم الصغيرة العارية تهدأ ثم تهمد تماماً"[2].

تركت هذه الحركة المرتعشة لقدم الصغير ندوباً في روح الشاعر. وكان صعباً أن يمحو الزمن من ذاكرته موجة القلق، التي عصفت بأولئك الذين عاشوا في المغارة تلك اللحظات المعلقة بين الموت والحياة، وهم يدركون أن مصيرهم

---

[1] سلامة عبيد – ديوان لهيب وطيب ـ ص 149

[2] سلامة عبيد ـ ذكريات الطفولة ـ مصدر سابق – ص 26

مرتبط بموقف أم، فأية قوة روحية هائلة، تفوق قوة البشر، قد تلبسّت تلك الأم حين أقدمت على ما أقدمت عليه، وأي تأثير لا يزال يمارسه علينا هذا الحدث الذي صوره الأديب فيما بعد، حيث يكاد الواحد منّا يشعر بأن هذا الطفل لصيق به يعرفه بلحمه ودمه، يراه وهو يهتز ويرتعش، ويضرب الأرض بقدمه الصغيرة وكأنه يصفع بها القسوة الإنسانية المنبعثة من فوهات بنادق الغزاة.

في صحراء النبك

تنقل سلامة من مغارة إلى أخرى في شعاب الجبل، وقدّر له أن يرافق قادة الثورة السورية الكبرى، ومجاهديها إلى وادي السرحان في الجزيرة العربية أواخر عام 1927م، بعد أن قاتلوا الغزاة حتى آخر رصاصة، وبعد أن أبوا الاستسلام وفي تلك الصحراء القفر الخالية، التي لا يسمع فيها سوى نوح الذئاب، كما وصفها شاعر الثورة آنذاك، وأحد أهم قادتها وفرسانها الأمير عادل أرسلان حين قال:

وعصبة عرباء فوق الثرى ... لكنها من مجدها في صروح
في مهمه قفر كأن السما ... لم ترووه بالقطر من عهد نوح
ينوح فيه الذئب مستوحشاً ... ورحمتا للذئب فيما ينوح

عاش سلامة عبيد المرحلة الثانية من طفولته بين كثبان صحراء النبك، مع الأمير عادل أرسلان وصوّر تلك الطفولة قائلاً:

ربى النبك! هل تذكرين الخيام ... لديك مبعثرة جاثيه؟
وطفلاً سباه جلال القفار ... وأفياؤها في المسا ضافيه
صغيراً بلا مئزر أشعثاً ... يروح ويغدو مع الماشيه[1]

[1] سلامة عبيد – ديوان لهيب وطيب – ص 43

لقد ظلت أيام الطفولة تغذي خيال الشاعر، بما حفلت به من أحداث مأساوية لا تتفق وحق الطفولة بالحياة المرحة الوادعة، فليست المغاور ولا المنافي المكان الآمن والمناسب للأطفال، وكما يقول علم النفس فإن ملامح الشخصية وخطوطها الرئيسة تتكون في رحاب الطفولة.

بقي الشاعر طوال حياته مسكوناً بالقلق والخوف، وأصبح هذا الخوف والقلق مركّباً تجاوز فيه القلق الطفولي، ليصبح هماً أخلاقياً ووجدانياً يعكس الجوهر الإنساني لديه:

أخاف أخاف أن يمشي على غير الهدى قلبي
وأن يحيا لغير الصدق والإيثار والحبّ
وأن يهجرني أنسي ولين المنطق العذب
فأمضي حائراً أسلك درباً لم يكن دربي![1]

ويتحول هذا القلق إلى قلق فلسفي يعبر عن خوف الشاعر على قلبه وفكره وهمته، مما يخبئه الدهر:

رفيقي لا تلمني، إن رأيت مخاوفي شعرا
فإني بالذي ينتاب نفسي يا أخي أدرى
وإني إن ضمنت القلب والهمة والفكرا
أخاف أخاف، ألا أضمن الأيام والدهرا[2]

(1) سلامة عبيد – ديوان لهيب وطيب ـ 40
(2) المصدر نفسه ـ 41

ويصير القلق في النهاية قلقاً وطنياً، فالشاعر في إحدى قصائده بلبل يسربله الخوف، ووطنه هو الغاب الذي يرتعد ويرتجف من وقع السياط. والسيطرة الأجنبية هي الريح التي تعصف بذلك الغاب، وبتلك الروابي:

الـريح تعـوي في الروابـي العاريـات وتعـصف

والغـاب مرتعـد يـضّج مـنْ الـسياط ويرجـف

والبـلبل الحـيران في قيـد المخـاوف يرسـف

متجـمّع قلـق يفـيض مـرارة لا توصـف[1]

ثانياً: الاغتراب:

بدأت غربة الشاعر الأولى مع سنوات الثورة، ومعاركها في الجبل، ليتغرب من جديد حين رافق الثوار في المنفى، وانتهت هذه الغربة حين عاد سلامة عبيد مع أمه من صحراء النبك. وقد تخطى الثامنة من عمره، لتبدأ غربته الجديدة حين عاش الشاعر وحيداً في لبنان، بعيداً عن أمه وأبيه. ليتلقى دروسه الابتدائية والثانوية. ودامت هذه الغربة عشر سنوات، وانتهت عام 1940م، ويؤكد الشاعر أن سحر الحياة في ظل شجر الصنوبر الذي يزين سفوح لبنان، وقممه الشامخة، لم يشف غليله، فهو بعيد عن برْدى، وعن سفوح بلاده وجبالها الشامخة، يحّس بعذاب الغربة:

لم يروني بردى، ولا الصحراء حدت من وجيبي

وظللت رغم السحر في ظل الصنوبر كالغريب

---

[1] سلامة عبيد – ديوان لهيب وطيب – ص 55

حتى رجعت إلى الجبال السمر والسفح الجديب

وملاعب الجرد العتاق وكل سبّاق نجيب

أيقنت أني قد رميت فلن أثور على نصيبي[1]

أمّا غربته الأخيرة، فبدأت بالشاعر في خريف العمر، إذ رحل في السبعينات إلى الصين الشعبية، واستمرت هذه الغربة اثني عشر عاماً ونيّف. وهكذا فقد نظم خيط الغربة حياته من بدايتها الى نهايتها، وعمّقت تلك الغربة خبرته بالحياة ومعرفته بتناقضاتها وقسوتها وخيباتها، وطّوقت أعذب أحلامه وأعزّ أمانيه، وجعلت روحه سهلة الخدش، سريعة التأثر، ووسمت شعره بميسم الغربة، الذي ظل على الدوام ينمّ على عبء الاغتراب وقسوته.

بعث الاغتراب في نفس الشاعر أسى عميقا، لم يستطع التغلب عليه، فللمنفى شجن دفين ينبع من الانفصال، أو الشرخ الذي لا برء منه بين الإنسان ومكانه الأصلي، سواء اختار الإنسان الابتعاد عن مسقط رأسه أم أُرغم عليه، يقول سلامة في قصيدة الربيع والغريب:

عادت لأعشاشها السنونو ونوّر الزهر في الغصونْ

وأنت يا خافقاً معنّى يا شاعراً شفّه الحنينْ

يا نائياً سربه بعيدٌ وروحه لفها السكون

ربيعك الطلق والشتاء سيّان في قلبك الحزين[2]

---

[1] سلامة عبيد – ديوان لهيب وطيب – ص 69

[2] سلامة عبيد – الله والغريب – شعر – دمشق ـ 1977 – ص5

ودون ريب فالمنفى في شعر سلامة عبيد هو حرمان من العيش في أحضان الأسرة، ومن التمتع بروعة المكان، أنه اقتلاع من منهل التقاليد الاجتماعية. فالاغتراب لا يمكن أن يعبر عن حالة رضى، أو أمان، إنه حالة الشتاء الذي يجاور الصيف، والخريف، وتباشير الربيع، ولكنه لا ينالهم أبداً. وبالنسبة إليه فهو نقيض السعادة.

عاش الشاعر في الصين حياة غنية مفعمة بالنشاط الفكري، إلاّ أنه ظل يشعر بالغربة، وباختلافه عن الآخرين، وتجسّدت لوعة المنفى لدى الشاعر في الإحساس بالعزلة، وانقطاع الصلة بالناس الذين أحبّهم، وفي ابتعاده عن صلابة الأرض التي درج عليها، فتحوّل الاغتراب إلى إيقاعاتٍ درامية تضجُّ حنيناً ونجوى، وراح سلامة يخاطب شعاع المغيب، ونجوم السماء، والليل الساجي، ويطلب نقل حنين روحه وشوق قلبه إلى الأهل، والأصحاب، والزوجة الوفية، والطفل الجميل، وإلى الدار، والروابي، والصحارى، وفي النهاية إلى التاريخ البطولي، فكتب قصيدة الشعاع الرسول:

يـا شعاعـاً نحـو المغيـب يميـل	متعبـاً، هـدّه المسير الطويـل
سوف تلقى أهلي هناك، وصحبي	وصـغيراً مـع الصغار يجـولُ
وحبيبـاً تحـنّ روحـي إليـه	مثلمـا حـنّ للشفاء العليـلُ
علّـهُ، مثلمـا عهـدْت مشوّقٌ	مبسمٌ شاحبٌ، وطيـف نحيـلُ
سوف تلقى أرضي هناك وداري	فالروابـي تنـهدُ وعويـلُ
والصحارى نشوى بمجدٍ قديم	فـصهيل أنفاسـها وصليـلُ
إن يكـن راعـها الدخيـل ففيـها	ألف ذكرى يُراعُ منها الدخيـلُ[1]

[1] سلامة عبيد – الله والغريب – شعر – دمشق ـ 1977 ص 53

ولعلّ أعجب وأقسى ما في غربة سلامة عبيد نهايتها، فقد أعدّ الشاعر شراع العودة، وكان يحدس أنها العودة والأفول معاً، فتأتي قصيدته " الله والغريب " كالنبوءة، فالشاعر يتوسل إلى ربه كي يعيده إلى الوطن، لا لينعم بالعيش فوق ترابه، وإنما ليلقي عليه النظرة الأخيرة وهذا الذي كان:

يا رب لا تغمض جفوني هنا
هنا قلوب الناس بيضاءُ
وأرضهم ماءٌ وأفياءُ
لكنّ بي شوقاً إلى أرضي
لجبل الريّانِ والساحل
ألقي عليه نظرة الراحل[1]

عبرت القصيدة عن تجربة العمر، بكلمات هي رموز وعناوين لمسيرة حياة، تزخر بالأماني المتصدعة والأحلام المتكسرة، ومع ذلك ظل الشاعر أميناً لنفسه لا يخونها، فقد أنفت هذه النفس التصالح مع الغاصبين أو التودد للحكام الدمى، أو أن يحني الشاعر هامته للطغاة:

دعني أعش يوماً أخيراً هناك
حيث أحبائي
والذكريات الحلوةُ المرّة
طفولةٌ شقيةٌ شاردةٌ
وزهرةُ الشباب
تنوشها السياطُ والحراب
لأنها لا تمنح العطر
لغاصبٍ أو دمية أو صنم[2]

---

(1) سلامة عبيد – الله والغريب – شعر – دمشق ـ 1977 ـ ص 54
(2) المصدر نفسه – ص 55

ثالثـــاً: التعلق:

كان الشاعر شديد التعلق بمسقط رأسه، بحيث يصح فيه القول المأثور "لو وضع سلامة عبيد في الجنة لصرخ آهٍ يا وطني" ونظرة الشاعر إلى المكان الذي نشأ فيه ليست ضيّقة، ولا تنم على تعصب ومحدودية، ولكنها نظرة تحدث فيها عن الجزء وأراد الكل. وأضفى على تعلّقه معاني وجدانية ومنازع إنسانية رحبة عميقة الدلالات، فالشاعر يناجي جبله مناجاة العاشق المدنف، ويرى فيه ينبوع القوافي التي أحبها وارتشف رحيق ألحانها الرقيقة، حتى لو تعرّض الشاعر فيه للضيم والأسى:

يـا جبلـي يـا مقطعـاً شيّقـاً   حلـواً طـروبَ الـوزنِ والقافيـة

أهواك رغم الضيم رغم الأسى   رغْـم ضياع الـشهرة الـضافية[1]

موقف سلامة عبيد هنا يذكّرنا بموقف الجواهري شاعر العراق الذي أمضى جُلّ حياته مُشرّداً عن وطنه، ومع ذلك فهو يُخاطبُ ذلك الوطن قائلاً:

حُيّيـتَ يـا وطنـاً علـى أعتـابهِ نتعبّـدُ

يـا تُـربةٌ نـهفو إليهـا كالإلـه ونـسجدُ

ونُحبّهـا حـتى ونحـنُ مطـاردٌ ومـشرّدُ

أنتَ الـذي يُثنى عليه لـدى البلاءِ ويُحمَـدُ[2]

التعلّقُ لدى سلامة عبيد يعبر أيضاً عن تعلقه بحالة ثورية في حدها الأقصى، فالجبل ليس هضاباً عالية، درج عليها الشاعر فحسب، بل هو قمم مغسولة بدم الثائرين، وحب الشاعر للجبل عميق الصلة بصور الكفاح البطولي

---

(1) ديوان لهيب وطيب – مصدر سابق – ص 15

(2) محمد مهدي الجواهري - ديوان الجواهري - الجزء الثاني - دمشق 1980 - وزارة الثقافة - ص331

الذي عرفتها سفوحه، وعرفها الشاعر واعتدّ بها ولذلك فهو يربأ بهذه القمم أن تستكين أو تنام على الضيم فيخاطب الجبل قائلاً:

أهـواك لكـن بيـن لمـع الظبـا وفي صـميم الثـورة الداميـة

يـا مـوطن الأحـرار فيمـا مـضى ويـا عـرين الأسـد الـضارية

أيـن جبـال النـار مـا بالهـا؟ بعـد اتّقـاد صـاخبٍ غافيـة

فدّيتهـا كـل فتـى باسـلٍ أتقـن فـنّ الميتـة الـسامية.[1]

ويرى في هذا التعلّق دفاعاً عن وحدة الوطن وعروبته، وردّاً على سياسة التجزئة، التي أقدم عليها الغزاة المحتلّون:

جـار الزمـان وأدمتنـا براثنـه ومزقـت وطـن الأحـرار أوطانـاً

واليومَ عدنا نروّي السفح من دمنا ونُشبع الأرض مـن أشـلاء قتلانـا

حتى يرى الكون أنّا لم نزل عرباً نـبني ونهـدم أعراشـاً وتيجانـاً[2]

ويربط في هذا التعلق بين الماضي المجيد والحاضر البطولي، فيمنح لهذا التعلق بعداً تاريخياً، فقد كتب سلامة عبيد مسرحية (اليرموك) ليذكّر بالنصر المؤزر الذي حققه العرب على الروم في معركة أسهمت في نشر الحضارة العربية الإسلامية، وقد مثلت هذه المسرحية أمام سلطات الانتداب الفرنسي في السويداء عام 1943.

ويقدم الشاعر للمسرحية بقصيدة يقول فيها:

يـا ضـفاف اليرمـوك آن لـك البعث فميدي وهللي يا روابـي

---

[1] ديوان لهيب وطيب – مصدر سابق – ص 12

[2] المصدر نفسه – ص 51

جبـــلي هـــل شـهـدتهـــا وهـــي ترّتج ارتجاج الرعود خلف السحاب
أمـــــة يعربيـــــة جبلتهـــــا راحة الدهر من صليـل الحـراب[1]

ويتمثل نزوع الشاعر القومي، من خلال تـلازم القـول مـع الفعـل، فعنـدما هب لبنـان عـام 1943، رافعـاً شعـار الاسـتقلال، قامـت المظـاهرات الـصاخبة في مدينة السويداء تأييداً لمشيئة الشعب اللبناني، ومع ذلك يعتذر الـشاعر لأنـه كـان يطمـح إلى تـضامن أكـبر يتجـسد في المشاركة الفعليـة، والتـضامن العملـي الـذي يشفي غليله فيقول:

لبنـــــان والآلام تجـــــمعنا ورؤى معطــرة اللمـــى خـــضر
ودم تعـّــصبت العـــصور بـــه فبـــدت وحـــول جبينهـــا فجـــر
لبنـــان جئــتُ بنيــك معتــذراً عنـــا، ولـــيس لمثلنـــا عـــذر
جبلـــي، وإن عبــث الزمــان بــه وأضــاع بعــض روائــه الأســر
ســـيظل منتــصبا تــرفُّ علـــى جنبـــاته أيامـــه الغـــر[2]

وحين يدعى الشاعر عـام 1945، إلى حفـل تكـريم المجاهـد صـالح العلـي في اللاذقية، يخاطب دمشق، ويدعوها إلى مسح جراح التفرقة والتجزئـة والإهمـال الذي كرسه الاستعمار الفرنسي، في كلا الجبلين فقال:

بنـــت قاســـيون ريانـــا تـــشتكي اسمعـــي صـــوت نـــداها ونـــدانا
غـــضب الـــدهر عليهـــا زمنـــاً فرماهـــا بالرزايـــا ورمانـــا
بنـــت قاســـيون أجـــيبي صـــوتنا فلقـــد عـــشنا نلـــبي مـــن دعانـــا

(1) سلامة عبيد – اليرموك – مسرحية شعرية – ط2 – دمشق 1952
(2) ديوان لهيب وطيب – مصدر سابق ـ ص 38

جبلانـا حـصنك الراسـي ومـا أرهـق الـرواد إلا جبلانـا[1]

لقد كان هاجس الشاعر الأول خلاص الجبل من الغزاة، وانضمامه إلى الوطن الأم، ولذلك لم يكتفِ بقول الشعر الذي يعبر عن تعلقه به في ذروة توتره وصراعه مع المعتدين، بل كان في قلب الأحداث وفي غمرة هذا التوتر والصراع بصوره المتنوعة، وقد تتوّج بانتفاضة عام 1945، التي أسر فيها الثائرون الحامية الفرنسية، وأنزلوا العلم الفرنسي عن قلعة السويداء، ورفعوا العلم السوري مكانه. فيكتب الشاعر قصيدته." من دمانا " يشير فيها إلى التعاطف الإنساني مع الفرنسيين حين هزموا في الحرب العالمية الثانية أمام الألمان وكيف تنمّر الفرنسيون وغدروا بالشعب السوري في العدوان الفرنسي في 29 أيار 1945 رغم ذلك التعاطف:

عـدتَ منهوكـا فآويناكَ من حرٍّ وتناسينا نداء الثأر والأيام تغري
فكسوناك وأطعمناك خبز الفقراء وطلبت الماء عطشان بذل ورجاء
فـسقيناك مُدامـا مـن دمانـا أيها السفاح من دمـع اليتامى والأيامى
وقدرنـا، فعفونـا وحمينـا ورحمنا دمعة الأسرى ولم نستوف دينا

* * *

مـن دمانـا، أيهـا الـسفاح، مـن دمـع اليتـامى والأيـامى
أترع الكأس مدامـي
فلقـد عـشنا كرامـاً وسنبقـى أبـد الدهـر كرامـا[2]

---

[1] ديوان لهيب وطيب – مصدر سابق – ص 48
[2] المصدر نفسه – ص ـ 60

وقد تجسد هذا التعلق تأريخاً لمختلف جوانب نضال أبناء الجبل، فكان يكبر الجبل بعين الشاعر كلما صمد أمام المحن، وخرج منها ظافراً، فالجبل والشاعر صنوان، الأول ينبوع من ينابيع الإلهام للثاني، ومصدر إيحاء لشعره، والثاني يصوغ القصائد من نياط القلب وفاء للأول، وتمجيداً لبطولاته، وتضحياته فيغذي كل منهما كبرياء الآخر، يقول سلامة عبيد في قصيدته يا حبذا جبل الريان:

ملأت دنياك أشعاراً وألحانا فزدتني بالغد المخضر إيمانا

يا شامخاً في سما حوران منتصباً للعرب حصناً وللعلياء بركانا[1]

ومثلما عبر سلامة عبيد في شعره عن تعلقه بالجبل، فقد عبر عن هذا التعلق بالفنون الأدبية الأخرى، فقد عاد سلامة عبيد إلى أحداث الثورة السورية ووقائعها، يؤرخ لها بعد فترة من الزمن خشية أن يقع فيها من الزيادة أو النقصان، عن سهو أو خطأ ما يخرجها عن حقيقتها، وصدر كتابه " الثورة السورية الكبرى 1925 – 1927 على ضوء وثائق لم تنشر" وكتب عارف النكدي في تقديمه الكتاب قائلاً " لقد أحسن سلامة عبيد في وضعه كتابة " الثورة السورية" والعهد فيها قريب، وبعض رجالاتها لا يزالون على قيد الحياة، والمؤلف نفسه عايش هذه الثورة، ونشأ في أحضانها، وقاسى من أهوالها ونكباتها، وأخذ عن رجالاتها أكثر ما دوّن وبأكثر ما حدث، وليس هذا فحسب، فهو لم يقف عند الرواية بل عزّزها بالأرقام يستند إليها، وبالوثائق يعتمد عليها، فجاء كتابه مرجعاً يمكن العودة إليه "[2].

---

[1] ديوان لهيب وطيب – مصدر سابق – ص 0̈12

[2] سلامة عبيد – الثورة السورية الكبرى على ضوء وثائق لم تنشر ـ 1971 – المقدمة ص آ

وكتب سلامة عبيد أيضاً رواية تذكّر من الوجهة الأدبية بالأعمال الروائية العالمية، التي كتبها الأدباء السوفييت إبان الحرب العالمية الثانية بعنوان " مقاتلون في سبيل وطنهم " فأبطال هذه الروايات بصورة عامة بشر حقيقيون، وليس من صنع مخيلة الأدباء فحسب. و" أبو صابر " رواية حكى فيها سلامة عبيد عن حياة حمد ذياب " أبو صابر " الواقعية، وكشف الجانب الأسطوري في هذه الحياة، وأضاء بخياله عالمها الداخلي.

نشأ حمد في بيت " معلّم عمار " يقطن في أحد أحياء السويداء العتيقة، واستهوته، وهو الفتى الذي يفورُ عزماً، وطموحاً، ثياب الجنود الفرنسيين ذات الأزرار النحاسية البّراقة، وصمم أن يكون جندياً مع هؤلاء، لينعم بهذه الثياب الخضراء الباذخة، رغم رفض الأهل، الذين يعرفون أكثر مما يعرف حمد. فالبدلة العسكرية التي يحلم بها، ستجعله فرداً في جيش الشرق الفرنسي الذي يحتل بلاده، ملزما بتنفيذ تعليمات هذا الجيش. ويختفي حمد من البيت ذات يوم ولا يعود إليه إلا في ثيابه الزاهية التي حلم بها، غير أن الزمن لن يطول به كي يدرك بحسه العفوي أن الجنود الذين يعيش معهم يأتمرون بأمر دولة أجنبية تحتل بلاده بالقوة، فأخذ حماسه يخف، وتأبى طبيعته الجبلية الحرة الانقياد والخنوع لأوامر بلهاء، وذات يوم صفعه آمره الفرنسي، فانقض عليه وأشبعه ضرباً، فسجن جراء ذلك سنة كاملة، ولم يُفرج عنه إلا بصدور عفو عام كان هدفه إشراك المساجين في التصدي للحرب التي أشعل نيرانها ثوار الجبل. فصمم حمد على الهرب، إذ كان يستحيل عليه أن يصوّب بندقيته إلى صدور إخوته، وعزم على الالتحاق بالثورة، مع بعض زملائه، وسرعان ما تمكن من ذلك، وانضم إلى حرب عصابات عرفتها قرى الجبل من أقصاه إلى أقصاه. ويقدم المؤلف صوراً عن هذه الحرب الضروس، بين قوات جيش مجهز بالسلاح والعتاد والطعام، وبين ثوار يقاتلون بقوة العزيمة وهم حفاة عراة جياع، وفي إحدى المعارك ظل حمد يقاتل ويقاتل، وكان قد ذاع صيته، واشتهر ببسالته، فعرفه العدو وتردد

في فضاء المعركة صوت آمر: حمد ذياب استسلم، اخرج من بين الصخور رافعاً يديك. ويتسمر حمد خلف متراسه محاصراً، ويقاتل حتى يسقط جريحا مغشياً عليه، وأمام محكمة عسكرية، تكلم بصوت هادئ، فيه بسالة الثائر، الذي لا يعرف التبجح قائلاً: " أنه فضّل أن يحمل البندقية إلى جانب أبناء شعبه، وليس ضدهم، وكان يتمنى لو تمكن الثوار أن يخرجوا فرنسا بقوة السلاح "[1]. وتُصدر المحكمة حكمها عليه بالإعدام، وتخفف الحكم إلى النفي، والأشغال الشاقة لمدة عشرين عاماً، في مستعمرة" غويانا " الفرنسية في أمريكا الجنوبية، ويعيش حمد في تلك الجزيرة حياة يذوق فيها أقسى أنواع العذاب والقهر، فالجزيرة غابة بكر أشجارها العملاقة تحجب الشمس، وهي مسكونة بكائنات جهنمية، وحوش خطيرة، نمور، أسود، أفاع سامة، وحشرات تنشر الأوبئة، وسكان الجزيرة أناس بدائيون سود عراة، يتسلى الفرنسيون باصطيادهم بالبنادق. ويتحمل أبو صابر مشاق العمل في جزيرة الوباء والهلاك، وينجو بأعجوبة من براثن الموت، وبعد خمسة عشر عاماً يعود إلى بيته العتيق، جراء عجز الفرنسيين عن إطعام الأسرى في مستعمراتهم إثر قيام الحرب العالمية الثانية. ويرى حمد أن بلاده قد ظفرت بالاستقلال نتيجة التضحيات الغالية التي قدمها هو وأمثاله، يقول مؤلف الرواية "لقد بدأ حمد حياته فتىً باسماً شديد المرح كعصفور الدوري، وعاد من المنفى شبحاً ضامراً بخده الناتئ وعينيه الغائرتين، وجسمه المقوس الناحل الشاحب والعليل، وفي مدينة السويداء كان عليه أن يعيش حياة عادية، ويعمل آذناً في مدرسة ابتدائية، بأجرٍ زهيد "[2]، وقد فازت رواية (أبي صابر) بجائزة وزارة الثقافة فآثر سلامة عبيد أن يقدم المكافأة المالية التي نالتها القصة إلى بطلها الحقيقي، فتوجه إلى بيت حمد وسلّمه المبلغ كاملاً.

---

[1] سلامة عبيد – أبو صابر – رواية – وزارة الثقافة – 1971 – ص 71

[2] المصدر نفسه – ص 156

إن قصة أبي صابر قصة إنسان حقيقي والفجيعة تكمن في مصائر الناس الحقيقيين، هذه هي الفكرة الجوهرية التي أراد الكاتب أن يضعها أمامنا، فحمد ذياب يمتلك روحاً عظيمة، تحدّى بها الفرنسيين، وتحمّل سجونهم ومنافيهم، وصمد لتعذيبهم، وعاد إلى الوطن ليمارس مهنة لا تتناسب مع ما قدمه حمد من أجل عزة الوطن وحريته. يقول المؤلف: "لو كنت قصاصاً لأبدعت له نهاية غير تلك النهاية ولكنني كتبت ما سمعت"[1].

لقد استطاع سلامة عبيد أن يغني نزعته الوطنية، ويروي نسغها بمثل الحرية، وقيم المساواة والعدالة الاجتماعية، وتمكن أيضاً من أن يعمّق رؤيته الشعرية بمناهضة حكم الطغاة والمستبدين.

مناهضة السلطة الديكتاتورية

عبّر سلامة عبيد، شأن غيره من الشعراء السوريين، عن الابتهاج بجلاء الفرنسيين عن تراب وطنه، وكان يأمل أن تنعم سورية بالاستقرار، والحرية، والحكم الرشيد. ولكن سرعان ما تبين له أن معركة الاستقلال كانت البداية لمعارك من نوع آخر، فالقوى الخارجية لم تكف عن التدخل في شؤون البلاد الداخلية، وبرز الصراع على سورية بين هذه القوى على أشدّه، وكانت كل واحدة منها تعمل جاهدة لربط البلاد بعجلة أحلاف ومشاريع تقوّض سيادتها، وتبذل المال بسخاء لكسب الموالين والمشايعين لها. ولم يمض على الاستقلال أكثر من ثلاث سنوات، حتى شهدت سورية انقلابات عسكرية متتالية، حالت دون بناء نظام مدني ديمقراطي، ومهدت لظهور أنظمة عسكرية مستبدة، بلغت ذروتها بين عامي 1952 ـ 1954.

---

[1] سلامة عبيد – أبو صابر – رواية – وزارة الثقافة – 1971 – ص 173

راح سلامة عبيد، يدافع عن حق أبناء وطنه في الحرية، وتتالت قصائده التي دعا فيها الشعب إلى مناهضة حكم الاستبداد، والإيمان بحتمية زواله:

غداً يتلاشى السحاب الجهام
وينزاح هذا الظلام الظلام
ويُطوى الحديد على نفسه
وينتحر السوط من يأسه
ويذهب هذا الزئير الرهيب
مع العاصفة[1]

ويضع الشاعر ثقته بشعبه، فهو الذي يدّك عروش الطغاة والمستبدين، وهو الذي يصنع التاريخ، وهو الذي يّدق باب الحرية بسواعد لا تلين. وقد عارض قصيدة القروي التي يدعو فيها أبناء شعبه أن يكونوا ناراً في وجه الظلم والاستبداد والتي يقول فيها:

فكونوا النار تحرق أو قذى   في عيون البطل إن كنتم رمادا

فقال سلامة:

يا شعب غيري تمنى   لو كان ناراً وجمرا
يشوي جباه الأعادي
أو لا فبعض الرماد
في مقلة المستبد والغاصب المتحدي
المستخف بشعبه بحقده وبحبه

[1] سلامة عبيد – ديوان لهيب وطيب – مصدر سابق – ص 101

يا شعب غيري تمنى
في يأسه ما تمنى
أما أنا فرجائي
أن لا يخيب رجائي
في شعبي المتحدي
للغاصب المستبد[1]

حاول نظام الاستبداد أن يسكت صوت الشاعر، فنفاه إلى حمص، ووقف سلامة عبيد أمام نهر العاصي، ورأى فيه صورة نفسه، فكلاهما عاص بطريقته الخاصة:

يا نهر ذنبك في إبائك ... بعض ما لي من ذنوب
ما زلتُ مثلك عاصياً ... والطيب ينبت في دروبي
نعم العصاة إذا همُ ... ثاروا على القيد الرهيب
وتفلّتوا فإذا السفوح ... تضج باللحن الطروب
وطريقهم درب الضياء ... ومنبت الأمل الطروب[2]

لقد خيم شبح الاستبداد في تلك السنوات فوق الأرض السورية كلها، وكاد جبل العرب ـ وقد نشطت فيه المعارضة ـ أن يتعرض لكارثة لولا وعي الشعب والجيش، فقال الشاعر:

بوركت يا موطن الأحرار، ملتفعاً ... بالغيث حيناً وبالنيران أحيانا

(1) سلامة عبيد – ديوان لهيب وطيب – مصدر سابق – ص 105
(2) المصدر نفسه – ص 114

أبيتَ أن تنحني يوماً لطاغية | أرادنا في ربوع الشام قطعانا
وأتُخم السجن والمنفى بمن رفضوا | أن يخدموه طواغيتاً، وعبدانا

وخاطب الشاعر سلطان الأطرش الذي عاد إلى الوطن بعد أن ارتحل إلى حين زوال الدكتاتورية متحاشياً دفع البلاد إلى حرب أهلية قائلاً:

أبا طلال هنيئاً ما ظفرت به | يا صارماً في يد العلياء ما هانا
أبوك أسماك سلطانا وصّدقه | رب أرادك يوم الرّوع سلطانا[1]

الدعوة إلى العدالة الاجتماعية:

تبنى سلامة عبيد أفكار العدالة الاجتماعية، وعّبر في بعض من قصائده عن اصطفافه إلى جانب الفقراء من أبناء شعبه. وقد رسمت ريشته مظاهر الاستغلال بصوره المختلفة، فحين انضم العراق إلى حلف بغداد، كتب قصيدة " يا نخيل العراق " كاشفاً من خلالها طمع الأجنبي في خيرات العراق، ونهب ثرواته، واستغلال ثمرة عرق أبنائه:

يا نخيل العراق، من في العراق | يرفع الهام بعد شد الوثاق؟
فاخفض الطرف هل ترى غير | شعبٍ كادح نيرُه على الأعناق
يزرع الأرض بهجة ورجاء | وجناه مرارة الإملاق
بشم الغاصبون من كّد يمناه | وضّنوا بفضلة الأطباق[2]

---

(1) سلامة عبيد – ديوان لهيب وطيب – مصدر سابق – ص 122

(2) المصدر السابق – ص 128

وبعد استقلال سورية تسنّم زعماؤها السياسيون دفة الحكم، ولاحظ سلامة أن هؤلاء القادة سرعان ما تناسوا حقوق أبناء وطنهم في حياة كريمة، وكأنما في آذانهم وقر، فهم لا يسمعون مطالب أبناء الشعب، فقال مخاطباً الأمير عادل أرسلان الذي عاد إلى سورية عشية الخلاص من حكم الأجنبي:

أيها العائد المضمّخ بالمجد أخاف العتاب إن قلت جهرا

إننا في الشوامخ السمر ما زلنا عطاشاً والسفح ما زال قفرا

مجدباً من معالم النور والعمران خصباً لو زاره الغيث بكرا

فكأن النداء يلقى إذا صوّت في مسمع القيادة وقراً[1]

ويكتب سلامة قصيدة "أبو رمانة" مصوّراً التحول الذي طرأ في تلك البقعة من مدينة دمشق. فقد كانت منطقة أبي رمانة حافلة بأردية الشجر، فاستُبدلت تلك الخضرة بالقصور الشاهقة، للأثرياء الذين خلقتهم الحرب العالمية الثانية. وفي مطلع القصيدة تتساءل ابنة الشاعر قائلة:

أبي قلتَ: "علاء الدين" أسطورة قصّاصٍ

فهل هذي القصور البيض، يا ربي، أساطيرُ؟!

وقبل أن يجيب الشاعر على تساؤل ابنته، راح يصور التفاوت الصارخ بين الحياة البائسة التي عاشها مع ابنته، وقد عضهما الجوع وا لحرمان، وبين حياة سكان القصور الذين يرفلون بأثواب النعيم، ليربط ربطاً جدلياً أسباب فقر الفقراء مع غنى الأغنياء:

---

[1] سلامة عبيد – ديوان لهيب وطيب – مصدر سابق – ص 73

وكنا في ظلال الخوف نبني من بقايانا
ومن أكبادنا، هذي القصور البيض للناس
ومن عريك يا بنتي فرشناها لهم خزاً
ومن عين جفاها النوم أنواراً زرعناها
ويختتم قصيدته قائلاً:
نعم هذي القصور البيض من أكبادنا تبنى[1]

وتعزّز حياة الشاعر في الصين من إيمانه بالعدالة الاجتماعية، ويرى أن هذه العدالة ليست بكف القدر ولن تنزل على الناس من السماء، بل تتحقق بإرادة الإنسان وبعزيمته، وبسيادته على أرضه، فيقول في قصيدة "السّر الكبير":

وعلمنا أن للإنسان في الأرض السيادة
وله حق الإرادة
لم يعد بالخيط مشدوداً بكف القدر
خائفاً من عالم الغيب ذليلاً يتضّرع[2]

ويحاول الشاعر أن يرى ما يوجد بين أبناء الصين، وأبناء بلاده فيقول:

وإنْ فرقتنا الجبال السحيقة ...
وماء البحار العميقة..
يوحدنا هدف رائد
ويجمعنا خندق واحدٌ[3]

---

[1] سلامة عبيد – ديوان لهيب وطيب – مصدر سابق – ص 95
[2] سلامة عبيد – مختارات شعرية – دمشق – بلا تاريخ – ص 24
[3] سلامة عبيد ـ مختارات شعرية شعر – 1977 – ص 15

فأبناء الصين كما يرى الشاعر يحملون المعول بيد، والبندقية باليد الأخرى، لتحقيق العدالة من جهة، ولمواجهة مكائد الرأسمالية العالمية من جهة أخرى، وهذا شأن أبناء بلاده التي لا تزال تخوض معركة الحرية دامية الجراح، فيقول في قصيدة " أغنية المطر"

لم أعد أحيا غريباً

فهنا أهلي البناة الكادحون

حملوا المعول في كف

وكف في الزناد

وهناك........

تبسم الأرض لقومي الكادحين

حملوا المعول في كف

وكف في الضماد

فمتى تشفى الجراح

ويغني في يد الشعب السلاح

لست أدري[1]

ويتطلع الشاعر إلى يوم ينفض فيه العرب عن أنفسهم رداء الاستكانة، ويتحررون من الأوهام، والخرافات، ويمشون بعزيمة لا تلين في درب الحرية والعدالة الاجتماعية: يقول في قصيدته " إلى صديق صيني ":

أيها القادم من أرض بعيدة،

وسعيدة

---

[1] سلامة عبيد ـ مختارات شعرية شعر – 1977 – ص 8

هل ترى مثلي على أرض العروبة
ظلمة الليل الرهيبة
حيث يغفو الشعب مزهواً بأمجاد القبور
حالماً في عالم الغيب بجناتٍ وأنهار وحور
وهو في الأرض ممزّق
وبأوهام معلق[1]

ويصح القول: إن حياته في الصين قد وسعت عالمه الشعري، وأضفت عليه ملامح إنسانية، نجدها في قصائد ديوانه الثاني المختارات كقصيدة: "أغنية إلى بيونغ يانغ – حمامة السلام –

ثمة قصائد كثيرة يمكن أن تعزز المناحي الرئيسة التي عبرت عن هوية سلامة عبيد ورؤيته الشعرية، وبصورة عامة فإنه من الصعوبة بمكان فصل الهم العام عن الهم الخاص في شعره، فصفحات تاريخه وطيدة الصلة بصفحات تاريخ وطنه وشعبه، وقد عبر عن الآم هذا الشعب وأفراحه، وعناوين الكثير من قصائده تفصح عن ذلك وخير مثال على ذلك " العلم العربي ـ 6 أيار ـ تحية لبنان – قبل النكبة – الحدود المحطمة – بعد النكبة – يا نخيل العراق – ذكرى المالكي – وغيرها.

احتفى سلامة عبيد بالوحدة السورية المصرية وتغنى بها، وآلمه الانفصال، ورثى قائد هذه الوحدة الرئيس جمال عبد الناصر، مشيراً في هذا الرثاء إلى عروبة الشام ووفائها لبلاد النيل:

حمّلتني الشآم يا نيل حباً وحنيناً وذكريات زواخر
للوفا الشام للعروبة تحيا للرسالات للندى للمآثر

[1] المختارات – مصدر سابق – ص 26

بغـصون الزيتـون تلقـى الأحبـا   ء وبالمرهفـــــات البــــواتر[1]

ولدى سلامة قصائد وجدانية خالصة، تتجلى فيها نزعته الرومانسية وحبه لجمال الطبيعة منها: "ليتني أنسى – لست أدري – البلبل – الخريف – حي القصور – أغنية المطر – إلى ابنتي – أبو رمانة ـ رسالة إلى ولدي – ".

أما من الناحية الفنية لشعره، فقد لا نذهب بعيداً إذا أشرنا إلى تواصل الشاعر مع معظم المذاهب من كلاسيكية شوقي، إلى رومانسية شعراء المهجر، وصولاً إلى القصيدة الحديثة التي هجرت وحدة البيت ونوعت في إيقاع الشعر وموسيقاه، وثقفت اللفظة الشعرية وهذبتها وعصرنتها، ومنحت الصورة ثوباً جديداً. وبلغة القدامى تميز شعر سلامة عبيد بالطلاوة، وقرب المأخذ، ولو لم تشغله تحديات الحياة، وأحداثها القاسية عن العناية بشعره، ومنح هذا الشعر الوقت اللازم لتهذيبه وتنقيحه لكان أغنى تجربته الإبداعية، وأثرى موهبته، وارتقى بشعره إلى ذرى جديدة.

وفي الختام: يمكن القول: كان سلامة عبيد محباً للحياة متنوع الاهتمامات، مؤمناً بأهمية العمل في حياة الإنسان، وقد أسهم في مجرى حياته، فضلاً عن شعره في التدريس، فعلّم أجيالاً من الطلبة، التاريخ وحب اللغة العربية، ونمّى لديهم القدرة على تذوق جمالاتها وتميز في علاقته بزملائه وصحبه بدماثة المعشر، فكان لماحاً، سريع الخاطر، يتقن فن السخرية، وما زال أبناء الجبل يرددون أقواله الساخرة، ونوادره المحببة.

أصبح مدير الثانوية الوحيدة في السويداء في خمسينات القرن العشرين، وعُيّن فيما بعد مديراً للتربية، وتم انتخابه إلى مجلس الأمة إبان الوحدة السورية المصرية، التي أخلص لمبادئها، وكان يرى أنها تحمل تباشير الوحدة العربية

[1] المختارات – مصدر سابق ـ 49

الشاملة، في مرحلة تميزت بصعود حركة التحرر العربية، حيث انتصرت ثورة الجزائر، والثورة العراقية، والليبية وقامت الجمهورية اليمنية، وبرزت زعامة عبد الناصر الشعبية في شتى الأقطار العربية، إلا أن الاستعمار الذي قسم العرب في اتفاقية سايكس بيكو وأقام الكيان الإسرائيلي، لم يتوقف لحظة عن التآمر على هذه الوحدة، وتغذية نوازع الانفصال بين سورية ومصر، ليشكل ذلك طعنة نجلاء، لاماني الشاعر، ولأبناء جيله.

عكف سلامة أثناء إقامته في الصين على تأليف معجم عربي - صيني، وقد استهواه هذا العمل مدركاً أهميته في تعزيز أواصر الثقافة بين الشعوب. وعاش حياته في الصين بتواضع النساك وزهدهم وتصوفهم وظلّ وفياً لجلال الشعر.

لقد كتب سلامة عبيد عن نفسه وعن عصره، ومن يكتب عن نفسه وعصره بصدق، فهو يكتب عن كل الناس وكل العصور.

وبعيداً عن المبالغة يمكن اعتباره من الجيل المؤسس والمساهم في ترسيخ القيم الوطنية والثقافة الرفيعة والأدب الصادق في الجبل، ذاك الجيل الذي كان يستمرئ عذاب النضال، ويتحمل تبعاته، ويزهد بالثراء، ولا يغويه الجاه ورخاء العيش، كما يصور ذلك أصدق تصوير الشاعر عيسى عصفور، أحد زملائه ورفاق دربه حين رثاه قائلاً:

وكُنّا نجرع الآلام صرفاً ... حلالاً كالرحيق المستطابِ
ونلمح في احتدام البؤس فجراً ... وتُطربنا مواجهة الصعابِ
رغبنا عن مطامع مغرياتٍ ... وكان لنا إليها ألف بابِ
شريعتنا النضال وفي دمانا ... هيامٌ بالعروبة لا تصابي
وكنت سليل أبطال تنادوا ... إلى ساح الجهاد ليوث غابِ
وأنكرت الثراء الغر زهداً ... ولم تفتنك شامخة القبابِ

أعمال سلامة عبيد المنشورة:

1- اليرموك. تمثلية شعرية عام 1943.

2- ديوان لهيب وطيب طُبع 1960

3- ديوان الله والغريب طُبع 1997

4- الثورة السورية الكبرى عام1970

5- أغنيات لأطفال بلادي طبع عام1997

6- أبو صابر طبع1971

7- أمثال وتعابير شعبية1985

8- ذكريات الطفولة عام 1987

9- الثورة السورية الكبرى على ضوء وثائق لم تنشر بيروت1971

10- الشرق الأحمر1965

11- جبل حوران " ترجمة عن بركهاردت طبع 1958 "

12- معجم الصينية العربية بكين1978.

مؤلفاته المخطوطة:

1- المترادفات العربية.

2- ملاحظات حول الترجمة.

3- النساجة وراعي البقر أسطورة صينية.

4- أمثال وتعابير من ألف ليلة وليلة.

5- طرائف من الصين.

6- لمحة عن تطور الشعر العربي القديم من الجاهلية حتى القرن العشرين.

7- القراءة العربية (معد للطلاب الأجانب الذين يدرسون العربية)

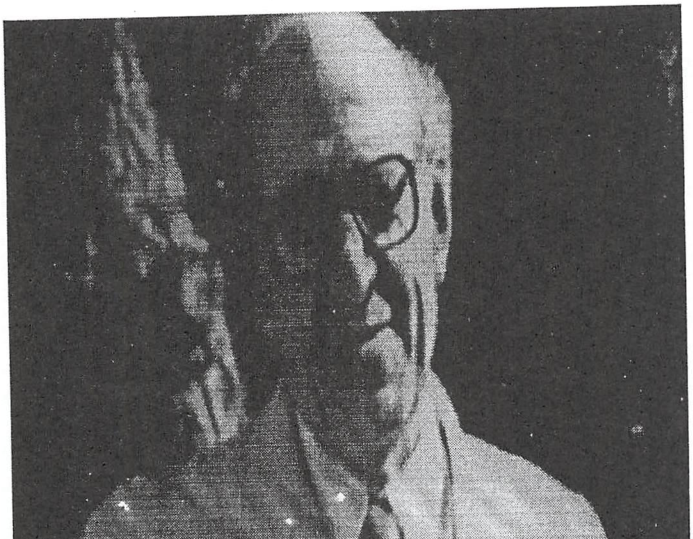
8- المحرمات والمكروهات في القرآن.

9- المعارضة والمعارضون في عهد محمد.

10- مقتطفات مقارنة من الديانات السماوية الثلاث.

11- رحلة في جبل حوران1853 القس بورتر(مترجمة)

12- لمحة عن موسيقى الشعر العربي.



صياح الجهيم

صياح الجهيم المعلم والإنسان

صياح الجهيم
صياح الجهيم المعلم والإنسان

ولد صياح الجهيم في قرية كناكر الواقعة جنوب – غرب السويداء عام 1929، وكان والده سليم من الرعيل الذي شهد الصراع الضاري مع الغزاة الفرنسيين، وعاش أيام الثورة السورية الكبرى بمآثرها وبصفحاتها التراجيدية، وكانت تربطه علاقات صداقة وطيدة مع أبرز الشخصيات الوطنية في الجبل، ليذكر صياح فيما بعد كيف كان والده يرسله وهو فتى تحت الخطر، حاملاً الطعام إلى بعض الزعماء الوطنيين، الذين كانت تعتقلهم السلطات الفرنسية في سجن القلعة، في ذروة النضال من أجل الاستقلال عام 1945.

أدرك والده بفطرته السليمة، أهمية العلم في الحياة، وحرص على أن ينقذ أطفاله من قسوة العمل في الريف، ومن شقاء حياة الفلاحين، الذين يشركون أبناءهم في عملهم منذ الطفولة، فبعث بأولاده جميعاً إلى المدارس، فأقبلوا على التعلم بشغف، ولم يخيبوا آمال الأب.

يقول صياح " تعلمت في المدارس الابتدائية في عهد الاستعمار البغيض، تعلمت الفرنسية قبل تعليمي العربية الأم، وفي عام 1948، حصلت على الشهادة الثانوية، وانتسبت إلى جامعة دمشق، فحصلت على شهادة في آداب اللغة الفرنسية، وعلى إجازة في آداب اللغة العربية، ودبلوم في التربية، ثم سافرت بعدئذ إلى فرنسا"[1].

---

[1] علي القيم ـ صياح الجهيم مبدعاً لبراعم أيامنا – وزارة الثقافة – 2010 ص 223

"ينتمي صياح الجهيم كما يقول كمال القنطار إلى الجيل الذي ورث رسالة التنوير من روادها الأوائل، وأضاف إليها أبعاداً فكرية واجتماعية زادت من ثرائها، وقد شهد النهوض الوطني في أربعينات القرن العشرين وخمسيناته، وعاش تلك المرحلة من تاريخ سورية، حيث تآزر الشعب والجيش في وحدة وطنية لا سابق لها للدفاع عن استقلال البلاد، وتعزيز الدور الريادي لسورية العربية في حركة التحرر".[1] وعمل صياح بعد عودته من فرنسا في حقل التعليم لتتجلى موهبته، وقدراته الاستثنائية في هذا الميدان.

صياح جهيم معلماً

ربما تكون مهنة التعليم، من أكثر المهن أهمية، في تحديد خيارات الناس لنوعية العمل الذي سيمارسونه في حياتهم. ويمكن هنا الإشارة إلى المرحلة الثانوية إشارة خاصة، فحساسية هذه المرحلة، تنبع من شعور الطلاب أنهم على مفترق طرق، وأنهم بحاجة إلى من يمد لهم يد العون، وينير لهم طريق اختيار مهنة المستقبل، وقد وضعوا أقدامهم على عتبة مرحلة جديدة، مرحلة التأهيل واختيار العمل الذي يحلمون به في معترك الحياة. وإذا مانحينا جانبا ظروفهم المادية التي قد تساعد أو تعيق أحلامهم، يبرز دور المعلم الذي يعتبره الطلاب قدوة ومثلاً يحتذى، وقد يختارون مهنة معلمهم ذاتها، وبخاصة إذا ما نجح في تقريبها إلى نفوسهم وفي شغفهم بها. وقد لا نبالغ هنا إذ نقول إن الأستاذ صياح الجهيم قد أسهم إلى حد بعيد في تحديد خيارات كثير من طلابه.

لقد أطل على الدنيا معلماً للغة العربية، وكان حب اللغة المصباح الذي أضاء طريقه، وملك عليه قلبه ووجدانه، وفجر موهبته اللغوية التي يراها

[1] كمال القنطار – من كلمة قيلت في مكتبة الأسد 5 تموز 2010 بمناسبة الذكرى العاشرة لرحيل صياح الجهيم

بعضهم موروثة مع سر الخلية، ولم تكن اللغة على ما فيها من غرائب وأسرار سهلة القياد، فراح يروّض جماحها، فتطيع له بعد تمنع، ليقول فيما بعد أنه قد عشق هذه اللغة وأنه قد وهبها أعز لحظات عمره وغذاها بضوء عينيه.

بهذا الحب أيضاً نظر إلى طلابه، وسعى إلى تقريب اللغة إلى عقولهم، وأصبح ذلك هدفاً سهر من أجله الليالي الطوال، ولعله من حسن حظ من تتلمذ على يديه، أن تصبح دروس اللغة العربية أحب الدروس إلى قلوبهم ينتظرون فيها قدوم معلمهم بصبر فتية لا يقدرون على الصبر.

كان يكتب القصيدة بخط جميل أنيق، ثم يقرأ النص الشعري فيأتي صوته مجلجلاً مفعماً بالجهارة حيناً، مغموساً بالعذوبة والهمس حيناً آخر، هادراً كشلال تارةً، رقيقاً كنسمةٍ رخيّةٍ تارةً أخرى، ثم يبدأ بتحليل النص وكشف جمالياته، فتسري عدوى تذوق الجمال بين الجميع، وتسكرهم روعة الأدب، فتأتي لحظة الاختبار، يمحو الأستاذ أبيات القصيدة على التوالي سائلاً عمن يستذكرها، وكم من نصوص ارتسمت في ذاكرة طلابه، وحفظوا قوافيها قبل أن يخرجوا من قاعة الدراسة، ولا تزال هذه النصوص مغروسة في وعي الكثيرين منهم حتى اليوم. هذه القدرة الاستثنائية على التعليم، جعلته مثلاً في عيون جيلٍ كاملٍ من طلابه، ونقشت حب العربية في وجدانهم، فمشوا في دروب معلمهم. وليس من قبيل المبالغة أن تعليمه العربية كان كفاحاً على جبهتين:

الأولى: أنه علّم البيان، وما أنتجته قرائح أبناء العربية من شعر ونثر، من مختلف العصور، وكيف يمكن أن يميز الأدب الجيد عن غيره، وما السبيل إلى تنمية القدرة على التذوق الفني، والتعرف على خفايا الجمال الخافي في البلاغة العربية.

وعلى الجبهة الثانية: كان يعكس الأثر العظيم الذي يسبغه الأدب في الحياة الروحية والأخلاقية والفكرية للناس، ومن خلال اللغة ومن خلال الأدب سعى إلى تجسيد المثل والقيم والمبادئ التي يجدر بطلابه أن يتحلوا بها.

أول هذه المبادئ: إيمان راسخ بالعروبة لا يعلو عليه إيمان، صادر عن ثقة لا حدود لها بمقومات العروبة ومستقبلها، كيف لا؟ واللغة العربية تغذي هذا الإيمان ويعبق شذاه في الشعر العربي القديم والحديث فمن قديم الشعر ردد على مسامع طلابه قول المتنبي:

وإني لمن قوم كأن نفوسهم	بها أنف أن تسكن اللحم والعظما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني	ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما[1]

ومن حديث الشعر قول القروي:

إني لصدّاح العروبة طاب لي	شدوي على سرواتها وتنقلي
ووقفت ألحاني على المجد الذي	أبلى الزمان مع العظام وما بلي
روّى شقائقه وضرّج ورده	مهج تسيل على شفار الأنصل[2]

ثاني هذه المبادئ: الوطنية التي تتخطى الإحساس العاطفي، لتصير هويةً وانتماءً وفضاءً ديمقراطياً، لا خوف فيه ولا اغتراب، ينعم فيه الإنسان بحقوقه الطبيعية من حرية وكرامة وحب للآخرين، كان يقول: من لا يحب بيته وأسرته والقرية أو المدينة التي نشأ فيها، لا يستطيع أن يحب وطنه حباً أصيلاً، ومن لا يحب وطنه يتعذر عليه أن يحب أمته، ولا يمكن أن يكون محباً للإنسانية. ودعا إلى أن يميز طلابه بين الحب والتعصب، فالمواطنة لديه تجاوزٌ للعصبية العشائرية والطائفية والإقليمية، وامتلاك لشعور بأن الإنسان أخ للإنسان في وطنه مهما كان لونه ودينه، ومهما ابتعد عن هذا الوطن، ولطالما قرأ شعر المهجريين الذين تطلعوا من بعيد إلى وطن متحضر، لا تعيق تقدمه أصنام جاهلية ولا أسوار

---

[1] عبد الرحمن البرقوقي _ شرح ديوان المتنبي _ الجزء الرابع _ ط2_ مصر 1938/ص229

[2] رشيد سليم الخوري – ديوان الشاعر القروي – مج 2 دمشق 1983 ص 129

طائفية. وذات يوم تلا على هؤلاء الطلاب قصائد من ديوان إيليا أبي ماضي، ووقف أمام قصيدة له، كرم فيها المهجريون كمال جنبلاط إثر زيارته لهم، في بلاد الاغتراب، يقول أبو ماضي:

تلك المنازل كيف حال مقيمها ... إنّا قنعنا بعدها برسومها
خبرهُم أن الكواكب لم تزل ... تحنو على العشاق بين كرومها
يا حاملاً في نفسه وحديثه ... أحلام أرزتها ولطف نسيمها
الجاهلية آه من أصنامها ... بوركت يا من جدّ في تحطيمها
والطائفية أنت أول معول ... في سورها ثابر على تحطيمها
إن أكرمتك نفوسنا في ليلة ... فلكم قضيت العمر في تكريمها[1]

كان اختياره للنصوص الشعرية وطيد الصلة برؤياه وفلسفته، فصياح أراد بهذا النص دعوة طلابه إلى الابتعاد عن الجاهلية والتعصب، وإلى التمرد على الطائفية البغيضة، وإلى الولاء للمعرفة والجمال والإخلاص في محبة الناس.

الحرية هي أقنوم ثالث في رؤيا صياح الجهيم، والحرية في هذه الرؤيا ليست شعاراً، ولا كلمة موسيقية عذبة الوقع، بل هي المعرفة المقترنة بالعزم، إنها حرية القلم الجريء يدك عرش الطغاة، هي كما يقول الكواكبي: الفعل لا القول، ينهض به الشعب فيلُجئ الظالم أو المستبد إلى العدل. ولم يخف صياح الجهيم نفوره من أولئك الذين يحرقون البخور أمام الحكام القساة في كل عصر وأوان، لذلك أحب صياح الجهيم خليل مطران شاعر الحرية وكتب عنه. ففي حين رأى الناس في الأهرامات إحدى عجائب الدنيا السبع، اخترق خيال مطران هذه النصب الشاهقة، ليرى المناء البشري الذي كان يُسخّر فيه مئة ألف مصري

[1] إيليا أبو ماضي _ تبر وتبراب _ بيروت _ دار العلم للملايين ط5 _ 1970، ص166

في كل نوبة، وعلى مدى ثلاثين عاماً كي يبنوا قبوراً للفراعنة، يقول مطران:

إنـي أرى عـدّ الرمـال هـا هنـا   خلائـــق تكثـــرأن تـــعددا
صـفر الوجـوه ناديـاً جباههـم   كـالكلأ اليـابس يعلـوه النـدى
محنيـة ظهـورهم خـرس الخطـى   كالنمـــل دبّ مـــستكيناً مخلـــدا
مجـــتمعين أبحـــراً منفرعيـــن   أنهـــراً منحدريـــن صـــعّدا
أكلّ هـذه الأنفـس الهلكـى غـدا   تبـــني لفـــانٍ جدثـــاً مخلّـــدا[1]

وفي تعليق صياح الجهيم على القصيدة رأى: "أن الكثير من أمجاد التاريخ قامت على الظلم، وأن الملايين قد لاقوا العذاب والعسف والموت لكي يبنوا قبراً لفرعون، وقد هلكت تلك الملايين، وفني فرعون، ولم يبق سوى القبر. ولا تأتي قيمة القصيدة من أنها تندد بالاستبداد فحسب، بل تأتي من أنها تربط الماضي بالحاضر، وتأتي قبل كل شيء من تحريضها على تمزيق حجب الزيف التي تغشّي التاريخ البشري، بغية رؤية ذلك التاريخ على حقيقته[2].

رابع هذه المبادئ: الاشتراكية، فقد كان يتطلع إلى نظام اجتماعي ينصف الإنسان، فيحظى منه بقدر عرقه وسهره وتفانيه وإخلاصه، وجاهر صياح جهيم بالاشتراكية ودعا إليها في زمن كان يكفّر كل من يبشر بها، وكان يرى أن نزوع الإنسان إلى العدالة والاشتراكية قد يمنى بالإخفاق، ولكنه لن يتوقف وهو قديم قدم المجتمعات الإنسانية، وإرهاصات هذه العدالة ماثلة في تراثنا الحضاري وأدبنا العربي. والشواهد على ذلك ليست قليلة، وستبقى الاشتراكية بمعنى العدالة في توزيع الثروة، حلم البشرية الجدير بالتضحية للخلاص من الرأسمالية المتوحشة.

---

[1] د. ميشال جحا _ خليل مطران _ بيروت _ دار المسيرة 1981 _ ص271
[2] صياح الجهيم – خليل مطران – دمشق – وزارة الثقافة – 1990 – ص 96

ولدى توضيح رأيه في التدريس يقول " كان التدريس بالنسبة إلينا جزءاً من العملية الاجتماعية والسياسية الشاملة، فلقدْ اخترنا الخط التقدمي طريقا لنا، فآمنا بالعروبة وبالاشتراكية، وبالديمقراطية، وبالحرية وفهمنا التراث فهماً صحيحاً، وكان علينا أن نستخرج من الماضي، قيم الجمال والديمقراطية والقومية والتقدم والإنسانية، والقيم المتأصلة بالشعب حقاً، والذي كثيراً ما طمس اسمه، مع إنه صانع هذا التراث." [1].

ولقد أبّن صياح الجهيم ذات يوم الأستاذ محمود الجغامي أحد زملائه مدرسي اللغة العربية، وكان التأبين بمثابة بيان يتحدث فيه ليس عن الفقيد فحسب بل عن نفسه وعن رسالة المعلم ودوره ومهامه قائلاً:

" كانت أمامه مهمات ثلاث:

- أن يعلم طلابه أولا الاعتزاز بمآثر الجبل، في محاربته لكل غاصب ومستعمر ودخيل، وإبراز دوره الوطني والقومي والعربي منذ عهد العثمانيين، وفي الثورة السورية الكبرى مأثرة المآثر الوطنية في أيامها المشهودة على وجه الدهر.
- وثانياً أن يدافع عن اللغة العربية ما وسعه الدفاع عنها فيما يقول، وفيما يكتب، هذه اللغة التي عشقها لأنها حملت إلينا تاريخنا وتراثنا العربي، ولأنها على امتداد الزمان والمكان هي الرباط الحي الذي لا يلحق به الفناء.
- وكانت العروبة ثالثاً همه الأساس، وإن صح أن يقال العروبة دين، فلقد كانت العروبة ديناً له، كانت العروبة عقله ووجدانه، والوحدة العربية هدفه وغايته، وانبعاث العرب مطمحه ورجاءه.

---

[1] علي القيم – مصدر سابق – ص 225

وأضاف:

- نحن المعلمين حاولنا أن نعطي أبناء هذا الجيل كل ما نملك، لم نعط علماً فحسب، لم نعط تربية فحسب، لم نعط أفكاراً فحسب، وإنما بشرنا بولادة جديدة للأمة العربية كل على طريقته وحرصنا على تلك الولادة، وخضنا المخاض مع الخائضين وكانت لنا هنات، وأصابتنا سهام فآه ثم آه "[1].

احتلت العقلانية حيزاً في فهم صياح الجهيم للحياة، وكانت مصباحاً يضيء له طريق المعرفة، وجعل منها معياراً للتعرف على الحقيقة في التعليم، وفي أوجه الحياة المختلفة. وقد قال في برنامج كاتب وموقف الذي تعده إذاعة دمشق "إن العالم قابل لأن يعرف، وإننا نستطيع أن نعقلن العالم، وأن نقيم علاقات إنسانية، مستندة إلى العقل، علاقات تجعل من الإنسان الحر القيمة الأساس التي لا يجوز المساس بها، فالعقلانية تعلمنا أن نكون نسبيين، والجهلة وحدهم هم الذين يسارعون إلى التعميم والإطلاق".

الجهيم والثورة السورية الكبرى

نظر صياح الجهيم إلى الثورة السورية الكبرى، بعين المثقف، والوطني، والإنسان، فرأى أن ملاحم هذه الثورة توافر لها عاملان أساسيان: الأول قيادة شعبية شجاعة، تحظى بثقة الناس وحبهم وتقديرهم الذي لا حدود له، والعامل الثاني التفاف شعبي حول هذه القيادة، فقد كان الفقراء والفلاحون البسطاء هم وقود الثورة، وهم صنّاع تاريخها المظفر، وقد تسابقوا إلى ساحات الوغى يقدمون أرواحهم في سبيل الحرية والاستقلال، ففي تقديم الجهيم لكتاب ذكريات الطفولة لسلامة عبيد يقول: "تروي هذه النصوص أطرافاً من صبر أبناء

---

[1] كلمة صياح الجهيم في تأبين الاستاذ محمود الجغامي

الجبل على المحن، ومن إبائهم ونخوتهم، ومن إيثارهم الفقر، والموت، والنفي، على الذل، والعار، والمهانة، ومن حبهم للحرية، وكرههم للمستعمر والغاصب والدخيل، ومن امتداد الروح العربية الصافية فيهم"[1].

ويشير صياح في إحدى مقالاته إلى ما كتبه عبد الرحمن الشهبندر " عن ذلك البطل الثائر الذي استشهد أولاده الأربعة في معركة المسيفرة، وهم يحملون البيرق، واحداً بعد واحد وما أن سقط آخرهم حتى تناول والدهم البيرق بيده، وقاتل حتى جرح، فنقل إلى قريته، قال الشهبندر إن هذا الرجل حين أحس بالموت دعا زوجته إليه، وهمس إليها بشيء ثم مات، ولم يعرف أحد ما قال لها"[2].

وكان كفاح الجبل من وجهة نظره، سفراً في النضال الوطني، للشعب السوري الذي هب في وجه الغزاة، فأيقظ الروح الثورية في البلدان العربية الأخرى، فلقد عرفت سورية أكثر من ثلاثمئة انتفاضة، وتمرد، وثورة في مواجهة المحتل الفرنسي، امتدت على مساحة الوطن من شماله إلى جنوبه، ومن شرقه إلى غربه، وقد رأى الجهيم نضال أبناء الجبل في هذا السياق الوطني، وتتبع ما كتب عن الثورة شعراً ونثراً، ونقل إلى طلابه ما أعجبه من عيون أدب الثورة الذي جسد هذا البعد الوطني، و كان يؤثر بخاصة قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي (نكبة دمشق) التي قالها عام 1926، متضامناً مع كفاح الشعب السوري، وقد بلغ شوقي في هذه القصيدة، ذروة الإبداع، والابتكار، فالحرية حمراء اللون؛ لأن بيارقها مصبوغة بالدم، وباب هذه الحرية لا يفتح إلا بأيد ثوار تضرجت أيديهم بدماء المعتدين، وللأوطان دين في أعناق أبنائه الأحرار

---

(1) سلامة عبيد – ذكريات الطفولة – تقديم صياح الجهيم ص 15

(2) صياح الجهيم - تنويعات على جسد اللغة – ص 82 – كتاب صياح الجهيم – علي القيم مصدر سبق ذكره.

يدفعونه من مهجهم، وأرواحهم في ساحات الوغى فداء لعزة الوطن واستقلاله حيث يقول شوقي:

بني سورية اطرحوا الأماني ... وألقوا عنكم الأحلام ألقوا
وقفتم بين موت أو حياة ... فإن رمتم نعيم الدهر فاشقوا
وللأوطان في دم كل حرٍ ... يد سلفت ودين مستحق
وللحرية الحمراء باب ... بكل يد مضرجة يدق

ويختتم شوقي قصيدته مشيداً بأبناء الجبل، وقد ترددت أصداء بطولاتهم في كل صوب، وتناقلت أنباءها الصحف في العواصم العربية، ومع ذلك لم تسلم تلك البطولات، والتضحيات من ألسنة بعض من حاول الإساءة لها، يقول الشاعر:

لهم جبل أشمّ له شعاف ... موارد في السحاب الجون بلق
لكل لبوءةٍ ولكل شبلٍ ... نضال دون غايته ورشق
كأن من السموأل فيه شيئاً ... فكل جهاته شرف وخلق[1]

وقد حظي الشعر الشعبي في الجبل باهتمام الجهيم، ودرس أهم سمات هذا اللون من الشعر، وتبين له أن الثورة السورية الكبرى مصدر إلهام الشعراء الشعبيين، حيث راحوا يتفننون في وصف وقائع هذه الثورة، يقول الجهيم: "الصورة المركزية في الشعر الشعبي في الجبل، هي صورة البطل الفارس الملثم، الذي يحيط به فرسان أشداء، بذلوا نفوسهم في سبيل قضيتهم، فخاضوا غمرات الموت، وكابدوا حرّ الصيف، وبرد الشتاء، وعانوا الجوع والعطش، وتقطّرت

---

[1] أحمد شوقي ـ الشوقيات ـ بيروت ـ دار الكاتب العربي ـ ج2 ـ ص77

الدماء من أعراف خيولهم فلم يبالوا، وغذوا السير إلى غد مشرق ليعانقوا فيه فجر الحرية"[1].

تجلى من جانب آخر موقف صياح - الإنسان من الثورة السورية، من خلال حرصه على استمرار علاقته الحميمة، مع أبرز الشخصيات الوطنية التي أسهمت في الكفاح الوطني، وحافظت على قيم الثورة، وظل حتى اليوم الأخير من حياته يلتقي بتلك الشخصيات من

رفاق والده، لقاءات غنية بأحاديث تستعاد فيها أحداث ووقائع حفل بها تاريخ الثورة المضيء.

مزايا الجهيم الشخصية وبعض من طباعه:

في الطبيعة الإنسانية تتوزع المواهب والملكات والقدرات بين الناس، وقلما اجتمعت إلا في شخصيات نادرة من النابغين، كما أنها لم تلتق إلا في قلة قليلة ممن تبؤوا مكانة مميزة بين أبناء زمانهم، وصياح الجهيم كان من هؤلاء القلة الذين منحتهم الحياة عطاءاتها المباركة: الذهن المثابر، والعقل المتوهج المتجدد، والقلب الدافئ، والروح المتسامية، والشخصية الجذابة الآسرة. فثمة قيم ومبادئ حرص صياح على أن يهتدي بها في النظرة إلى الناس والتربية والفن والأخلاق والثقافة، يتراءى فيها مشروع متكامل للحياة يبدو فيه صياح الجهيم ظاهرة معرفية، ورجل مبادئ يكتوي بنار الحقيقة، أجل لم يكن صياح الجهيم حيادياً في معركة التنوير والظلامية، الرجعية والتقدم، العقلانية والمثالية، الحرية والاستبداد، التجزئة والوحدة، ولكنه في الوقت ذاته لم يكن متحزباً، ولذلك امتلك قدرة على بناء طيف واسع من العلاقات بين الناس على تنوع مشاربهم وتعدد ثقافاتهم، واختلاف أحزابهم ومبادئهم، من رجل الدين الطيب إلى

---

[1] صياح الجهيم – الشعر الشعبي في جبل العرب – من كتاب على القيم – مصدر سابق ص 109

المثقف العلماني المجد، ومن الشاب المتقد حماسة، إلى المرأة الحالمة بالحرية والوعي، إلى الرجل الكبير الذي عرف حلو الحياة ومرها. إلا أن أهم ما في شخصيته تلك القدرة على المحبة المعمدة بالمعرفة المتجهة صوب غاية سامية، ثلاثية الحب والوعي والغاية كانت بالنسبة إلى صياح الجهيم رؤيا وفلسفة حياة، وبها ومن خلالها حقق تواصله مع الإنسان والمجتمع، مع الكون والحياة. وذاق صياح الجهيم حلو الحياة ومرها، فقد ظلت العلاقة تراجيدية بين المثقف والسلطة في عالمنا العربي، أتقنت النظم العربية بناء السجون المنيعة بوصفها خير مكان للمثقفين المسكونين بالهم العام، فعرف صياح السجن السياسي، غير أن جدران السجن الصماء لم تهزم روحه، فظل وفياً لعمله مخلصاً لطلابه وشعبه وقد بادله طلابه وأبناء محافظته الحب بمثله، والشواهد على ذلك كثيرة فقد وزع هذا الإنسان خبز المعرفة الأدبية ذات اليمين وذات الشمال، ولم يدخل أحد بيته من محبي الأدب إلا وخرج محملاً بذات الزاد، هذا السخاء تجلى في حثّه طلابه على أن يكتبوا، وتمثل في رعايته للنشطاء والمبدعين ممن طلبوا رأيه، وكان لا يخفي فرحه بكل عمل جاد لهم وكأنه لقيا ثمينة، وكم من موهبة استطاع صياح الجهيم أن يفتح أكمامها لتضوع، وكثيرون هم أولئك الذين يشعرون بالامتنان للمعلم الذي سقى ينابيع الإبداع لديهم. وَرفد صياح الجهيم رسالته الأدبية بألوان شتى من الثقافة العربية والعالمية، فكان رجل أدب وفكر بآن معاً، سار على شطآن الفلسفة فقرأ الفيلسوف كانت وقرأ ديكارت وابن خلدون، ونهل من معين ابن رشد وهيغل والكرماني، وأحب جدل ماركس، ومن خلال قناعته بالفكر الإنساني الجدلي كرس له كثيراً من ترجماته فقدم للعربية أعمال أراغون ودوستويفسكي وإيلوار وتولستوي وبودلير وبريخت وغارودي وغيرهم، وإذا كان الغربيون قد كتبوا خلال قرن ستين ألف كتاب عن شرقنا وجعلوه ميداناً لأغراض التحليل والدراسة والمصادرة والعدوانية، والاستعلاء وإرادة السيطرة، فإن صياح الجهيم حرص على أن يقدم الثقافة الغربية بوجهها الآخر، ولعل إسهاماته وترجماته هي وجه من أوجه الدفاع عن الذات العربية وتحصينها إزاء مكر ثقافة الاستغلال والإمبريالية. وقد أتقن اللغة الفرنسية أيما إتقان، وذات يوم

قدمت إلى بيته مُدرّسة في جامعة السوربون متخصصة في الحياة الفكرية والسياسية السورية، وبعد اللقاء ودعته بعينين معبرتين، وفي الطريق همست قائلة: إنه يتحدث بالفرنسية كالباريسيين، وأعجب من ذلك فهو يعرف تفاصيل حياة بعض أدبائنا أكثر مما نعرف، ولكن لماذا يعيش بمثل هذا البيت المتواضع؟.

وثقافة صياح الجهيم لم تكن امتيازا ذاتياً، بل كان أهم ما يعنيه في كل ما كتب وترجم وعلّم، أن يقول كل ما عنده ثم يتركه بذوراً تحملها رياح الأيام والسنين، لأن الحياة فعل متصل في الزمان وذلك هو الأبقى، وقد يصح القول هنا، إن العبقرية الأدبية الفكرية، والموهبة الأصيلة، والفكر الناقد القوي يمكن أن يقفز خارج حدود الزمان والمكان، ليضع أمام الناس أفكاراً جديدة، وليجعل التواصل مع هذه الأفكار مستمراً يتناقله الناس من جيل إلى جيل. كان صياح الجهيم كما يقول شوقي بغدادي " من ذلك النوع من البشر، الذي وجد كي ينشر حوله تلك الطمأنينة التي يحتاجها الناس في المواقف الشائكة، كي يجتازوها دونما خسائر تذكر، والإنسان في صياح الجهيم هو المدهش أكثر من المثقف، أو المعلم، أو المترجم، أو المؤلف "[1].

كما " لم يغره – كما يقول الاستاذ عارف حديفة – ما أغرى ويغري الناس عادة، فقد عاش على موارد روحه حياة أشبه بالزهد، لكنه الزهد الذي يدعو إليه بعد الهمم لا ضعف النفوس، ولقد كانت الحياة الكريمة مع الأسرة والأصدقاء، والمسرات البسيطة، والعميقة، والتحصن في الموقع القريب من الناس، والمساهمة في نشر الوعي الحديث بُينهم، واجتلاء الجمال في الحياة، والأدب والفن معهم، ومشاركتهم الهموم، والأحلام، هو ما كان يطمئن إليه"[2]، وهنا يمكن الإشارة إلى موقفه من المرأة يقول صياح: "التمييز بين المرأة

---

[1] شوقي بغدادي – من مقال في كتاب صياح الجهيم مبدعاً –إعداد علي القيم – مصدر سابق ص 235.

[2] عارف حديفه – من مقال – صياح الجهيم مثقف متميز – بمناسبة الذكرى العاشرة لرحيله.

والرجل لا أقره في ضميري، ولا في حياتي، المرأة في معتقدي كالرجل، ثم أن المرأة منحازة إلى جانب المظلومين في وطنها وفي العالم، وهي إلى جانب قضية الإنسان في وطنها وفي العالم، وإلى جانب قضية التقدم والعدالة في وطنها وفي العالم، وأنا أشعر أن هذا الانحياز هو الخيار الوحيد لها، لأنه في نظري جزء متمم لأنوثتها وطبيعتها، وأمومتها"[1]. وربما لهذه المزايا، وتلك الطباع والسجايا يتحدث عنه طلابه، ويذهبون في هذه الأحاديث في كل صوب، يقول الأستاذ قاسم وهب: "كان في سلوكه اليومي يرى أن للكلمة شرفها الذي ينبغي أن ينأى بها عن الترخص، والابتذال، ناهيك بما أخذ به نفسه من عفة اللسان، وكرم الخلق، وعزة النفس، والتهذيب الرفيع، والحرص على عدم إيذاء جليسه بكلمة أو عبارة، ومن أبرز مناقبه إيمانه بحرية الرأي، وقدرته على قبول الآخر، في زمن كان فيه الاختلاف في الرأي يفضي إلى الخصومة، التي تصل أحياناً حد القطيعة، كان يحاور الآخرين بهدوء، ويحترم وجهة نظرهم، ويدلي برأيه مشفوعاً بالحجة، والمنطق، بعيداً عن التشدد، والتعصب"[2].

وفي الختام: عاش صياح الجهيم طوال حياته ينشد المعرفة الحقيقية التي لم تتكشف له عند الولادة، ولم يرثها أو يتلقفها من أحد بقدر ما كلفه السعي للوصول إليها غالياً، فما كسبه من وعي لجوهر حياة الإنسان وعظمتها كان وليد السهر والمعاناة والمكابدة التي لم تتوقف حتى توقف قلبه عن الخفقان، فقد توفي في أيار عام 2000، ولم يصل السبعين عاماً، ولقد كان موته مباغتاً، وكان ثمة شعور لدى الكثيرين من أصدقائه وطلابه، بأن بساط الحياة لا يزال منبسطاً أمامه، وانه لا يزال جديراً بالحياة، وفي ليلة رحيله تحدث صياح الجهيم على مرأى من سامعيه بقلب متقد، مترع بالآمال الرحبة، كان يبدو مفعماً بالحياة، مسكوناً بهموم الناس، وكان ذهنه مشدوداً إلى مشاغل، ومطامح فكرية وأدبية

---

[1] صياح الجهيم – إعداد علي القيم مصدر سابق ص 269.

[2] قاسم وهب – من كلمة في ذكرى رحيله العاشرة – في مكتبة الأسد.

لم تُنجز، تحدث وتحدث، وأعاد إلى أذهان الحضور رغبة أثيرة لديه، في أن يسهم مع آخرين " فريق عمل " يؤرخ كفاح أبناء هذا الجبل تاريخاً لا يشوبه انتقاص ولا تعصب. وفي الهزيع الأخير من تلك الليلة الثرية ودع سماره، تاركاً لديهم شعوراً بأن الحياة ما تزال مشرعة الأبواب أمامه، ولم يدر في خلد أحد منهم أن شعلة ذاك القلب الطافح بالحيوية ستنطفئ بعد لحظات، وأن قلم صاحب تلك الأحلام الفسيحة سيصمت أبداً، وأن صياح الجهيم لم يكن في تلك الليلة يحدث بقدر ما كان يتلو خطبة وداعه.

هذا الرحيل الهادئ جلل رؤوس كل الذين أحبوا صياح الجهيم بالأسى، وأعاد إلى أذهانهم ما انطوى في أعماقهم من صور اللقاءات الحارة، والحوارات المخضلة بالمعرفة حين يتنقلون مع الفقيد في حدائق الأدب والفكر، وتراءت أمامهم سيرته مشفوعةً بالتساؤل عن سر تلك الشخصية التي غيبها الردى.

مات ليقول فيه الأديب حنا مينه " لقد رشفنا من راحتيه نحن طلابه، حب الوطن، ومجد الكلمة "[1].

رجل مات لم تكن تحميه
غير ذراعيه المفتوحتين للحياة
رجل مات يواصل الكفاح
ضد الموت وضد النسيان
فكل ما يريده
نحن نريده أيضاً
أن تضئ السعادة
في قرارة العيون والقلوب
وعلى الأرض العدالة

وكلمات يحيا بها الإنسان، منها الدفء ومنها الثقة، والحب والعدل وكلمة الحرية.

---

(1) صياح الجهيم – إعداد على القيم مصدر سابق ـ ص 226.

أعمال صياح الجهيم وترجماته

مطبوعات وزارة الثقافة

أولاً الكتب المترجمة:

- (أندريه مالرو) ـ مرآة ظلال الشعور ـ ترجمة وتعليق.
- (جان ريكاردو) ـ قضايا الرواية الحديثة — ترجمة وتعليق.
- (بول فان تيغيم) ـ الرومانسية في الأدب الأوربي ـ مجلدان.
- (فرانسوا فوريه ، ديني ريشيه) ـ الثورة الفرنسية ـ ترجمة.
- (جاك بريفير) ـ كلمات ـ ترجمة وتعليق وتقديم.
- (أراغون) ـ أوريليان ـ ترجمة.
- (أراغون) ـ أجراس بال ـ ترجمة.
- (موباسان) ـ إيفيت وقصص أخرى ـ ترجمة وتقديم.
- (بريشت) ـ رؤى سيمون ماشار ـ ترجمة وتعليق.
- (بريشت) ـ أيام الكومونة ـ ترجمة.
- (بابلونيرودا) ـ أحجار السماء أحجار تشيلي ـ ترجمة.
- (تولستوي) ـ الحرب والسلم ، الجزء الثالث والرابع ـ ترجمة.
- (تولستوي) ـ آناكارينين ثلاثة مجلدات ـ ترجمة.
- (تولستوي) ـ البعث ، مجلدان : ترجمة.
- (تولستوي) ـ الأعمال المسرحية ، مجلدان : ترجمة.
- (تولستوي) ـ الأعمال المنشورة بعد موته ، مجلدان : ترجمة.
- (تولستوي) ـ حكايات شعبية : ترجمة.
- (تولستوي) ـ سوناتة لكر وتزر : ترجمة.

- (تولستوي) ـ السيد والخادم : ترجمة.
- (ألان تورين) ـ نقد الحداثة ، مجلدان : ترجمة.
- جماعة من المؤلفين ـ تاريخ الآداب الأوربية ، ثلاث مجلدات.
- (اندريه ريشار) ـ النقد الفني.

ثانياً التأليف:

- خليل مطران الشاعر : تأليف.
- رامبو شاعر الصبا والحداثة : تأليف.

مطبوعات دار عطية:

الكتب المترجمة:

- (روجيه غار ودي) ـ نحو حرب دينية ـ ترجمة.
- (روجيه غار ودي) ـ كيف نصنع المستقبل ـ ترجمة.
- (محمد أركون) ـ نافذة على الإسلام ـ ترجمة.
- (فاطمة المرنيسي) ـ أحلام النساء طفولة في الحريم ـ ترجمة.
- مطبوعات إيبلا : تأليف : ملامح من حنا مينه :

مطبوعات دار الفكر اللبناني:

- (سرفانتس) ـ دون كيشوت ـ ترجمة.
- (غوته) ـ آلام فرتر ـ ترجمة.

- **مطبوعات دار الفاضل:** (شارل أندر لين) ـ أسرار المفاوضات الإسرائيلية العربية 1917- 1977

الخاتمة

شدت أحداث الثورة السورية الكبرى 1925 – 1927 انتباه العالم كله، وحظيت باهتمام المؤرخين والباحثين العرب والأجانب من فرنسيين وإنجليز وروس وغيرهم. سلط هؤلاء الضوء على هذه الثورة، وأهميتها في تاريخ سورية الحديث، وهنا لا بد من الإشارة إلى تنوع ما كتبه الفرنسيون من مؤرخين أو عسكريين شاركوا في العمليات الحربية لقمع الثورة، أومن صحفيين رافقوا القوات الفرنسية الغازية. فقد كتب الكابتن كاربييه مذكراته سنة 1929 وهو أول حاكم فرنسي للجبل بعد موت الأمير سليم الأطرش عام 1923. فوجّه مذكراته بصورة أساسية إلى الرأي العام الفرنسي، بهدف تبرئته من التهم التي كالتها له بعض صحف بلاده، فأشاد فيها بالإنجازات التي حققها، وحاول في هذه المذكرات أن يزيّف الواقع ويتبجّح بمحبة سكان الجبل له، وهو الذي كان يُرغم وجهاء الجبل على تنفيذ أعمال السخرة على الطرقات العامة بهدف إهانتهم، وقد فرض على سكان السويداء دفع الليرات الذهبية غرامة بسبب اختفاء قطة أحد ضباطه.

وكتب الجنرال اندريا الذي قاتل في الجبل كتابه " ثورة الدوز وتمرد دمشق " وقد حاول في هذا الكتاب أن يخفف من وطأة الهزيمة المدّوية التي لحقت بالجيش الفرنسي في معركة المزرعة إذ قال " لا نستطيع أن نذكر شيئاً عما حدث في المزرعة، لأن الأدلة لم تكن كافية، ولكننا نعلم من الضباط الذين اشتركوا في

الحملة، أن الانسحاب انقلب إلى هزيمة، وأن الرعب دب في بعض الوحدات، وأن عدداً من الجنود قتلوا، وأن معدات مهمة غنمها الثوار كالمدافع مثلاً، فانقلبت هذه العملية إلى كارثة عظيمة، كانت تلك الهزيمة حملاً ثقيلاً على سلام سورية، وضربة قاسية على نفوذنا واحترامنا "[1]. وعمد إلى تشويه صورة الثوار والمجاهدين الذين امتشقوا السلاح لطرد المحتلين فقال: " دُعي إلى الثورة حُثالة القوم، كالمحكومين الذين يكثر عددهم في دمشق، والبدو الرحل المتشوقين إلى السلب، وتألفت عصابات كبيرة في بساتين الغوطة اللامتناهية أحاطت بالمدينة على مسافة عشرين متراً، وكان من الصعب طردها أو إبعادها "[2] غير أن الحقيقة كانت تفرض نفسها عليه بقّوة في كثير من الأحيان فها هو يقول: ولكن انتصار سلطان الجديد بعد معركة الكفر على حملة ضخمة مجهزة بأفتك أنواع السلاح أظهر عبقريته، وأدهش العقول، فانضوى الجبل بأكمله تحت راية الثورة "[3].

الروائي والصحفي الفرنسي بيير لامازيير رافق عام 1926 المفوض السامي هنري دو جوفنيل في قدومه إلى بلادنا، ووضع كتاباً بعنوان " مسافر إلى سورية " وفي هذا الكتاب يطرح المؤلف أسئلة كثيرة ويقدم آراء عديدة حول الدور الذي يمثله الفرنسيون في سورية فهو يقول: " مضت ست سنوات ونحن نرسل إلى هذا البلد مفوضين ساميين وضباطاً، وجنوداً ولا أحد تقريباً يعرف على وجه الدقة أين يقع ذلك البلد! أو ماذا نفعل هناك! أو ماذا نأمل أن نفعل هناك! ويضيف: كان الرجال المكلفون بتمثيلنا يرتجلون السياسة والإدارة يوماً بيوم، مستندين إلى فئة تارة، وإلى غيرها تارة أخرى، فتمكنوا من إغضاب الجميع، وهكذا شتتنا

---

[1] الجنرال أندريا – مصدر سابق – ص 88

[2] المصدر السابق – ص - 91

[3] المصدر السابق – ص 89

نفوذنا، وقدمنا للشعوب الأكثر توتراً، والأكثر صعوبة للإخضاع، والأكثر ميلاً للغليان أسباباً للاحتجاج، والاضطراب، وللثورة "ويظهر جلياً ان الصحفي يعزو الثورة إلى ضعف ممثلي الاحتلال أو إلى أخطائهم، ويمضي الكاتب في السياق ذاته حين يتحدث عن الجنرال غورو الذي حاول أن ينصّب نفسه حامياً للمسيحيين في سورية يقول الكاتب " وهكذا انخرط غورو في حرب صليبية جديدة على طريقته حال وصوله، ولم يخف إطلاقاً رايته، فقد صرّح في أثناء خطاب كان قد ألقاه يوماً في دمشق أمام قبر صلاح الدين العظيم الذي يجّل ذكراه كل مسلم فقال (حضوري هنا يكرس انتصار الصليب على الهلال).آه لهذا الطيش، وهذا الكلام المحزن، أي خطأ ألحقه بنا هذا الكلام " [1].

كتاب آخر يمكن الإشارة إليه صدر عن مجموعة " نحو تفهم الشرق الأوسط " بعنوان " المجابهة الفرنسية – السورية في عهد الانتداب 1925 – 1927" للكاتبة لانكا بوكوفا وهي عضو في هذه المجموعة الفرنسية الجادة، التي وضعت نُصب عينيها العمل على فهم أعمق وأصدق لشعوب المشرق العربي.

ترى الكاتبة أن أهمية النزاع الفرنسي – السوري من 1925 إلى 1927 تتعلق بالموقع الذي أحرزه في تاريخ سورية، فالثورة التي تفجرت، بالأساس بوصفها واحدة من الانتفاضات العديدة المقاومة للنفوذ الفرنسي، امتدت عامين كاملين كنزاع مسلح ومعمم كان له بكل مكان، وبكل تسمياته وتشّعباته وتفرعاته المحلية على اختلاف المراحل والمواقف شعار واحد مرفوع لا يتغير: الوحدة والاستقلال. وتقول: " والثورة التي سُحقت عسكرياً عام 1928 ظل لها امتدادها... امتداد مبادئها وأهدافها متمثلاً بالكفاح السياسي الذي كان يشترط إلغاء الانتداب، والاستقلال، ووحدة سورية، وجلاء القوات الفرنسية، وقد

---

[1] بيير لامازير – مسافر إلى سوريا – دمشق – دار المدى للثقافة والنشر – 2009 ـ ص 16 – 19 – 156

أكدت هذه الثورة أنها وطنية في جميع الحالات والمواقف، لأنها شملت مختلف مناطق سورية ولبنان "[1]

يمكن القول: إن ما كتبه الفرنسيون عن الثورة السورية لم يشر، بصورة عامة، إلى الأسباب الحقيقية والعميقة للثورة المتمثلة قبل كل شيء بنزوع السوريين إلى الحرية والذود عن حقهم في السيادة، وبناء وطنهم بأيديهم دونما حاجة لوصاية الآخرين عليهم. وقد قدموا التضحيات الجسام دفعاً للظلم الاستعماري البغيض.

هنا لا مندوحة عن الإشارة لما كتبه المؤرخ والمستعرب الروسي فلاديمير لوتسكي في كتابه " الحرب الوطنية التحررية في سورية 1925 –1927 الذي استغرق إعداده أكثر من ربع قرن 1930 – 1956. والباحث معروف بدراسته العلمية الدقيقة حول الوطن العربي. وهو يؤكد أن الانتفاضة المعادية للامبريالية في سورية كانت حتمية بصرف النظر عن وجود هذا الحاكم الفرنسي أو ذاك، فالثورة السورية هي بنظر لوتسكي مرحلة متقدمة في سيرورة تاريخية طويلة لنضال الشعب السوري نحو الحرية والاستقلال والسيادة الوطنية، لذا شاركت في هذه الثورة طبقات الشعب السوري كلها، من عمال، وفلاحين، وحرفيين، وتجار، وصناعيين، إلى جانب بعض الاقطاعيين والبرجوازيين في تيار مناهض للامبريالية الفرنسية، وهي حركة شعبية تقدمية بصرف النظر عمن كان على رأسها "[2] كما أنه يرى " أن الثورة السورية الكبرى شكلت آنذاك أبرز حدث تاريخي في الوطن العربي خلال النصف الأول من القرن العشرين[3] ولقد تتبع

---

[1] لانكا بوكوفا – المجابهة الفرنسية – السورية في عهد الانتداب 1925 – 1927 – دمشق – دار علاء الدين – 2003 – ص 19

[2] لوتسكي – الحرب الوطنية ـ مصدر سابق – ص 13

[3] المصدر نفسه – ص 7

لوتسكي الأثر الهام الذي بعثته انتصارات الشعب السوري خلال أكثر من سنتين فزعزعت هيبة الفرنسيين، وقوّضت جبروتهم العسكري، حيث استطاع شعب قليل العدد، لا يملك سوى أسلحة بدائية كالسيوف والخناجر والبلطات والبنادق القديمة، أن يخوض معارك شرسة، من خلال حرب عصابات وطنية، لامست حد الأسطورة، فقد أكدت هذه المقاومة الشعبية أن الشعب الموحد، والمؤمن بعدالة قضيته، لا يمكن أن ينهزم.

.. لقد استولى الثوار جراء بسالتهم وبطولاتهم على الأسلحة الفرنسية، ومكّنهم السلاح الذي غنموه من إبدال بنادقهم القديمة ببنادق حديثة، وأسلحة رشاشة، وحققوا انتصارات مشهودة، .وألحقوا بالغزاة هزائم عديدة، وقتلوا آلاف الجنود الفرنسيين، وجنود المستعمرات التابعة لها، وتناقلت وكالات الأنباء العالمية يومياً أنباء البطولات الرائعة، التي نالت إعجاب الأحرار والديمقراطيين في العالم بأسره، وحظيت على تأييدهم.

وتحت شعار ـ الدين لله والوطن للجميع ـ " فقد تحوّل جبل الدروز آنذاك بفضل نضاله الصلب وتضحيات سكانه من أجل سيادة سورية كلها ووحدة أراضيها وأمانيها القومية العربية إلى جبل العرب كل العرب رافضاً كل التقسيمات والتسميات الطائفية التي أوجدها الانتداب الفرنسي أو الانتداب الإنجليزي لتسهيل سيطرتهما على المشرق العربي بعد أن سيطرا على مغربه "[1].

بقي أن نقول إن لوتسكي انطلاقاً من موقف نظري ماركسي راح يبحث عن عمق المحتوى الطبقي للثورة فبالغ في تقدير وزن الطبقة العاملة السورية ودور الحزب الشيوعي السوري اللبناني في الثورة السورية.

---

[1] لوتسكي – الحرب الوطنية ـ مصدر سابق – ص ـ 15

وبما سبق يمكن القول: إنَّ أهمية تجربة السوريين أنفسهم تكمن فيما قدموه إبّان معارك الثورة، وفيما كتبوه عنها، وهذه هي غاية هذا البحث، فأهل مكة أدرى بشعابها، وبخاصة حين يشاركون بحماية هذه الشعاب، وبذل الغالي والنفيس دفاعاً عنها بالقول والفعل. فشكيب أرسلان لم يكن المدافع عن قضية الثورة السورية في عصبة الأمم، وفي المحافل الدولية فحسب، بل كان على صلة حية بوقائع الثورة وأحداثها، وكان أخوه عادل قائداً من قادة الثورة البارزين، وكثيراً ما وجّه الرسائل، وقدم النصائح والآراء المتعلقة بسير المعارك وخطط القتال. وسلامة عبيد الذي رافق المقاتلين أثناء حربهم طفلاً، وانتقل معهم إلى المنفى، واستوحى شعره من وقع حدائهم وأزيز رصاصهم، عكف بعد ذلك على تأريخ الثورة في ضوء وثائق لم تكن معروفة، ورشيد طليع جاء من البعيد ودخل إلى سورية ليشارك الثوار كفاحهم ومعاناتهم ويموت بينهم، وركبت أسمهان المغامرة وخاطرت بحياتها بعد أن سمعت وعود الفرنسيين بمنح السوريين استقلالهم. ولم يدّخر صياح جهيم جهداً في تعليم دروس الثورة، ونشر قيمها بين طلابه.

وفي النهاية لا مندوحة عن القول: إن الثورة السورية الكبرى أسهمت إسهاماً كبيراً في تكوين الضمير الوطني والقومي وإيقاظه، والعودة إلى البيانات العديدة التي وجهها قائد الثورة إلى أبناء وطنه خير دليل على ذلك فقد جاء في إحدى هذه البيانات: " باسم الوطن السوري المقدس، وباسم استقلاله المبارك، أحييكم، وأحيي فيكم العروبة الصادقة، والأنفة القومية، أيها المواطنون العرب: إن ثورتنا الدموية هذه هي بعروتها وززها ثورة القائم لتحرير البلاد من المغتصبين المستعمرين، هي سورية بعيدة المدى شريفة الغاية، نصابها النفوس والأرواح والسلاح والعزمات الصادقات خالصة لوجه الاستقلال العربي، ففي سبيل استقلال بلادنا السورية حياة الأعزة نحيا، وفي هذا السبيل موت الكرام نموت "

مراجع البحث

1 – فلاديمير لوتسكي – الحرب الوطنية التحررية في سورية – بيروت – دار الفارابي 1978م

2 – سلطان الأطرش – أحداث الثورة السورية الكبرى – دمشق – دار طلاس ـ 2008 م

3 ـ الجنرال اندريا – تاريخ الدروز وتمرد دمشق ـ دمشق – المكتبة الحديثة ـ

4 – أحمد شوقي – الشوقيات – بيروت – دار الكتاب العربي ـ بلا تاريخ

5 – عبد الرحمن الشهبندر – مذكرات – دمشق ـ 1933م

6 – بريجيت شبيلر – انتفاضات جبل الدروز وحوران في العهد العثماني بيروت – دار النهار ـ 2008م

7 – د. سامي الدهان – شكيب أرسلان حياته وآثاره ـ مصر – دار المعارف - 1967م

8 – ظاهر محمد صكر الحسناوي – شكيب أرسلان ودوره في حركة النهضة العربية – بيروت – دار الريس ـ 2002م

9 – شكيب أرسلان – روض الشقيق – دمشق – دار الطليعة ـ 1925م

10 – شكيب أرسلان – سيرة ذاتية – بيروت – دار الطليعة ـ 1969 م

11 – لوثروب ستودارد– حاضر العالم الإسلامي – بيروت – دار الفكر ـ 1974م

12 – محمد شفيق شيا – شكيب أرسلان – مقدمات الفكر السياسي – بيروت – معهد الإنماء العربي ـ 1983م

13 – ديوان الأمير شكيب – مصر – دار المنار ـ 1935م
14 ـ محمد علي الطاهر – ذكرى الأمير شكيب – القاهرة – مطبعة البابلي ـ 1947
15 ـ يوسف الحكيم – بيروت ولبنان في عهد آل عثمان – بيروت – المطبعة الكاثوليكية - 1964م
16 ـ د. مسعود ضاهر – تاريخ لبنان الاجتماعي – بيروت – دار الفارابي ـ 1982 م
17 ـ شكيب أرسلان – السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة – دمشق ـ دار اليقظة ـ 1937م
18 – ذوقان قرقوط – المشرق العربي في مواجهة الاستعمار – القاهرة ـ الهيئة العربية للكتاب ـ 1977م
19 ـ محي الدين السفرجلاني – تاريخ الثورة السورية – دمشق – دار اليقظة - 1960م
20 ـ شارل أندريه جوليان – أفريقيا الشمالية تسير – تونس – الدار التونسية ـ 1976م
21 ـ الطيب بنونة – نضالنا القومي – طنجة – دار طنجة - 1980م
22 ـ أحمد الشرباصي – أمير البيان شكيب أرسلان – القاهرة – مطبعة المعارف ـ 1965م
23 – أمين طليع – الشهيد رشيد طليع – بيروت – دار الحكمة - 1982م
24 ـ أحداث الثورة كما سردها قائدها – دمشق – دار طلاس ـ 2007م
25 ـ نجيب البعيني – رجال من بلادي – بيروت –ؤسسة الريحاني ـ 1984م
26 ـ سيف الدين القنطار – بدوي الجبل محمد سليمان الأحمد – دمشق ـ وزارة الثقافة ـ 2000م
27 ـ سعيد الصغير – بنو معروف الدروز في التاريخ – بيروت – 1952م

28 ـ سلامة عبيد – الثورة السورية في ضوء وثائق لم تنشر ـ دمشق – دار اليقظة ـ 1960 م
29 ـ ديوان الزركلي – بيروت – مؤسسة الرسالة ـ 1993م
30 ـ شريفة زهور – أسرار أسمهان – دمشق – دار المدى للثقافة والنشر ـ 2006م
31 – محمد التابعي –أسمهان تروي قصتها ـ مصر – دار الشروق– 2008 م
32 ـ سعيد الجزائري – أسمهان اللحن الخالد – بيروت – 1990 م
33 صميم الشريف – الأغنية العربية – دمشق – وزارة الثقافة ـ 1981م
34 ـ علي عبيد – ربابة الثورة – دمشق – بلا تاريخ
35 ـ سلامة عبيد – ديوان لهيب وطيب – دمشق – 1960م
36 ـ سلامة عبيد – ذكريات الطفولة – دمشق – 1987م
37 ـ سلامة عبيد – اليرموك – مسرحية شعرية – دمشق – 1952م
38 ـ سلامة عبيد أبو صابر – رواية – دمشق ـ وزارة الثقافة – 1971 م
39 ـ سلامة عبيد – مختارات شعرية – دمشق – 1977 م
40 ـ علي القيّم – صياح الجهيم مبدعاً ـ دمشق – وزارة الثقافة ـ 2010م
41 ـ صياح الجهيم – خليل مطران – دمشق ـ وزارة الثقافة 1990 م
42 - محمد مهدي الجواهري _ ديوان الجواهري _ الجزء الثاني _ وزارة الثقافة 1980م
43 - البرقوقي – شرح ديوان المتنبي – الجزء الرابع – ط2 – مصر – 1938م
44 - إيليا أبو ماضي – تبر وتراب – بيروت – دار العلم للملايين – 1970م
45 - ميشال جحا – خليل مطران – بيروت – دار المسيرة – 1981م

المحتوى

أعلام في السياسة والأدب والفن : تؤلف الثـورة الـسورية الكبرى بينهم / سيف الدين القنطار .- دمـشق ، ٢٠١٣.- ٢١٧ ص ؛ ٢٤ سم.- (سلسلة الدراسات ؛ ١٤).

١- ٩٢٠ ع ق ن ط أ ٢- العنوان ٣- القنطار
٤- السلسلة

مكتبة الأسد

اتحاد الكتاب العرب
Union des Ecrivains Arabes
Damas دمشق